إحسان شرارة

أغاني الهوى ورسائل الحنين

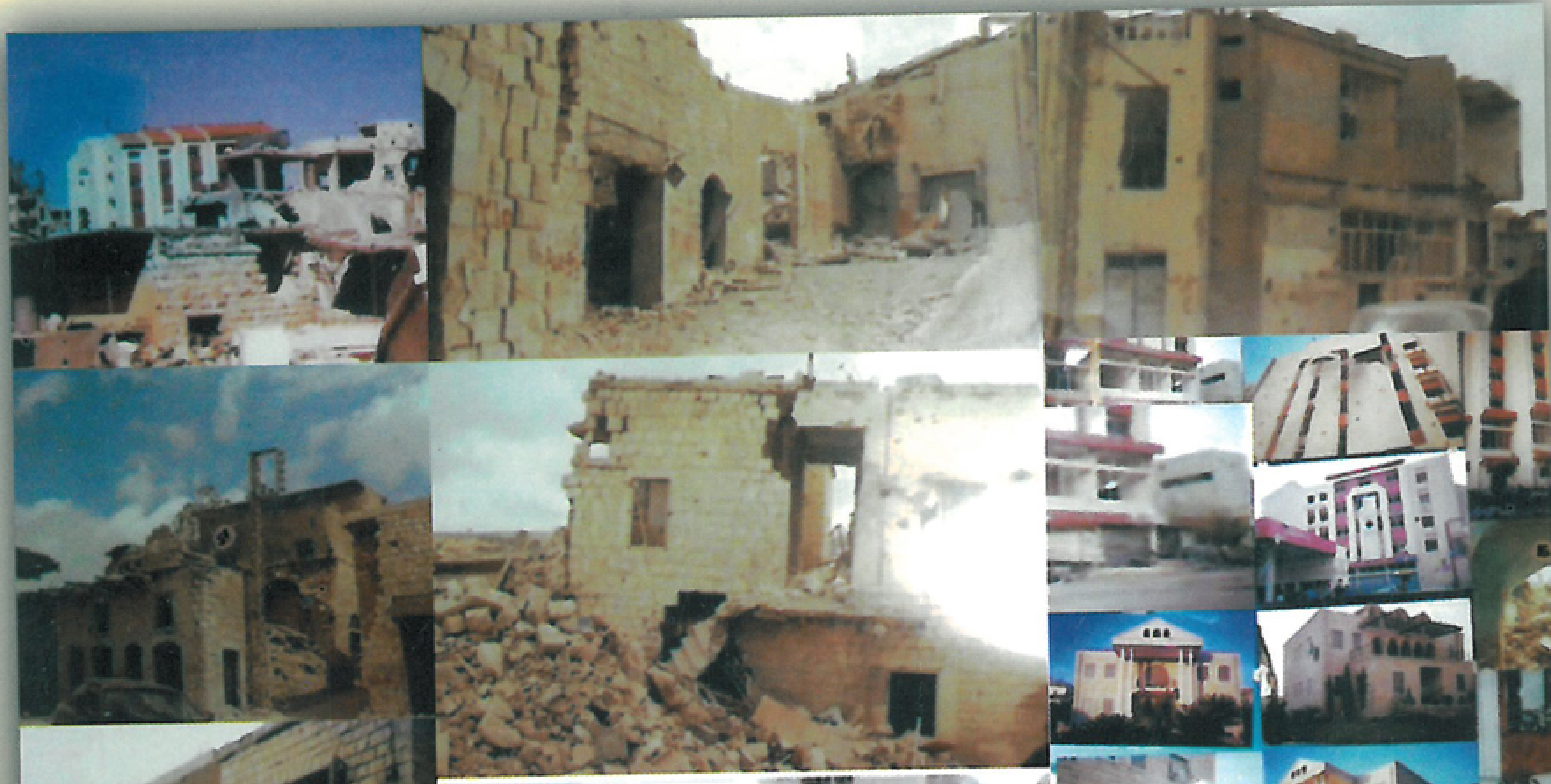

دار المنهل اللبناني

أغاني
الهوى
ورسائل
الحنين

إحسان شرارة

أغاني الهوى ورسائل الحنين

دار المنهل اللبناني

أغاني الهوى ورسائل الحنين

إحسان شرارة

◆

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

2010م ـ 1431هـ

ISBN 978-9953-557-12-0

صور الغلاف: أماكن من مدينة بنت جبيل قبل عدوان 2006

دار المنهل اللبناني للدراسات

الناشر: دار المنهل اللبناني

بيروت ـ النويري، سنتر حمادي ـ ط6 ـ Bloc-B

هـاتـف: 631654 (01) - خليوي: 920930 (70)

بريد إلكتروني: dar-almanhal@hotmail.com

التوزيع: مكتبة رأس النبع

بيروت ـ رأس النبع ـ شارع محمد الحوت

هـاتـف: 631654 (01) ـ 920930 (70) ـ تلفاكس: 633432 (01)

تقديم

د. محمد علي شمس الدين

هذا الكتاب هو كتاب إحسان شرارة. بعيداً عمّا كان صدر له من كتب سابقاً، وما قد يصدر لاحقاً، يبقى هذا الكتاب، بالمطلق والتخصيص معاً كتاب إحسان. إنه هو، تقريباً، على امتداد خمسين عاماً من الكتابة، بدأت تباشيرها في ستّينيّات القرن الفائت وامتدت إلى يومنا هذا.. أوراق من رزنامة العمر تتجاور مع رسائل خاصة وقصائد ذاتية ومدوّنات متفرقة لا يجمع بين رقابها المتنافرة سوى سلك واحد هو الكاتب نفسه. وحين وضع الرجل بين يديَّ كتابه الذي سمّاه «أغاني الهوى ورسائل الحنين» كنت رفيقاً برفقه به حريصاً على ما حرص هو عليه، حرصي على وجه إحسان الباسم الطافح تكوينه بالبشر، المرحب بك ولو من دون كلمات، وقلبه النادر الذي لو فتحته لما وجدتَ فيه سوى الحب والحب ولا شَيْءَ سوى ما أزهر منه واخضرّ من جمره على مرور السنوات. لكأنّ قلب إحسان شرارة قلب بلا رماد.

والكتاب هذا يكاد لا يُمسّ. إنه ليس كتاباً كسائر الكتب لكي أسمح لقلمي بالضرب طولاً وعرضاً. لماذا؟ أسأل وأجيب: لأنه كتاب كاتبه. لقد جمع هذا الشاعر والكاتب أوراق ستين عاماً من العمر، ووضعها في باقة وقدمها للناس. والكلام على كتاب إحسان شرارة هو كلام لا يدخل في فقه النقد، فمع أني لست بناقد، فأنا أكتب، وأكتب على كتاب.. وأدّعي أنّ كلامي هنا جارٍ على هواي مثلما هو كلام إحسان شرارة جارٍ في كتابه على هواه. هنا كتاب لا يحق لك أن تقول فيه: يصحّ ولا يصحّ.. والأفضل لو... وما يشبه ذلك. هنا كتاب كطفل مكتمل الخلقة لله. تحبه أو لا تحبه ولك أسبابك. ولو كان الكتاب كتابك لكان أيضاً حقك علينا أن نخضع لما رأيت. وقد أحببت حقاً ما كتبه إحسان شرارة بوزن وبلا.. ومن رومانسيات الغزل إلى رسائل المودّة، ومن نثريات العيش اليومي إلى التأمل في بعض مفاصل الأيام. وذلك لا يعني أنني لو كتبت كتابي لكان كتابي مثل كتابه، فهذه الكتب وما يشبهها ليست مثالاً يُحتذى، يكتبها أصحابها كل على صورته ومثاله. ومثلمابصمة العين البشريّة لا تكرر ولا تزوّر، كذلك بصمة هذا الكتاب وهي هنا بصمة قلب الكاتب. وإنني أفتّش في زوايا صدري عن سبب ما لمثل هذا الحب، فليس الأمر لهذه الدرجة من اللاأدريّة. فوجدت أوّل ما وجدت ملامحَ من وجهي القديم في بلدة «بنت جبيل»، مسقط رأسِ الكاتب، ومعقد عدد كبير من أوراقه، هنا أسماء عرفتها وعايشت بعضها ردحاً من الزمن، وأماكن بعينها زرتها وجلست فيها وألفتها في ما مضى من أيام

في حياتي، فكأن إحسان شرارة يستعيدني نَصّياً من خلالها حين استعادتها كجزء من يوميات حياته: موسى الزين شرارة وجميل جابر بزي والدكتور إسماعيل والشيخ علي شرارة والمربي محمد علي شرارة وغيرهم كثير.. إنّ سوق الخميس في بنت جبيل وشلعبون وطريق العين وفانوس المساء ووشوشات اليوميات القديمة الصغيرة كلها تشكّل منطقة سحريّة من مناطق الطفولة بما تشحنه في النفس من ذكريات وخيالات هي أصل من أصول الإبداع مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة والتجارب.

لقد وجدت إذن جزءاً من وجهي الضائع أو المطمور من خلال يوميات إحسان شرارة في «بنت جبيل».

ثم وجدت النبض الإنساني في أكثر من موضع في الكتاب.

قد لا يكون النبض الإنساني بحاجة لكلفة عالية في الأدب، ولضغطٍ من الغموض والتعقيد لكي يطفو على سطح النصوص. يكفي أن يكون صادقاً وزاهياً ويمدّ اليد للآخر لكي يطفو النبض الإنساني في الأدب على سطح النصّ.

التعقيد في هذه المسألة قد يفسد الإرسال ويضع الرسالة في متاه، النبض الإنساني في الأدب يكون أحياناً بسيطاً ومعبراً وشبيهاً بحركة فتى يحبّ فتاة، فيأخذ يدها بصمت ويرفعها بيده ويضعها على صدره.

قلتُ: في كتاب إحسان شرارة نبض إنساني. صحيح أن النبض

الإنساني وحده، كالأخلاق، لا يكفي لصنع الأدب.. فالأدب صعب ومتطلب، ولكنْ مع كرّ الأيام، تبيّن لي قيمة أن يكون في النصّ الأدبي نبض إنساني. نصوص كثيرة ذات تقنيات عالية في الكتابة، ينالها التحجّر، وتتحوّل إلى متحفية أدبيّة، لخلوّها من النبض الإنساني. كيف أشرح ما أرمي إليه؟ بالتأكيد في النبض الإنساني جزء من العاطفة وجزء من التعاطف، وذاك الإحساس بأن الناس معنيون بما نقول عنايتنا الشخصية به، وفي النبض الإنساني أكثر من ذلك، ما تكشف عنه حواشي النصّ حين ينكشف هو للقارىء. فكتاب إحسان شرارة كما شاءه كاتبه منقسم قسمين: أغاني الهوى ورسائل الحنين. ويبدأ الكاتب كتابه الجميل بقصائد الحب.. فنشعر أنّ الحب ضدّ الموت، ومن عبق الألوهية، وهي أناشيد حب رومانسية طويلة كتبت في ستينات القرن الفائت، حيث كانت لا تزال تمتدّ على الشعريّة العربية أجنحة خفيفة من يوميات الملاّح التائه، ونسيمات تهبّ من ضفاف بحيرة لامارتين، وحيث الحب والإبحار والليل، يسربلها القلق الوجودي، هي أقانيم شعر الحب وقتذاك.

قصائد إحسان شرارة في هذا الجزء من الكتاب مقاطع غنائية موزونة على مجزوء بعض الأوزان الخليلية حيث نظمها الشاعر بمعظمها على مجزوء الكامل وجوازه التفعيلي «متفاعلن» حيث الانسياب الصوتي والوزن يخدمان غرض النفس الرومانسية. واللغة أحياناً تلتفّ على ذاتها ما يستدعي الترجيع: سألت سؤالي.. جناح لفّه جناح.. الخ. ووراء القصائد لحم وعصب ودم. تلوح حياة حب

حقيقية. الكلمات في القصائد ليست بنت الكلمات بل بنت الحياة. يقول الشاعر، بمناسبة الحب «نحن الذين نخلق الجنّة» (ماذا سألبس 1961) وصحيح أنّ اللغة فيها شيء من الشغل، لكنها تميل على الأرجح للتلقائية أكثر من ميلها للتصنيع:

«قل لي بربك: ما الحياة إذا ذوى كالزهر حُبّ؟
وتلاشت الأحلام في الدنيا ولفَّ الكونَ كَرْبُ!
ماذا سيبقى إن بَعُدْتِ ولم يعدْ في القلب قلبُ؟
أبداً يشاء بأن أحبَّكِ دائماً كالربّ ربٌّ»
(ماذا سيبقى؟ 1965)

ينبض السرد في «رسائل الحنين» بلطف الشعر... بِرِقَّتِهِ وإنسانيته وهي بمجملها رسائل خاصة، بمعظمها ذات أساس عائلي، لكنها تفيض عن المناسبة مثلما تفيض ساقية في حقل عن ضفتيها لتروي التراب المجاور. في الكتاب، على سبيل المثال، نصّ بعنوان.. أخي الحبيب أبا علي: «... وهي رسالة أرسلها الكاتب إلى شقيقه محمّد» الذي هاجر إلى ديترويت في الولايات المتحدة الأميركية، مع أسرته، في أواسط ثمانينيّات القرن المنصرم. والرسالة جزء من خصوصية عائلية، لكنّ قراءتها تكشف عن ذاك الذي سمّيناه النبض الإنساني للأدب وهو جزء من مشروعيته. فليست أولاً، كل خصوصية عائلية قابلة لتنشر، فضلاً عن أنه، ثانياً، ليست كل خصوصية عائلية صالحة لتكون نصاً أدبياً. ولكنّ هذه الرسالة العائلية الخاصة بالذات، التي أرسلها إحسان شرارة من بنت جبيل إلى أخيه محمد «أبي علي» في

ديترويت»، هي نص إبداعي بسيط وعميق، طافح بلمسات الرفق البشري، متأمّل لصيرورة العمر وتقدُّم فرسه في المسالك الوعرة للحياة، وفيه مقارنة هادئة بين زمن مضى بعاداته وزمن راهن رابخ كالجمل ضاغط بالخوف والاحتلال... مقارنة بين رومانسية فقيرة غاربة وراهن أسود كالح.

وفي النصّ ذاك الرفق الذي يصعد به من أن يكون عادياً مستهلكاً تقول حياله: ما خصّني به؟ ليغدو أدباً معبراً أنت شريك فيه. يقول الكاتب:

«أنا بشوق زائد إليك. أحببت هذه الليلة أن أسهر معك..... ربما كنت تذكر أو لا تذكر عندما كنتَ صغيراً وأنا الأكبر بينكم، كم لاعبتك وداعبتك وأضحكتك وأبكيتك وكم رتبت شَعرك وألبستك أزهى ثيابك وأخذتك معي إلى الكرم أو إلى بيت الجدّ..... صدّقني يا أخي أنّ مأساة الإنسان تتلخّص في سرعة الأيام وهي تطوي عمره........ ما كان أحلى طفولتنا وشبابنا يا أبا علي... صدّقني يا أخي أنّ للأرض نداءً وأنّ حبّ الوطن هو الوجع المقيم».

بمثل هذه التلقائية الأصيلة ذات الشحنة التعبيرية الفائضة عن ضفافها، كتب إحسان شرارة رسائله، ودوّن أوراقه، على شكل نبذ من تاريخ شخصي وتاريخ محلي أدبي وسياسي واجتماعي لبلدة بنت جبيل... ليقدم لنا كتابه الجميل والخاص، الذي قال فيه «... ففيه أرى نفسي ورحلة عمري ومسلسل أيامي». [من المقدّمة].

بيروت 25 ـ 7 ـ 2010

مقدمة

فكّرتُ طويلاً، وأخذتُ كثيراً من الوقت، حتى اسْتَقرَّ رأيي على هذا العنوان، عَلَّهُ يكونُ اسماً على مسمّى، وتنطبقُ عليه مقولة «الكتاب يُقرأ من عنوانه» ففيه أرى نفْسي، ورحلةَ عمري، ومسلسلَ أيامي، ومختلفَ مشاعري، وأرى فيه كذلك فَرَحَ الصِّبا، ووجعَ البعاد، ومعاناة الغربة... وأنا ـ في الوقت نفسه ـ من جيلٍ عصاميٍّ، طامحٍ، حَمَلَ مبادىءَ المُثل العليا، وحَلِمَ بغدٍ عربي مشرق، ومستقبلٍ زاهر، وباستقرارٍ واعد..

لكن الأحداثَ التي طاولتِ الوطنَ الصغير ودنيا العرب، اغتالتْ آمالنا، وخَنَقَتْ أحلامنا، وأحالتْ أيامنا قلقاً واحتراباً ورعباً، فدمَّرْنا وطننا، وتقاتلنا ـ ولمّا نزلْ ـ وفقدْنا نعمةَ الأمان، ولذَّةَ الاستقرار، وأضعْنا عُمْرَنا بين التهجير والخوف، ورمينْا أنفسنا في دوّامة صراعٍ عَبَثيٍّ مجنون.

نحن، المعذّبين في الأرض، نَغْبِطُ أصحابَ الدّيار، الذين يفرحون بأولادهم، يتمتّعون بأملاكهم، بخيرات بلادهم، بأرضها وسكّانها وعمرانها وَمائها وجمالاتها، ورَغَدِ عيشها،... نحن الذين

لا نعرف ما يحمل إلينا غَدُنا، وما تخبئه لنا الأيّام... نرجو، ونحلم، ألاَّ نُهَجَّرَ في وطننا، أوْ مِنْ وطننا، فهذه مأساة فلسطين، مأساةُ كلِّ العرب تُذكِّرُنا بكلِّ أندلسٍ ضائعة، وبكلّ مؤامرةٍ خبيثةٍ طاولت أو سوف تطاول أيَّ بقعةٍ من وطننا الكبير.

نحن نعاني وجعاً يَتَوَالَدُ، وحُزناً كربلائياً مقيماً في وجداننا، وقد نشعر بغربةٍ في مجالس الأنس والسمر، فمعذرةً أرجو إن سرقتُ من الزمن في مطلع الصِّبا بعضَ الفرح، وغنّيتُه عَفْوَ الخاطر في دُوار الوجد، وأَرْفَقْتُه برسائل الحنين التي كانت ابتهالاتِ الرّوح تناجي الأحبَّةَ والمقيمين خلف الحواجز التي قسَّمت الوطن، والتي وجّهْتُها في حينِه من بعيدٍ إلى الأرض والبيت - وكلِّ مرابع الطفولة - وإلى الأم والرفاق والمسافرين والراحلين بعينٍ دامعةٍ وقلبٍ مكلوم ونفسٍ موجعة.

إحسان شرارة
تموز 2010

الوطنيات

يا إماماً غرَّدَ العُرْبُ به*

شامخٌ كالمجد، يجتاحُ الأوانا
يتحدّى اليومَ بالخلد الزمانا

سجدَ التاريخُ في محرابه
وجثا المجدُ يضمّ العنفوانا

وزها الكونُ فخوراً تائهاً
يلثُمُ النور ويرتادُ الجنانا

لا تلوموا الدهرَ إن تاه به!!
عرفَ العلياءَ فيه منذ كانا..

... لم يُخِفْهُ الشركُ في سلطانه
فتحداه حساماً وسنانا

(*) ألقيت في احتفال في النادي الحسيني في بنت جبيل ونشرت في مجلة العرفان (المجلد 44) الجزء الثاني كانون الأول سنة 1956 جمادى الأولى 1376.

أيهابُ الظلمَ مقدامٌ يرى
منهجَ الحقّ مداساً أو مهانا
أيخاف الشرك في طغيانه
بعد أن شع الهدى فوق ربانا
أتهابُ الليلَ في ديجوره
شعلٌ تحرق بالنور دجانا

◆ ◆ ◆

وتهادى الوحي في صحرائها
يزرع الآفاق نوراً وأمانا
يزدهي بالحق في لألائه
ويواري الشركَ عنا والهوانا
صاحَ بالإيمان منّا مسلمٌ
يشهَدُ الحقَّ ويتلوه أذانا

◆ ◆ ◆

بطلٌ قد أرجف الدنيا وقد
ملأ البيداء ناراً ودخانا

مـاردٌ كـالـغـول فـي سـاح الـوغـى
يُـتـرع الـمـوت كـؤوسـاً ودنـانـا

◆ ◆ ◆

و«عـلـيٌّ» ذلـك الـطـود الـذي
يـتـحـدى الـشـرك لا يـخـشـى الـطـعـانـا
كـبَّـر الـلَّـهَ ونـاجـى أحـمـداً
وهـوى بـالـحـق سـيـفـاً وسـنـانـا
فـهـوى الـشـرك عـلـى أصـنـامـه
وسـرى الـتـوحـيـد يـحـتـل الـجـنـانـا

◆ ◆ ◆

يـا إمـامـاً أزهَـقَ الـشـرك ومـا
أُزهِـقَ الـبـطـلانُ إلا مـنـذ كـانـا
سـيـفُـكَ الـبـتّـارُ تـاريـخٌ فـهـل
نـوَّر الإسـلامُ لـولاه دُنـانـا
زرع الـصـحـراء إيـمـانـا بـه
جـاوز الـنـجـم فـنـاغـتـه سـمـانـا

وتهادى موكبُ النصر الذي
أنبَتَ الدنيا إخاءً وحنانا

* * *

وسلَلْتَ السيف في «يثربها»
فتوارث عن عراقيْنا عدانا
وبكى قيصرُ في يرموكنا
ورفعنا فوق «الشبون» الأذانا

* * *

يا إماماً أذهل الدنيا، به
عرف الدينُ إماماً لا يدانى
أذهل الكون جهاداً وتقًى
وحساماً ويراعاً وبيانا
وطرحتَ المال والدنيا فلمْ
تكنزِ المالَ ودِسْتَ الصولجانا
تخذوا العرش[1] فتوناً وازدهوا
وأحالوه حريراً وجمانا

---

(1) إشارة إلى معاوية وبذخه وترفه.

وتعالوا فوق رمل العز والفـ
ـخر والأمجاد يبنون مكانا
أشرق التاريخ والحق فلا
خلّد الملك ولا أرسى الكيانا

* * *

يا إماماً عاش كالشعب وما
ظلم الشعب ولا سام الهوانا
عشت للشعب وللحق فلم
تقتلِ[2] الأنصار أو تسبِ الحسانا
لا ولم تبن قصوراً شيدت
من دماء الناس ذلاً وامتهاناً
عشت للدين وللحق وما
صُنْتَهُ كان جديراً أن يُصانا

* * *

يا إماماً غرَّدَ العربُ به
حسدوا العرب عليه والزمانا

(2) إشارة إلى قتل معاوية حجر بن عدي وأصحابه وسبي يزيد لحرائر أهل البيت.

جاشتِ العلياءُ فينا وانثنتْ
نفحةٌ منك تذكّي العنفوانا

نحن من ثورتكَ امْتدَّتْ بنا
ثورةٌ تُلْهِبُ - إعصاراً - دمانا

نحن من ثورتك الحربُ التي
تزرع «الأهراس»[3] ناراً ودخانا

نحن من ثورتك القاني الذي
خضَّبَ الريف[4] وروّى القيروانا[5]

نحن من ثورتك الركبُ الذي
طار للمجد، إذِ المجدُ دعانا

نحن تاريخٌ وإعصار إذا
نادتِ القدسُ أو الموعدُ حانا

نحن نارٌ في ربى القدس وقد
ألهبَ الإيمانُ بالنارِ قوانا

نحن في مغربها النارُ التي
تحرق الغرب ومَنْ للغرب دانا

(3) في الجزائر.
(4) و (5) مراكش وتونس

نـــحـــنُ بـــركـــان وأحـــقـــادٌ ولا
نـقـبـلُ الـضـيـم إذا الـضـيـمُ دهـانـا
نـحـن بـعـثُ الـشـعـب فـي وثْـبـتِهِ
فـاسـألِ الأردنَّ عـنـا وعُـمـانـا

◆ ◆ ◆

يـا شـهـيـد الـركـب يـجـتـاح الـمـدى
خـالـداً كـالـحـق يـجـتـاز الـزمـانـا
يـا شـهـيـداً غـالـهُ الـبـغـيُ الـذي
كـان كـالـطـغـيـان رعـديـداً جـبـانـا
هـذه الـدرب الـتـي نـوَّرْتَـهـا
لـم تـزلْ تـمْـرِغُـهـا حـمـرٌ دمـانـا
ركـبُـكَ الـصـاعـد يـحـدوه الـعـلـى
جـاوز الأنـجـم فـاحـتـلَّ سـمـانـا

◆ ◆ ◆

ذاك عـدنـان[6] نـشـيـد خـالـد
شـعَّ كـالإيـمـان طـهـراً وحـنـانـا

---

(6) إشارة إلى اغتيال العقيد الركن المجاز عدنان المالكي.

ذاك عـــدنـــانٌ أمـــانـــي أمـــة

شـاءه الـتـاريـخ إعـصـاراً فـكـانـا

أرجـف الأحـلاف فـي طـغـيـانـهـا

وأبـى يـخـنـق بـالـلـيـلِ صـبـانـا

قـتـلـوا عـدنـان، عـدنـان الـذي

ودَّ أن يـبـنـيَ لـلـعـرب مـكـانـا

يـا عـريـس الـورد فـي نـيـسـانـه

ركبـك الـصـاعـد لـن ينسـى الـكـيـانـا

◆◆◆

أيـهـا الـتـاريـخ هـذا حـيـدر

قـصـةٌ تـروى ومـجـدٌ لا يـدانـى

حـيـدرُ الإيـمـان، قـلـبٌ ثـائـر

يـلـهـب الـسـوط إذا الـركـب استـكـانـا

◆◆◆

حـيـدرُ الـلّـحـن الـذي تـاهـتْ بـه

سـيـرةُ الـخـلـد فـنـاغـتْـه سـمـانـا

حـــيـــدر الإيـــمـــان والـــنـــور الـــذي

هـــدهـــد الإســـلام أسًّـــا وكـــيـــانـــا

ســوف تــبــقــى الــنــور فــي أعــمــاقــنــا

تــصــفــع الــلــيــل إذا الــلــيــل دهــانــا

بنت جبيل

للثأر نحيا*

... وتمرُّ أعوامٌ تَزاحَمُ بالمصائبِ والكروبِ
تطوي الزمانَ ويعبَثُ الشّذّاذُ في وطني السليبِ
يتنعمّونَ ويرقصونَ على الأزاهرِ والطيوبِ
ملْهاهُمُ... مهدُ المسيح، وموئلُ الأملِ اللّعوبِ
وبلادُنا الخِيمُ العجافُ تناثرتْ فوق الدروبِ!
حسّان! ما جفَّ النجيع بموطني الدامي الخصيبِ
حسّان ما زلْنا على عهدٍ مع الوطن الحبيبِ
متعاهديْن يلفُّنا أملٌ تَرَعْرَعَ في القلوبِ
أملٌ يعبُّ من البطولةِ والعظائمِ والخطوبِ
أملٌ يغذّيه الشبابُ ورعْشةُ الثأرِ الرهيبِ
للثأر نحيا، للنضال، لعودةِ الوطن السليب

◆ ◆ ◆

(*) نشرت في العرفان، المجلد 43 الجزء العاشر، تموز 1956، ص 1082.

أسمِعْتَ أنّاتِ الجياعِ تطايرَتْ بينَ الخيامْ
دوّتْ بأعماقِ السكونِ فلفَّها صمتُ الظلامْ
وغفَا الصغيرُ على التأوّه والتحرّقِ والسَّقامْ
وَبَكَتْ له أمٌّ تحاولُ أن تنامَ ولا تنامْ
أطفالُها ذابوا التياعاً واشتياقاً للطعامْ
وتزوّدوا بالجوعِ والصّبرِ الجريحِ وبالصيامْ
شربوا مدامعَهم!! فجنَّ الثأرُ وانتفضَ الحُسامْ
وتسابقوا للسّاح، للجلّى، إلى الأرضِ الحرامْ
أيسيرُ يا حسانُ ركبُهُمُ ونقنعُ بالكلامْ؟
لا! لن نقيمَ على المذلّةِ والخيانةِ والطّغامْ
سنكونُ كالإعصار، كالحقّ المُجلْجِلِ، كالحِمامْ

◆ ◆ ◆

حسان! لا تعتبْ إذا ما جنّ سيفيَ في يدي!
ومضيتُ أختصرُ البطولةَ في جنانِ المولد
سأطير للعزّ المجنّح هازئاً بالأعبدِ
أبتاه يدعوني إلى الجلّى إلى وطني الصّدي
وأخي القتيلُ يعيش في يومي، ويحيا في غدي
سيظلُّ كالبركانِ يحرقُني ويلهبُ موعدي:
لا! لن تكونَ بلادُنا ملهى الأثيمِ المعتدي

لا! لن يُطَلَّ دمُ الشهيدِ على تُراث محمّدِ
سنعيدُها خضراءَ تُزْهرُ بالربيعِ الأرْغدِ
سنعيدُها غنّاءَ تُمْرعُها دماءُ السّؤددِ
سنعيدُها، سنطيرُ للعليا، لِلَثْمِ الفرقدِ

بنت جبيل

قم إلى التاريخ!*

- إلى أخي الفدائي في غزة
وفي كل معترك ملتهب -

أيها الجاثمُ في روحي وفي قلبِ الخلودِ
أيها الثورةُ غَنَّتْها دمائي في الوريدِ
أنتَ في سمع الدُّنى أرجوعةُ اللّحن الفريدِ
وغناءُ الرّكبِ معطاءً، ونورٌ في الوجودِ
خالدٌ، كالله، كالتاريخ، كالحقّ الشهيدِ

◆ ◆ ◆

أنتَ يا أغنيَّتي في الدربِ... في الليلِ الطويلِ
يا أخي في القدس يدعوني وفي مثوى الجليلِ
في ربوع الطّيب، في غَزَّةَ، في مغنى الخليلِ!

(*) نشرت في العرفان، المجلد 44، الجزء التاسع، حزيران 1957 ذو القعدة 1376، ص961».

جرحك اللاّهبُ إعصارٌ بأعماقِ النخيلِ
يرسم الثأر يخطّ الدربَ جيلاً بعد جيلِ

* * *

أنتَ من لبّى هتافَ الحقّ يدعو للكفاحِ
للنضالِ الدائبِ الظامي إلى نورِ الصّباحِ
هزَّك الليلُ وأنّاتُ الأيامى في البطاحِ
وصغارٌ يتَّمَ الظلمُ أمانيهمْ فضجّوا بالصياحِ
فانتخَى الثأرُ بجنبَيْكَ على حدِّ السلاحِ

* * *

أنتَ من أرعب صهيوناً فضجتْ بالنّداءِ
مادتِ الأرضُ لدُنْ ثُرتَ وماجَتْ بالرجاءِ
دُنّسَ الطهرُ! فَجُنَّ الثأرُ يدعو للجلاءِ
ومهرتَ القدسَ مَعْ غزَّةَ من حُمر الدماءِ
وانْتَفَضْتَ الماردَ الجبَّار رمزاً للفداء

* * *

أنتَ من يُلهبُ شوطَ الركبِ في ساحِ النضالِ
ثابتٌ كالطوْدِ في الصبحة[1] أو فوقَ الرمالِ
يعرفُ الباغونَ من أنت؟ ومن أيِّ الرجالِ!

---

(1) أشاروا إلى معركتي الصبحة وأبو عجيلة.

يزرعُ الموتَ ويُهمي الرعبَ في سودِ الليالي
ماردٌ من معدن الثورةِ، من غرسِ «الجمال»

◆ ◆ ◆

أنتَ حقدُ الشعبِ إمّا ثارَ للحقِّ السليبِ
وبراكينٌ على «الأهراس» في كلِّ الدروبِ
واحدٌ أنتَ على سيناءَ في قلبِ «الجنوبِ»[2]
في حنايا المغربِ الدامي وفي القدسِ الخضيبِ
أشرقَ الفجرُ على جفنيْك من بعدِ المغيبِ

◆ ◆ ◆

أنت من مزَّق بالنيران أحلامَ اليهودِ
ورماهم سُجّداً أشلاءً في «البورالسعيدِ»
أيها الشعلةُ في شعبي، وفي قلب الخلودِ
أيها الأقوى من العدوان، من عَصْفِ الرعودِ
قم إلى التاريخ والثاراتِ في القدسِ الشهيدِ

بنت جبيل

(2) الجنوب العربي.

أنا في خيام النازحين*

أنا في خيامِ النازحينَ أعيشُ في قبري الحقيرِ
وأَضُمُّ بؤسيَ في الصغارِ النائمينَ على الحصيرِ
نقْثاتُ من جوعٍ يطاردُنا ومن ألمٍ مريرِ
ويَعَضُّنا نابُ الحياةِ وليسَ يرأفُ بالصغيرِ
سئمتْ ـ وربّي ـ الخيمةُ العجفاءُ من بؤس المصيرِ

◆ ◆ ◆

وهناك ما بعدَ الحدودِ الصامتاتِ تلوحُ داري!
بيتٌ يغلّفهُ السوادُ يئنُّ من مليونِ عارِ
وأكادُ أسمعُهُ يناديني ويسألني عن صغاري!
عن عودةِ المتشردينَ الهائمينَ على البراري
عن موعدِ الوطنِ السليبِ مع الفداءِ لأخذِ ثارِ
عشرٌ تمر عليكَ يا وطنَ البطولةِ في الإسارِ

(*) نشرت في مجلة العرفان المجلد 46 الجزء الأول عدد أيلول 1958م ربيع الأول 1387هـ ص31.

عشرٌ ليخفقَ بعدَها علمُ العروبةِ بانتصارِ
ونعودَ رغم البردِ والجوع اللئيمِ إلى الديارِ

◆ ◆ ◆

أنا في خيامِ النازحين طعامُ إعصارِ الشتاءِ
البردُ يلْسعُني ويحضُنُ طفلتي ليلُ الشقاءِ
وصغيريَ الحَمَلُ الوديعُ يضجُّ من آلامِ داءِ
وأنا ـ وَسَلْ بيتي المرتَّقَ ـ ليس لي ثمنُ الدواءِ
فأصمُّ أذنيَ بالعذاب المرِّ عن هذا النداءِ

◆ ◆ ◆

وأطيرُ بالذكرى إلى يافا، إلى صفدِ الجليلِ
لروائح الأزهارِ في اللّدّ الكئيبةِ والخليلِ
وتلوحُ لي حيفا وقد ديسَتْ بأقدامِ الدّخيلِ
... وطنٌ تدنَّس باليهود وذابَ شوقاً للنخيلِ
عشرٌ ويتشحُ السوادَ المرَّ في الليل الطويلِ
ليلانِ يا وطني: حدادٌ قاتم منذُ الرحيلِ
أسمعْتَ طفليَ لقمةَ الآلام يَشْرقُ بالعويلِ
يذوي، وتعلمُ خيمتي، والفقرُ، أسبابَ الذبولِ

◆ ◆ ◆

أنا في خيام النازحين أعيشُ في هذا الوجودِ
ومئاتُ آلافٍ هنا وهناك مثليَ في الصعيدِ

أبتاه: حدثّني - يقولُ الطفل - عنْ وطني المجيدِ
كيفَ استُبيحَ الدارُ يا أبتي لأصبحَ كالشريدِ
هو ذا يناديني فقد ضجَّتْ ثراهُ من اليهود

◆ ◆ ◆

سنعودُ يا أبتي ورغمَ الموتِ نحياهُ رجاءَ
ونعيدُ للوطنِ السليبِ مباهجاً وغداً مُضاءَ
وتعودُ حيفا والجليلُ ودارُنا تزهو رُواءَ
وتتيهُ حطينٌ بركبِ العربِ يُنبتُها إباءَ
ها نحنُ في صدر الخلود (جمالُنا) نورٌ أضاءَ!!
جئنا لقُدسكِ يا بلادي واهبينَ لكِ الدماءَ
من قلبِ هذي الخيمةِ العجفاءِ لا نخشى الفناءَ
الركبُ أقبلَ يقحَمُ التاريخَ!... رغم الموت جاء

1958

في عيد الوحدة

ردّدي تسكرْ مع التّردادِ آلافُ الحناجرْ
ردّدي أُغْنِيَّةَ الوحدةِ من إعصار ثائرْ!
ردّديها في ثرى عمّان، في قلب الجزائرْ!
وانْظرينا، زَحَفَ الركبُ، فما للرّكب آخرْ
ردّدي يا أرضُ، يا تاريخُ هذا الزحفُ (ناصرْ)

◆ ◆ ◆

قم صلاحَ الدين، زحزحْ عنكَ أشْلاءَ القبورِ
مادتِ الدنيا... لَدُنْ أقبلَ عملاقُ الدهورِ
أمّتي في موكب «الناصر» آلافُ النسورِ
تقرعُ الأمجادَ، فالوحدةُ عادتْ للظّهورِ!
زغردي حطّينُ، جُنَّ الثأر في شعبي الكبيرِ

◆ ◆ ◆

حطّمِ القمقمَ عن دنياكَ واهزأ بالحديدِ
أمتي لا تعرفُ أوهاماً تُسمى بالحدودِ

وحدةٌ نحن، ملايينٌ... تصدَّت للعبيدِ
تصنَعُ التاريخَ، تجتاحُ المدى رَغْم اليهودِ
زغردي يا وحدةَ العرب وقولي: العيدُ عيدي!!

◆ ◆ ◆

نحنُ بركانٌ من الأمجاد قدسيُّ اللهيبِ
شمسُهُ لن تعرف بعد اليوم مأساةَ المغيبِ!
قَدَرٌ نحنُ، وجرحٌ رُاعفٌ فوقَ الدروبِ
وبطولاتٌ على (الأوراس) في قلب الجنوبِ
تسجدُ الأمجادُ إنْ دَوَّتْ أعاصيرُ الشعوبِ

◆ ◆ ◆

أيها الأسمرُ يا صوتاً من الله مُفدَّى
إسحقِ الأقزامَ وارفعْ في ربوعِ العُربِ مجْدا
وامسخِ الأوهامَ سمّوها ـ لخنق الشعب ـ حدّا
من مياهِ الشطِّ في الشرقِ إلى (تطوانَ) تُحدى
أمتي والبعثُ والناصرُ زَنْدٌ شدَّ زندا

◆ ◆ ◆

أمتي باسمكَ... هبَّتْ في ميادينِ القتالِ
وأضاءَتْ شُعلةَ الأحرارِ بركانَ نضالِ
فاشرأبّتْ (بورسعيدُ) المجدِ في (جول الجمال)
وبلادي شعلةُ الله تراءتْ لليالي

كلُّنا في طنجةَ في بغدادَ من روحِ الجمال

◆ ◆ ◆

نحن في العيد، وهذا الكونُ أعيادٌ تهادى
أمتي جُنّتْ من الأفراح... تجتاح البلادا
وأخي عيَّد في (الأوراس) إذ ضمَّ الزنادا
وأخي في القدس، في بغداد، لا نخشى اضطهادا
حَطَّمَ القيدَ، ولبّى النيلَ، حين النيلُ نادا

◆ ◆ ◆

نحن يا رائدَنا... للفجر...، لن نخشى الظلاما!
دَرْبُنا الصاعدُ للوحدةِ نورٌ يتسامى
قد سقيناهُ من الأرواح من نفحِ الخُزامى
صبَّ يا «ناصرُ» من روحكَ في الشّعبِ ضِراما
إننا لن نعرف قبل الوحدة الكبرى سلاما

◆ ◆ ◆

1959/2/25

معاناة الغربة
حلم غير منتظر

وطني

كانت المرة الأولى التي أغترب فيها عن الوطن
الذي حَمَلْتُهُ عميقاً في مشاعري وضياء العينين!

أنا لَمْ أزَلْ أحيا بِمغْنَاك الجميلِ الساحرِ
وأرودُ دنياكَ الجميلةَ في خيال الشاعرِ
أنا لستُ يا وطني بعيداً عن ثراك الزاهرِ!
في كلِّ زاويةٍ ومُنْعَطَفٍ أعيشُ بخاطري
وأراكَ لا أحلى، جلاكَ اللّهُ روعةَ قادرِ
دنياً من الإبداع في هذا المحيطِ الدائرِ!!!

◆ ◆ ◆

لا لَسْتَ في الشرقِ البعيدِ فأنتَ عنديَ سامري
ورفيفُ أضواءِ الحياة على سوادِ الناظرِ
ها أنتَ يا وطني بأوصالي وهَمْس مشاعري
منكَ الرعيفُ بخافقي غنًّى ومنكَ أزاهري

ولكَ اللهيبُ ولهفةٌ حرَّى وشوقُ مهاجرِ
ولكَ الحياةُ فداءُ شعبِكَ والترابِ الطاهرِ

* * *

وطني وأنْتَ بخافقي الحاني ترانيمُ الصلاةِ
أهفو لقريتِكَ الجميلةِ وهي تَرْفُل بالحياةِ
للّحنِ من شَبّابةٍ نَشْوى تَهيمُ مع الرُّعاةِ!
للعيْن، للمشوار، للأحلام تُنْثَرُ، للنكاتِ
للأوفِ، للمُوَّال، يا وطني يُغنَّى في أناةِ
ولكلِّ زاويةٍ بأرضكَ رُوِّيَتْ بدمِ الأُباةِ

* * *

سأعودُ يا وطني لدنياكَ الجميلةِ للغناءِ
وأرى روائعَ ربيَ الخلاّقِ تَزْخُرُ بالعطاءِ
لولاكَ ما ضحكَ الوجودُ ولا تَزَنَّرَ بالرُّواءِ
وطني... سأرجعُ للرّبى الخضراءِ أخْطُرُ بالهناءِ
وأعيشُ في حضنِ الجمالِ على مرابِعِكَ الوِضاءِ
وأذودُ عن قُدْسِ التراب بما ملكتُ من الدماءِ

1957/11/24
غرينوبل فرنسا

الجندول*

أنا يا جندولُ والحبُّ على الموجِ الرّخيّ
نتساقى من حميّا الوَجْدِ، والسحر الوضيّ
يَسْتَحمُّ البدر في قربي بتهويمٍ حَيِيٍّ
ويتيه الغُنْجُ في المجذاف للصوت الشجيّ
أنا في «فينيسِيا» في جَنَّةِ اللَّهِ العليّ!!

* * *

صفَق المُوج... لركبِ النورِ... يسري في دلالِ
قبَّلَ البحرَ فراحَ البحرُ يزهو باللآلي
كلّما غَلَّ بِهِ الضوءُ تلالا في اشتعالِ
حَسَدَ الحبَّ ـ على الجندولِ ـ تاريخُ الدوالي
ليلةٌ كالخلدِ... لا تَخْطرُ في بال الليالي...!!

* * *

(*) نظمت في فينيسيا أثناء رحلة 1958.

أيّها الملاح حدثْني عن الليلِ الطَّروبِ
واتْركِ المجدُافَ... لا تسرِ... ودعني لحبيبي
أنا لا أبغي إلى الأرض معاداً كالغريبِ!!
سوف أبقى في مغاني النُّور والحلم الرحيب
أنا في النعمى، وعيناها... كتابي وصليبي!!

* * *

أُتركِ المجدَاف يانوتيُّ فالليلُ دعانا
نحن؟ من نحن؟ إذا لم نُهْدِ للخُلْدِ هوانا
لفراشاتٍ يُوَشْوِشْنَ مع الزّهر لقانا!
لربيعٍ يُلبِسُ الدنيا رداءً من مُنانا!
قد سقَيْنا الحب أطياباً، وخمراً... وسقانا

* * *

هاتِ يا ملّاحُ ولْنَملأْ كُوى اللّيل غراما!!
سَكِرَ الجندولُ، والليلُ، وآلافُ النَّدامى
وثَمِلْنا، فَثَمَلْنا البحرَ معْنا والمُداما
ورنا الصمْتُ... فللأعيُنِ أن تُزجي الكلاما
نحنُ من طرَّزَ دَرْبَ الوردِ حباً وهياما!!

* * *

قد سرى العيدُ على الماء بأنوارِ عِذابِ
ودعا العشّاقَ فالتفّوا وجادوا بالشرابِ

فإذا البحرُ مواعيدُ صبايا وشبابِ
تُنبِتُ الأفراحَ... فالليلُ أهازيجُ الرِّغابِ!
وشفاهٌ تَغرِفُ الطيبَ من القلبِ المُذابِ!!

* * *

نَحْنُ يا جندولُ في حِضْنِكَ ما أحلى لقانا!!
لسوانا تلكُمُ الدنيا...، وها أَنْتَ دُنانا!!
آه لو تَعْلَمُ - يا جندولُ - كمْ ذِبْنا حنانا؟
قل لملّاحِكَ أن يهدأَ فاللّيلُ دعانا
أنتَ لن تعرف - بعد اليوم - حباً كهوانا!!

أغاني الهوى

في عيد ميلادها

نوّار اقبل من جديدٍ فاصدحْ فديْتُكَ بالنشيدِ
اليومَ يومُكَ أيها الغرّيد في الفصل الوليدِ
قم غنّنا من سحر لحنك ما غزلتَ من القصيدِ
وانثرْ على هذا الربيع مفاتن الحسن الفريدِ
الله... شاء الله أن تبقى بأوصال الخلودِ
وتظلَّ تحيا في جنان الحب، في عبق الورودِ
غرّدْ هزاريَ للهوى المِمْراح والعمر الرغيدِ
غرّدْ... فإني دونها وهمٌ يعيش بلا وجودِ

◆ ◆ ◆

اليوم يومك يا هزاري فاملأْ الدنيا غناءَ
واسكب على هذي الربى من خافقيْك هوًى مضاءَ
ها نحن في نوّار!!... هل تدري؟! فذا نوّارُ جاءَ؟
أنا يا هزاريَ قد ولدتُ به، به عشت الهناءَ!!

أنا قبل عينيها... تُرى... ما كنت... لا أدري: هباءَ؟
... ولقيتُها مجّدْ بربّك منشداً هذا اللقاءَ!!
لاح الربيع فأنتِ ربيعةٌ إمّا تراءى
لولاكِ! لولا الحبُّ لم يحمل إلى الدنيا الرجاءَ؟!

1959

أنتِ تغريد الوجود

أخشى على عينيكِ من نفسي، ومن لَهَبِ السّعيرِ!
ويلذُّ لي أن تحرقي عمري، تخطّي لي مصيري
فَأتيهُ في حبّي، كمَخْمورٍ يُداوى بالخمورِ
أرتاح لِلَّهَبِ الحنونِ يضيءُ أيامي بنورِ
لأرى على شفتيكِ بَسْمَة عالمي الرّحب الكبيرِ!

◆ ◆ ◆

أرنو إلى عينيْكِ، للنّعمى، فأشرقُ بالضياءِ
ويلوحُ لي أملٌ كدفء الطّيبِ يَنْعُمُ بالعطاءِ
ويطلُّ من أُفقِ المغيبِ غدي، كأطيافِ الرّجاءِ
مُلِئتْ ثوانيهِ العذابُ ـ فطابَ عمريَ ـ بالهناء
ماذا يكونُ الكونُ لو لَمْ توجدي بدمِ البقاءِ؟!

◆ ◆ ◆

وأتيْتِ للدّنيا، فكنتِ الطّيبَ في عَبَقِ الورودِ
ولدتْ بعينيك المنى وحلاوةُ العمر الشرودِ

لولاكِ ما عرفَ الوجودُ مفاتنَ الحُسْنِ الفريدِ
لولاكِ...!! ما غنّتْ بلابلُ حبِّنا أحلى النشيدِ
لولاكِ! ما الدنيا سواكِ؟! وأنتِ تغريدُ الوجود!!

آذار 1959

عيدك الميمون

عيدُكِ الميمونُ عيدي وربيعي وورودي
هو في عمري انبلاجُ الصَّحْوِ في خُضْرِ الوعودِ
ونشيدُ الطَّيْرِ مُذْ كانَ له دِفءُ النَّشيدِ
هُوَ يومٌ خالدٌ كاللّهِ في هذا الوُجودِ!
يومَ أشْرَقْتِ على الدُّنيا مع الفَجْرِ الوَليدِ
فزها تيهاً لعيْنَيْكِ وللصُّبْحِ الرَّغيدِ
ربُّنا توَّجَ عُمْرَيْنا بميلادٍ سعيدِ
فاهنئي... غدُنا الضاحكُ مُخْضَلُّ الوعودِ
هو يا ساميتي عيدُكِ في الدنيا وعيدي!...

◆◆◆

إنّه يومُ الهوى الفوّاحِ يَنْدى بالرُّواءِ
وعطاءٌ خيِّرٌ كاللّهِ في دُنيا العطاءِ
وُلِدَتْ ساميةٌ!!... فالكون تلالا بالضياءِ
والدُّنى ضَجَّتْ بها النُّعمى، وماجَتْ بالرجاءِ!!

وسرى السكرُ بأوصالِ الأزاهيرِ الوِضاءِ!!
أنت أَنبَتِّ ربيعَ العُمْر في قَلْبِ الشِّتاءِ
أنا في عَيْنَيكِ آمنتُ بربِّي، بالبقاءِ
أنا يا ساميتي - لو تدرينَ - إحسان الوفاءِ
فاهنئي... عيدُكِ عيدي، ونشيدي وغنائي

الاثنين في 15 شباط 1960

غدي الضّاحك

غديَ الضاحكُ في عينيك يشدو ويغنّي
مشرقَ الصّحوِ ربيعيَّ الهنا، حُلْوَ التمنّي
أنا منذ الآن أحيا في غدي الزاهي الأغنّ
أستشفُ الغيبَ ـ كاللّه بحبّي أو كأنّي ـ

◆ ◆ ◆

غديَ الضاحكُ رغم الغيبِ مزْهُواً تجلّى
صافيَ اللون، رضيَّ العمر يبدو ليس أحلى
الفتونُ البكرُ في عينيكِ قد تابَ وصلّى
والهنا في خُضْرِ أياميَ نشوانَ أطَلاً

◆ ◆ ◆

غديَ الضاحكُ قد أشرق في عينيْكِ حُلْوا
وبدا كالطيب إذْ يخطُرُ في عمريَ زهوا
المنى الخضراء... كم شعَّتْ على دنيايَ نشوى

وفؤادي... منكِ... من عينيكِ بالأحلام يُروى

◆◆◆

غديَ الضاحكُ يا ليلايَ قد غنّتْ رؤاهُ
وسقاهُ الحبُّ بالآمالِ فاخْضَلَّتْ مُناهُ
قد كساهُ اللّهُ من طيبِ هوانا ما كساهُ
فإذا نحن على الأيام... للطَّيْرِ غناهُ

◆◆◆

غديَ المشرقُ لو تدرِينَ حلوُ العمر ساحرْ
ضاحكٌ ريّانُ لم تحلمْ به أفكارُ شاعرْ
كلُّ يومٍ فيه أحلى من ربيع الروض زاهرْ
نحن لونّا حياةَ الحبِّ من عمقِ المشاعرْ

◆◆◆

غديَ الضاحكُ قد أشرق بالنعمى وأزهرْ
من صفاءِ الصحوِ قد صيغَ ومن إبداعِ عبقرْ
في غدي سوف يُغنّي الطيبُ والأحلامُ تسكرْ
ليس في الأعمار عمرٌ مثلُ أياميَ يُذكرْ!!

◆◆◆

غديَ الزاهرُ عَبْرَ البسمة السّكرى تلالا
مشرقاً ألمحُ في موكبه الزّاهي الغلالا

وأرى أجمل أحلامي تراقَصْنَ اختيالا
كلّ يوم سوف ازداد بعينيك اشتعالا

◆ ◆ ◆

غديَ الميمونُ ما أحلاه من عمر هنيٍّ
من رحيق الورد قد صِيغَ ومن شدوٍ شجيٍّ
سوف نحياه، رضيَّيْن، وفي نفحٍ رخيٍّ
غدي الميمونُ قد أشرقَ في قلبي الوفيِّ

1960

لي أنت

ووجدتُها... فاخضَلَّ عمريَ مُذْ رآها بالهناءِ
وزها الربيع بخافقي واهتزَّ من خمر اللقاءِ
والليل مات لتُزهِرَ الدنيا وتشرقَ بالضياءِ
طَلَعَتْ فَضجَّ الطيبُ في عمري وغنّى في دمائي

◆ ◆ ◆

طلعتْ فأيامي شروقٌ يزدهي فيه الصباحُ
خَطَرَتْ به نعمى الحياةِ وطابَ فيه الإنشراحُ
وشدوتِ فاحلولى لعينيْكِ التغنّي والصداحُ
وأنا جناحٌ لَفَّهُ مُذْ كنتِ في عمري جناحُ

◆ ◆ ◆

لو تعلمينَ كمِ انتظرتُكِ أو سهرتُ لك الليالي؟!
كمْ قدْ سألتُ الغيبَ عنكِ فلم أجدْ إلاّ سؤالي؟
ثم انطلقتِ إلى الدُّنى أزهى وأحلى من خيالي
أغرودةً ثملتْ بريّاها الخواطرُ والدوالي

◆ ◆ ◆

العيدُ هذا أنتِ قد أغرقتِ عيديَ بالهناءِ
وغَمَرْتِهِ شدواً كتغريدِ الزنابقِ للضّياءِ
لولاك ما هلّت على دنيايَ أطيافُ الرجاءِ
أوَلستِ في عمري ربيعَ العمر يَشْرَق بالرُّواء؟!

◆ ◆ ◆

وملأتِ أيامي أهازيجاً فناغَتْني الأماني
وغدي تعطَّرَ من هواكِ فَزَغْرَدَتْ فيه الثواني!
فإذا أغانيَّ العذابُ فريدةٌ بين الأغاني
عيناك تمنحها خلوداً مُشْرقاً عَبْرَ الزمانِ

◆ ◆ ◆

وضَحكتِ فالأيامُ تَبْسِمُ في حياتيَ والورودُ
وَغَدي به تزهو المنى وتنيرُ حُلْكَتَهُ الوعودُ
وأنا لَدُنْ هلَّ الهناءُ بخافقي أبداً جديدُ!!
عمري بساميتي يَتيهُ ولا سْمِها رَقَّ النشيدُ!

◆ ◆ ◆

العيد أَقْبَلَ يملأُ الآفاقَ ترنيماً ولحنا
ويتيهُ ينثرُ في الرّبوع مفاتناً تزهو وحُسْنا
شاءَ الإلٰهُ بأن نكونَ رُواءَهُ مُذْ نحنُ كنّا
ومنحْتِهِ نعمى الشروق فهلَّ في الأيام مغنى!

◆ ◆ ◆

ليَ أنتِ نُعمى من خلود الحبِّ، من دفءِ الشعورِ
عيناكِ لي ألَقٌ يُضيءُ الليلَ يَسْطعُ في ضميري
وشّى بلاديَ بالمنى وحَبَا رباها بالعبيرِ
منكِ اكتسى وطني الجمالَ وتاهَ يخطرُ في الدهورِ

◆ ◆ ◆

ورأيْتُني دوماً – ومُذْ أحببتُ – صدّاحاً طروبا
بُعِثَتْ بأوصالي الحياةُ فكنتِ فيها العندليبا
وفؤاديَ الخفّاقُ نشوانٌ وقد لاقى الحبيبا
والعمرُ أثْمَلَهُ الهناءُ وضجَّ آمالاً وطيبا

◆ ◆ ◆

ها أنتِ في العمرِ الهنيِّ معي، يرنِّحُنا هنانا!!
أبداً نسيرُ... وحبُّنا القدسيُّ يسْري في دمانا
اللّهُ شاءَ اللّهُ أن نبقى، وأن يبقى هوانا
والحبُّ: كان الحبُّ مُذْ كنا، وكنّا منذ كانا

◆ ◆ ◆

ها نحنُ في العيد السعيد... وقدْ أَحَلْتِ العمرَ عيدا
فأنا أعيشُ هناءتي وأتيهُ في النعمى سعيدا
ورأيتُني مذ كنتِ في دنيايَ إنساناً جديدا
أشدو وأملأُ كلَّ ثانيةٍ تمرُّ بنا نشيدا

1960/6/5

أَشْرقْتِ لا أحلى!

لو من فؤاديَ صغتُ إكليلاً من الزهر الجميلِ
وسقيْتُهُ من جانحيَّ، وصُنْتُه خوفَ الذبولِ
لو من عيونيَ، من دمي لَوَّنْتُهُ وجنَى الحقولِ
وحَمَلْتُه عربونَ حبّيَ، لاسْتوى دونَ القليل!!

◆ ◆ ◆

لو رحتُ أجمعُ أجملَ النّجماتِ باقاتٍ لتُهدى
وملأتُ سَلَّتيَ الصغيرةَ زنبقاً حُلواً وَوَرْدا
وأحلْتُ قلبيَ طاقةً كالزهرِ، كالنَّوْر المندَّى
لرأيتُها.. لا شيءَ... جلَّ الحبُّ: حُبِّيَ أنْ يُحَدّا!!

◆ ◆ ◆

الليلُ.. ماتَ الليلُ من عمري فضجَّ بهِ الصباحُ!
وصَحَوْتُ في دنيايَ للجُلّى انعتاقٌ وانشراحُ
أشرقتِ لا أحلى... لعيْنيكِ التَّرنُّمُ والصُّداحُ
وأنا جناحٌ لَفَّهُ ـ في هدأةِ النجوى ـ جناحُ

◆ ◆ ◆

كم عشتُ أنتظرُ الصباحَ وأرتجي الألقَ السنيَّا
وأشيدُ أحلاماً أُهَدْهِدُهَا وأنثُرُها عَليَّا
وعرفتُها قبلَ اللقاءِ، شَعَرْتُها في خافقَيَّا
ثم التَفَتُّ... فأنتِ أقربُ دائماً منّي إليّا!

◆ ◆ ◆

ووجدتُها بعد انتظار العمرِ.. والأملِ الرغيدِ
كبراءةِ الطهرِ الضحوكِ تشعُّ في ثغرِ الوليدِ!
لو تعلمينَ كم انتظرتُكِ؟! كم حييتُ على وعودي؟!
واليومَ! أنتِ ربيعُ أيامي.. وجوديَ في الوجودِ

◆ ◆ ◆

ها أنتِ معي بأعماقي، نسير إلى دُنانا
ونرودُ أفاقاً مُمَوْسَقَةً تعيشُ على مُنانا
للحبِّ دَوْزَنَّا الأغانيَ والمواويلَ الحسانا
والطيرُ كلُّ غِنائها ترنيمةٌ تحكي هوانا

1960

ماذا سألبس؟...

وقَفَتْ أمام المرآة لا تعرف أيَّ ثوبٍ تلبس، واقترب موعد قدوم خطيبها، فركضت إلى أمها علّها تنتشلها من حيرتها

◆◆◆

... أمّــاهُ... بــعــدَ دقــائــقٍ يــأتــي
يــأتــي خــطــيــبــي حــسْــبَ مــوعــدِهِ
لأكــادُ أســمــعُ وقــعَ خُــطــوتــه
وأشــمُّ نــفــحَ الــزهــر فــي يــدِهِ
قــولــي بِــربّــكِ... كَــيْــف أعــقُــصُــهُ
شعــري؟!... وأفْعَلُ في مُجَعَّدهِ؟!...

أنـا مـثـلَ (فـيـنـوسٍ) أَوَدُّ لـقـاءه...
ويـحـبّـنـي... ربـاً بـمـعـبـده

دقـاتُ قـلـبـي زَغْـرَدَتْ فَـرَحـاً
وتـواتَـرَتْ نـشـوى لـمـورده!!

مـاذا سـألْـبَـسُ... أيَّ فـسـتـانٍ لـه؟
الأزرقُ الـزاهـي بـمـفـرده؟!

أم أَرْتـدي ثـوبـي الـجـديـدَ وقـد
لـوَّنْـتُـهُ مـن لـونِ مـوعـدِهِ؟!

سـاطـيـرُ أَلْـبَـسُـهُ وأجْـلـسُ والـمـنـى
فـي مـقـعـدي هـذا ومـقـعـدِهِ

سـيُـطِـلّ يَـضْـحَـكُ مـن سـعـادتِـهِ
ويـتـيـهُ يَـخْـطُـرُ فـوقَ فـرقـدِهِ

أمـاه... إنـي إذ أعـيـش لـه
سـأكـونُ كـلَّ الـطـيـب فـي غـدِهِ

1961/1/20

تِه يا زورقي!!

تخليداً لذكرى 1960/8/4 في جعيتا

قالت وقد رقصتِ الكلمةُ نشوى على شفتيها، وهي تحاول أن تسند رأسها على كتفي وقد بان في عينيها معنى عميق: تُرى هل في الجنة أحلى؟! وشردتُ في عينيها، ورحتُ ألهث وراء قلبي في المدى البعيد، وكان وقعُ السؤال لا يزال يرنّ في أذنيّ، ولو استطعت حينذاك لرتّلْتُ لها الصلاةَ لأقول: نحن الذين نخلق الجنّة، وننبتُ الإحساس بالجمال، والشعورَ بالروعة والهناء... أولستِ يا حبيبتي جنّتي وربيعي وأحلامي العذاب، لكأننا شاركْنا الله في خلْقها، لقد وصلنا إليها قبل الناس، عبر عينين تنسّك فيهما السّحرُ والطهرُ والحبّ... سَنَحْيا فيها إلى الأبد، ولن نموتَ أو يطوينَا الفناء، ففي كلِّ أغرودةٍ لنا لحنٌ شجيّ، وفي كلِّ زهرةٍ لنا مخبأُ عطر، وفي كلِّ شروقٍ لنا ترنيمةٌ مع الفجر، وسيلتقي معنا المحبّون... لنعيشَ وإياهم في «المدينة المحبّة».. حيث تموت الرذائلُ وتُزهر زنابقُ الحب وورودُهُ... إلى الأبد...!

مهلاً... فديتُكَ أيُّها الملاّحُ في هذا السكونِ!
مهلاً! فقدْ طِرْنا إليكَ على جناحٍ من حنينِ!
رحماكَ لا تُسرعْ! ودعْنا نَجْتَلِ نُعمى الفتونِ
أولستَ تخطرُ في النعيم؟! وتزدهي فوق السفين؟!

◆ ◆ ◆

مالي أراكَ تسابقُ الأمواجَ، تُسْرِعُ في المسيرِ؟
وتلاعبُ المجذْافَ في ماءِ البحيرةِ... كالصغير؟
وَتُغِذُّ سيركَ أيّها النوتيُّ للشطّ النضيرِ
دعْنا! فنحن نودّ أن نحيا... على الماء المنيرِ!!

◆ ◆ ◆

دعْنا ـ بِربِّكَ ـ في حنايا الزورق المسحور ـ نَسْرِ
أنّى يشاءُ الحبُّ أن نجري... فإن الفُلْكَ تجري
ثملتْ! فلا صوتٌ، سوى نغمٍ جميلِ الوقْعِ خمري
ينسابُ في دفءٍ فيملأُ بالهناءِ الحلوِ عمري!!

◆ ◆ ◆

مهلاً! رُوَيْدَكَ... هذه الأضواءُ ترقصُ في دلالِ
وتميسُ تَنْثُرُ في البحيرةِ نورَها بينَ الظلالِ
وتعانقُ المجذّافَ في وَلَهٍ فيغرقُ بالجمالِ
ها أنتِ! أنتِ هنا... فَتِهْ يا زورقي... تِهْ باختيالِ

◆ ◆ ◆

دعْنا هنا... وسْطَ البحيرةِ... فالهوى المعطاءُ غَنَّى
منّا اكتسى الألقَ الهنيَّ! فكانَ دفءُ الحبِّ منّا
أولستِ من أعطى الربيعَ رُواءَهُ وَحَباهُ لَحْنا
وَرَنَتْ!!... فأهديتِ المروجَ وشاحها وَنَثَرتِ لَوْنا!!

◆ ◆ ◆

لكأنَّ ربيَ من جنانِ الخلدِ أَقْطَعَنا مكانا!!
وبحيرةً سَجَدَ الجمالُ لها! فكانتْ في رُبانا
الزورقُ الساجي!! سمعتُ نداءَهُ لمّا دعانا
كَمْ راح يحلمُ أن يَضُمَّ ـ برحلةٍ نشوى ـ هوانا!!

◆ ◆ ◆

يا أيُّها النوتيُّ دعْني!!... لَنْ أُفكِّرَ بالرجوعِ
للناس دنياهُمْ! وللعشّاقِ دنياً من وُلوعِ
أنا حيثُما حلَّتْ... رأيتُ الحبَّ يُزهرُ في الربوعِ
أنا لن أعود! فأنتِ أنتِ معي! ربيعٌ في ربيعي

21 آب 1960

ماذا سيبقى؟*

ـ أتُرى تظلُّ تُحِبُّني دوماً على مرّ الليالي؟
أتُراكَ لا يذْوي هواكَ ولا يَؤولُ إلى زوالِ؟
هذا السؤالُ... لطالما رَدَّدْتُهُ دَوْماً ببالي!!
قل لي... بربكَ... إنني حيْرى يؤرِّقُني سؤالي؟

◆ ◆ ◆

قالت لي الحسناء أمس، فَرُحْتُ في صمتٍ شَرودِ
أتُحبُّني؟؟ ـ كاللّه حُبِيَ في الطهارةِ والخلودِ
أنا مُذْ عرفتُكِ، ماجتِ الآمالُ في قلبي الوليدِ
فغدوتِ في الدنيا وجوديَ يزدهي عَبْرَ الوجودِ!!

◆ ◆ ◆

(*) كانت إحدى القصائد التي نالت الجائزة الثانية في الجامعة اللبنانية (كلية الآداب) 1965 مع قصيدتيْن للشاعرين محمد علي شمس الدين ومصطفى الجوزو علماً أن الجائزة الأولى كانت للشاعر المرحوم موسى شعيب.

ـ أتحبّني دوماً؟ ـ وهلْ للحبِّ كالإنسان عُمْرُ؟!
هو فوقَ وَهْنِ الطينِ لا يَذْوي، ولا يُذويه دَهْرُ
أنا إن قضيْتُ ففيَّ منكِ أزاهرٌ تبقى وعطرُ
وغدي كيوميَ صَبْوَةٌ حرّى، وترنيمٌ، وشِعْرُ!!

• • •

ماذا سيبقى إن ذوى حبّي لعمريَ من هَناءِ؟!
أوَلَسْتِ معناهُ الجميلَ يتيهُ في كِبْرِ السماءِ؟
لأكادُ أشْعُرُ إن تغيَّر خافقي بخطى الفناءِ!!
أبداً لعينيْكِ الحياةُ تتيهُ نَشْوى في دمائي!!

• • •

ـ أتحبني. . . وتعجَّبَ الحسونُ من هذا السؤالِ!
وأتى بأسرابِ الفَراشِ معاتباً حُلْوَ الدلاَلِ
أوما تراني أيّها الغريّدُ أخْطُرُ باختيالِ
وأعيش أعبُد دائماً عينيْنِ أسْكَرَتا الدوالي!!

• • •

قلْ لي بربك ما الحياةُ إذا ذوى ـ كالزهر ـ حبٌّ؟
وتلاشَتِ الأحلامُ في الدنيا وَلَفَّ الكَوْنَ كَرْبُ!
ماذا سيبقى إن بَعُدْتِ ولمْ يَعُدْ في القلب قلبُ؟
أبداً يَشَاءُ بأن أحبَّك دائماً كالربّ ربُّ

• • •

أتحبّني دوماً؟! لحبِّكِ هذه الخفقاتُ فيَّا
أَوَلَسْتِ من نَثَرَ السعادةَ والمُنى في خافقيَّا؟!
أولستِ آمالي وأحلامي وترنيمي السنيّا؟!
أبداً، أعيشُ مدى حياتيَ مخلصاً دوماً وفيّا

1965

... أتُرى سكتَّ؟!

جواباً على السؤال الدائم!!

أترى سَكَتَّ عن الصُّداحِ ومَلَلْتَ من كأسي وراحي؟
وَغَرقتَ في ليلٍ بهيميِّ الهوى عَفِنِ الطِّماحِ
ونسيتَ أني كنتُ في دنياكَ إشراقَ الصباح!؟
والعالَم المسحورَ والألَقَ الملفَّعَ بالوِشاح؟
أوما هَمَسْتَ بأنّيَ النجوى مُمَوْسَقَةَ الجناح؟
وبأنِّيَ الدنيا... وأنتَ تسيرُ في نُعمى رياحي؟!

◆ ◆ ◆

أترى سكتَّ ولم أعُدْ في ناظريْكَ رؤًى تَهِلُّ؟
أو جنةً منها على الجنّاتِ، والأحلى، مَطَلُّ
قُلْ لي بربِّكَ هلْ يتيهُ كفُلّتي في الزهرُ فلُّ؟!
في خافقيْك حَضَنْتَها، أنَسيتَ كَمْ راحتْ تَغِلُّ؟!
كمْ داعَبَتْ شعري يَداكَ وماجَ في كَفَّيْك طَلُّ؟!

وغرقتَ في حلمٍ بهيِّ التّيهِ... زاهٍ لا يُملُّ!

◆ ◆ ◆

أترى بوسعيَ أن أكُفَّ عن الصداحِ أو الغناءِ؟!
أولستِ أنت بخاطري... في ناظُريَ ألَقَ الصّباحِ؟!
أولستِ مَوْسميَ الملوَّنَ في أعاصير الشتاءِ؟!
أو ما بَزَغْتِ مع انْبلاجِ الصُّبحِ مخضلَّ الرّواءِ؟
عيناك أوْقدَتَاهُ في قلبي، فأشرقَ بالرّجاءِ
أحببتُه فرأيتُ في دُنْياهُ دُنْياً... من هناءِ

◆ ◆ ◆

أوما سمعتِ الناسَ يروونَ الحكايا عن هوانا؟!
هُوَ فوقَ حبِّ الغيرِ،... فَوقَ الظّنِّ، حبٌّ لا يُدانى!!
أحَسَسْتُهُ يحيا بأوصالي، بكلّي، منذُ كانا!!
فرأيتُني حباً يَسيرُ... وخافقاً يَهَبُ الزمانا
معنى الخلودِ... ويُمطرُ الآفاقَ والدّنيا جُمانا!
يا واحةَ النعمى، إلهُ الحبِّ لم يَعْرِفْ سوانا

1961/10/22

أنا لستُ في حلم

أنا لستُ في حلمٍ فأنتِ هنا كإشراق الرجاءِ
أنا لستُ في دنيا الخيالِ الحُلْوِ أرفلُ بالهناءِ
أنا ذلك السكرانُ بالنّعمى... بحبّي... باللقاءِ
بسعادةٍ تَسَعُ الوُجودَ ـ تَضِجُّ في عمر البقاء!

◆◆◆

أنا كم حلمتُ بهذه اللّقيا، وهزّتْني الأماني؟!
وَوَدَدْتُ ألهبُ ناريَ الظمأى تأجّجُ في كياني
وتسمّرَتْ عيناي في عينيكِ تبحث عن جناني!
وَدَّتْ تجمّدُ عمريَ الورديَّ في هذي الثواني!

◆◆◆

وصَمَتٌ لا حرفٌ يَهِلُّ على الشّفاهِ ولا كلامُ
وتكَلّمَتْ عيناكِ... يومضُ في مفاتنها الغَرامُ
وأنا أتيهُ ببحرها الليليِّ يحدوني الهُيام

لا أرتوي حتى أعودَ، تهزُّني فيها المُدام

◆ ◆ ◆

وحَسِبْتُ نفسيَ في دُوارِ الوَجْدِ... أغرقُ بالغيابِ
وأضاءتْ قلبيَ شُعلةً تشدو بحبِّك... بالرّغاب
لولاك... أيامي سرابٌ لفَّهُ وَهْمُ السراب!
أنتِ الضياء بناظري وصبابتي ورؤى شبابي!

◆ ◆ ◆

وجلستِ (ساميتي) وصخرتُنا تَرَنَّحُ باللقاءِ
وَغَرِقْتِ في صمت الهناء... فطابَ عمريَ بالهناء
ماذا لو أنِّيَ ما عَرَفْتُك؟ ما حياتي؟ ما بقائي؟
أنا لي رجاءٌ في الوجود... وأنت في الدنيا رجائي!!

◆ ◆ ◆

وحملتُ وردتيَ الجميلةَ في هدوءٍ كالشُّرودِ
هي منكِ كم أحْبَبْتُ أسقيها وأطعمُها وريدي
حسدوا عليها - وردتي الحمراءَ - تاريخَ الورودِ!
هي لم تَزَلْ في خاطري عطراً يَفوحُ على الوجود

◆ ◆ ◆

الوردةُ الحمراءُ... كَمْ حَلِمَتْ فأثْملَها التمنّي
تاهَتْ على دنيا الربيعِ فخورةً، نشوى التّثنّي!!
وَهبَتْ رُؤاها.. كي تكونَ هديَّةَ الحبِّ الأغَنّ!!

هي منكِ... أشْعُرُ أنها ـ دوماً ـ أعزُّ عليَّ منّي!!

* * *

ورَجَعْتُ أَحْملُ من يديْك هديةً فاحَتْ رُواءَ
وَوَدَدْتُ أسقيها ـ لتخلدَ للهوى ـ مني الدماءَ
هي زهرتي... أحيا على أطيابها صبحاً مساءَ
حَمَلَتْ شذاكِ فكان عطرُكِ في حياتِنا هناءَ

* * *

ووَدَدْت أبقى في مغاني الحبّ والحلم الرحيبِ
وأضيءُ أيامي لتهنأ ـ كالشموع ـ بها حبيبي
لكِ دائماً هذا الفؤادُ يتيهُ نشْوانَ الوجيبِ
لولاكِ كان شروقُهُ أبداً غروباً في غروب

1960

مشوارنا زاد البلابل

لا . . . لستُ وحديَ في هدوء الليل، في الصمت المثيرِ
أحيا مع اللحن الحنّون واجتلي عَبَقَ الزهورِ
فأنا أعيشُ بعالمي القدسيِّ، في دنيا الحبورِ
وأتيه. . . عيناها مداي الرّحبُ يسطَعُ في ضميري

◆ ◆ ◆

ها أنتِ. . . أنتِ معي نعيشُ الدفءَ في عمر الأغاني
ونصبُّ من ألَقِ الصّبا أملاً رخيّاً في الثواني!
أنُلامُ أن ذِبْنا ونحنُ الطيبُ يخطرُ في الزمانِ؟!
نحنُ الهوى الفوّاحُ لوّنَ سحرُهُ دنيا الأماني

◆ ◆ ◆

تلك المرابعُ كَمْ زهتْ تيهاً وكمْ غنَّتْ لقانا!
الله أمْرَعَها فألْبسَها وشاحاً من مُنانا!!
والبلبل الغريّدُ يحيا منشداً أبداً هوانا

قد كان شدوُ الطيرِ مُذْ كنّا، وكنّا منذ كانا

◆ ◆ ◆

مشوارُنا زادُ البلابل رنَّمَتْهُ مع الصباحِ
حلمَتْ به مذْ كان في أعمارِها دفءُ الصُداحِ
وتناغَمَتْ... فانهلَّ ذاك الشدْوُ طيباً في الأقاحي
وَشَّحْتِها بالحبِّ فَأْتَزَرَتْ وتاهتْ بالوشاحِ

◆ ◆ ◆

وترنَّحتْ نشوى صنوبرةٌ وماستْ في اختيالِ
هي لم تعشْ إلا لتنعمَ بالهوى بين التّلالِ
كم غرّدَتْ فيها الحياةُ وهَدْهَدَتْها في دلالِ
لتعي لقانا المزهرَ الريّانَ يخطرُ في الليالي

◆ ◆ ◆

وسمعتُهُ نَغماً، جميلَ اللّحن، مسحورَ الأداءِ
وَشَّيْتِهِ من هدأةِ الحبِّ المُسَرْبَلِ بالهناءِ
وأنا وأنتِ نعيش في دنياً مُزَرْكَشَةِ الحُداءِ
الحبُّ رائدُنا ومرتعُنا المسوَّرُ بالوفاءِ

◆ ◆ ◆

ولبِسْتِهِ ثوباً أفضّلُهُ ربيعيَّ الزهورِ
نَسَجَتْهُ آلهة الجمال وزركَشَتْه من الشعورِ!
والطيبُ صلّى مذ رآهُ يضجُّ في نعمى العبيرِ

يكفي الحريرَ بأن ثوبَكِ صيغ من سحرِ الحريرِ!!

◆ ◆ ◆

ووُلِدْتُ مُذْ أشرقْتِ في روحي تُوَشِّينَ الأماني
ورأيْتُني أحيا وأُضفي الدفءَ في عُمْرِ الثواني
ما كنتُ قبلكِ أخضرَ الآمال، غِرِّيدَ الجنان
عيناك أشرقتا فَزَغْرَدَ خافقي، وزها كياني!!

◆ ◆ ◆

ورجعتُ... لا... لم أبتعدْ. هي دائماً في خافقيَّا
في خاطري أنَّى اتجهتُ، وحيث رُحتُ تكون فيَّا
تحيا بأوصالي... وتُهمي في دمي الأملَ السّنيّا
كانت... فكنتُ هزارَها الصدّاحَ واللحنَ الشّجيّا

1960

لكِ أحيا

لكِ أحيا، أنا مُذْ كنتُ لعينيكِ أغنيّ
أغزِلُ الحَرْف، أُوَشّيهِ، بأزهى كلِّ لونِ
أنا، عَيناكِ، كؤوسي وندامايَ... وَدَنّي
غيرُ حُبِّ الغير ـ، فوقَ الوهم، حبّي، فوقَ ظنّي

◆ ◆ ◆

أنا حبّي سكرةُ العاشقِ... لا تعرفُ رِيّا
ينطوي الدهرُ، ويحيا عمرَهُ بين الحُميّا
كلّما أَوْغَلَ، عبَّ الكأسَ، لا يَترُكُ شَيّا
هكذا قلبيَ يبقى أبَدَ الدهر وفيّا!!

◆ ◆ ◆

قَدَري أنتِ... وفي عينيكِ أطيافُ غدي
كُلُّه صحوٌ وآمالٌ نشاوى الموْعدِ
نحنُ في عمر الهوى أنشودةٌ لم تُنْشَدِ

للسوى حبٌّ... ولي حبٌّ... فريدُ المَوْلدِ!!

* * *

أنتِ لو تدرين... عَنَّفْتِ فؤادي وهوايا!!
أنتِ... يا أحلى عطاءِ اللّهِ في دنيا الصبايا!!
لكِ ذوّبْتُ عيوني وشبابي ومنايا
وتركتُ الناس يروون إلى الناس الحكايا

* * *

حبُّنا فتحٌ بهذا الكونِ من نَسْجِ الضّياءِ
لَمْ يَكَدْ يُشرقُ... حتى اخْضلَّ - بالنُّعمى - رجائي
فَجْريَ الدافقُ من عينيْك غنّى في دمائي
وانتشى الكِبْرُ، وضَجَّ التّيهُ، مَزْهُوَّ الرُّواءِ!

* * *

أنا قَبْلَ حُبّكِ ما عرفْتُ العمرَ حلواً عبقريّا
أحببتُ أيامي لَدُنْ أشرقْتِ في الدّنيا عَليّا!
ورأيتُ هذا الكونَ يزهو رائعاً ألِقاً بَهيّا
منكِ اكْتسى ثوبَ الربيع وتاهَ بالنُّعمى نديّا

* * *

أنا أَعْبُدُ العيْنينِ... - لا أحلى - وأسكرُ بالدّوالي
أنا كلّما يزدادُ سُكري اَجْتَلي أَلَقَ الجمالِ!
أنا مثلُ نُوتيٍ يُؤاخي البحرَ يبْحثُ عن لآلي

ويحبُّهُ ـ رغم العواصف ـ، . . . بالمنايا لا يبالي!

* * *

لكِ رنّم القلبُ المُدَلَّهُ وانْتشى فيه الوجيبُ
عيناك، . . . تاهَتْ فيهما روحي، . . . فلا تدري تؤوبُ
لكأنَّ هذا المدَّ يُغريني ويدفعُني الهبوبُ
فأودُّ لو أبقى، ولا ألوي، وفي النعمى أغيبُ

* * *

أنتِ يا أحلى من الحُلْواتِ. . . يا لحناً شجيّا
يا ربيعَ اللّه يبقى عبقرياً أزليّا
أنتِ يا حباً أخيراً أوّلاً، يحيا دعيّا
هو في عمري نداماي. . . وسُكري. . . والحُميّا

1961

* * *

يا شقيق الروح

يـا شـقـيـقَ الـرُّوحِ أضـنـانـي الـغـرامْ
رُدَّ لـي قـلـبـيَ وامْـنـحـنـي الـسَّـلامْ
أنـا صِـنْـوُ الـطَّـيـفِ ظـلٌّ مُـدنَـفٌ
وخـيـالٌ شـفَّ وجـداً مُـسـتَـهـامْ
هـاتِ مـنْ طـيـبـك مـخـضـلَّ الـمـنـى
واسْـكُـبِ الـنُّـعـمـى كـمـا فـوحُ الـخُـزامْ
أنـتَ جـرحُ الـنَّـاي فـي آهِ الـهـوى
وحـنـيـنُ الـعِـشْـقِ فـي بَـوْحِ الـيَـمـامْ
أنـا عـيـنـاكَ ارْتـحـالاتُ الـمـدى
وانْـتـشَـاءُ الـرّوحِ إنْ عـزَّ الـمُـدَامْ
أنـا أشـتـاقُ كـمـا شـوقُ الـنـدى
لـرحـيـقِ الـعـطـرِ فـي زَهـرِ الـشَّـآمْ

آهِ لَــوْ تــعــلــمُ مــا نــارُ الــهــوى

وعــذابُ الــقــلــبِ إن لــجَّ الــهُــيــامْ

أنــا روحــي حــيــثُــمَــا أنــتَ فــلا

طــابَ بُــعــدٌ عــنــكَ أو لــذَّ مُــقــامْ

لَــكَ كُــلُّ الــحُــبِّ والــنــعــمــى وذا

قــلــبيَ الــولْــهَــانُ فــامْــنَــحْــهُ الــسَّــلامْ

2003

في عيد المعلم

أيّها الصّامدُ كالعملاقِ في الدربِ الطويلِ
أيها الجبّارُ يهزا - بالردى بالمستحيلِ
أنْتَ مَنْ نوَّر بالنّعمى حياتي، بالجميلِ،
خالدٌ كاللّه رَغْمَ الموتِ جيلاً بعد جيلِ!

◆ ◆ ◆

أنتَ من هَدْهَدَ أحلامي فماجتْ بالرجاءِ
وهمى الطيبَ على عمري كمُخْضَلِّ الضياءِ
أنا... ما كُنتَ سوى ما شئتَ في دنيا العطاءِ
لكَ... شدوي، وصُداحي، ونَشيدي، وغنائي

◆ ◆ ◆

أمسِ... هل تذكرُ إذْ جئتُ مع الأهلِ صبيّا
دامعَ العينين - أخشى الناس -، كالغصن طريّا
فسَكَبْتَ النورَ في قلبي وفي روحي دويّا

صارخاً: في الحق لا تَخْشَ دعياً أو قويًّا

◆ ◆ ◆

أوَلم تَصْنَعْ من الأطفال أبطالاً عظاما؟!

يُرْكِعونَ المجدَ والتّاريخَ والدنيا إذا ما...

إنه الإنسانُ - أنّى كان - أو حيث أقاما

كتلةٌ أسبَغْتَ من روحِكَ فيها... فاستقاما!!

◆ ◆ ◆

هذه الآلافُ هَدْهَدْتَ رُؤاها والأماني

وسكبْتَ النفحةَ الشمّاءَ في كلِّ جنانِ

نحنُ في الآفاق، في الأمداء، في كلّ مكانِ،

من عطاياك... نرودُ المجْدَ... نلهو بالزمانِ

◆ ◆ ◆

أنتَ من أفنى شبابَ العمر يبني لا يَكلُّ

ينشىءُ الأحرارَ في صمتٍ، وكمْ في الصمت نُبْلُ!!

فإذا عيدُكَ عيدُ العلم والنعمى تهلُّ

وتباشيرُ ربيع الكون إذْ راح يُطِلُّ

◆ ◆ ◆

أنتَ حطّمْتَ لنا الأغلالَ بالأمسِ القريبِ

وسكبْتَ الثورَةَ الحمراءَ فينا كاللّهيبِ

وطني... لولاك... ما كان سوى ملهى الغريب
أنْتَ أعْدَدْتَ لهُ الأبطالَ في ساحِ الخطوب!

◆ ◆ ◆

أنتَ من ألْهَبَ بالإيمان (فَتْحاً) في الكفاحِ
وفدائياً على (الأوراس) في قدس الجراحِ
فوقَ سيناءَ وفي غزةَ، في كلّ البطاحِ
قَدَرٌ يَصْفعُ وجْهَ الغدرِ يَهْزا بالنّباحِ

◆ ◆ ◆

يا نبيّ الحرف... كمْ كحّلْتَ عيناً بالضياءِ
ودَفَعْتَ الركب للجلّى...، إلى كسر الفناءِ
لم يكنْ لولاك في الآفاقِ عملاقُ فضاءِ
أيها الشُّعلةُ كالإيمانِ تزهو كالبقاء

◆ ◆ ◆

نحن في عيدكَ نعتزُّ ونزهو باختيالِ
نَغْزِلُ الحبَّ أكاليلاً نديّاتِ الظّلالِ
نحنُ لولاكَ لما فُزْنا بساحاتِ النّضال
ربُّنا شاء لك الجلّى على درب الكمال

1964 معهد ابن سينا

وأرى الدنيا جنوبا*

ملَّ منّي الصبرُ، والملجأُ، واللّيلُ الطويلُ!
وزوايا البيتِ «والأخبارُ» والشّمْعُ الهزيلُ
وطواني سَأَمٌ ينهشُ أعصابي ثَقيلُ
فكأنّي من سعيرِ القَصفِ، والحُمّى قتيلُ

* * *

ملَّ منّي البَيْتُ واغتالتْ أمانيَّ القذائفْ! (منّي)
ورَمَتْني في شعابِ الرُّعبِ منهوكاً وراجفْ
صوتُها الهدّارُ، كالرّعدِ يدوّي، كالعواصفْ
يَبْلَعُ الأعمارَ، يَفْتاتُ الهنا يذرو المخاوفْ

* * *

ملَّ منّي الشّمعُ في سجني وآخاني الظّلامُ
واستقرَّ الهمُّ في عظمي وروّاني السّقامُ

(*) نظمت هذه القصيدة أيام القصف العشوائي الخ...

فأنا كأسيَ مِلْحُ الدمع... والقاني المُدام!!
أتُرى يُشرقُ بعد الليل - كالبُشرى - السّلامُ؟؟

• • •

إنني في «غربِ» بيروتَ أعاني من قيودي
سيّجوا كلَّ جهاتي... وأقاموا لي حدودي
سَرَقوا ضوءَ عيوني وربيعي ووردي
ثم باعوا الله ديْناً عند تجار اليهود

• • •

إنني يحرِقُني الشّوقُ إلى تلك الربوعِ[1]
أشْتَكي النارَ - وأرتاحُ لها - بين الضّلوعِ!!
وأرى الدنيا جنوباً واعداً رغم النجيعِ
ساحرَ التُربةِ قُدْسيَّ الرؤى حلوَ الربيعِ

• • •

تِلْكُمُ التربةُ والآفاقُ تحيا في خيالي
ألْثُمُ الطيبَ إذا فكَّرْتُ، أو طافَتْ ببالي
هي رَغْمَ البُعدِ والغربةِ، شمسي وظلالي
عَبْرَها وجَّهتُ لله صلاتي وابتهالي!!

• • •

(1) إلى بنت جبيل وكل جبل عامل.

أَتُرى أَلْثُمُ بالأهدابِ قُدسيَّ الترابِ؟!
طَعْمُهُ فَوْحُ الشذا في خاطري، حلوُ الرّغابِ
جبلٌ... لم يعرفِ الهُونَ ولا ذلَّ الرقابِ
إنني منه... ويكفيني... وأزهو بانتسابي

بيروت 1985/4/14

رسائل الحنين

أنتم المغتربون مظلومون!

رسالة إلى الخال المغترب
في سيراليون ـ أبي حسّان ـ

لا أدري حقاً يا خال كيف انطوت أيامٌ عشرةٌ بين اللّقاء والوداع، فما زالتْ أمامي صورةُ اللقاء في المطار ـ عندما فوجئت بكم، أنت والخال أبو عدنان وعبد الكريم ـ ماثلةً أمامي، وقد تَلَقَّفْتَني بسرعة، وتركتَ الغير يُكمل بعض الإجراءات الشّكليّة، وفهمتُ عندها كيف تغورُ الكلمات، ويصمُتُ النطق، وكيف يقف الإنسان أحياناً عاجزاً عن التعبير، فتسعفُه العاطفة، ويشجيه الحنان، ورأيتَني أبكي، تدمعُ عيناي من الفرح... ودموعُ الفرح، مريحةٌ للأعصاب، مهدّئةٌ للنفس، لأنها عفويةٌ، لا تكلُّفَ فيها ولا تصنُّع، إنها تعبّرُ عن ذاتِها، تستدعي نَفْسَها بحركةٍ لاإرادية، وتختصرُ الكثيرَ من الكلام... والصمتُ أحياناً أكثرُ تعبيراً، وأعمقُ أداء... رأيتُ نفسي بينكمْ جميعاً، وكنّا قبلها نرى واحداً منكم بيننا جميعاً... حملتُ اغترابي إلى بلدكم، فشعرتُ به وطناً لا غربةَ فيه، فمتى يلقاكم الوطنُ الأصليُّ دون اغتراب؟!...
منذ وطئتْ قدماي أرضَ سيراليون حاولتُ أن أكونَ أكثر احتضاناً

للصّور، وأعمقَ اختزاناً للذكريات، إلا أن كلَّ ما رأيت ولقيتُ جديرٌ بأن يُحفظَ ويُختزنَ... ابتداءً من المطار مع مطلع العام وانتهاء بالمطار مع الخال أبي عمار... وبَيْنَ الدمعتين في اللقاءيْن الكثيرُ الكثيرُ المنطبعُ في النفس... والموقفان اختصرا الكثير، فكما سلّمت صامتاً بدموع الفرح، ودّعتُ صامتاً بدموع الغصّة... فقد آن للّليل الطويلِ أن يطلُعَ صباحُه، ولرحلةِ المسافرِ أن تنتهيَ بالعودة... ففي القارّة السوداء، وفي بقاعها الخضراء، أنتم المغتربون مظلومون، مظلومون هنا في وطنكم، لأننا لا نرى إلا صورةَ جانبٍ واحدٍ من حياتكم، نرى صورةَ الغنى والرفاهِ والبذخِ والصرفِ على الليالي، حمرائها أو غير الحمراء، نرى مشهدَ البنايات تُشرى، والمشاريعِ تُشاد، ولا نرى الصورةَ الأخرى، صورةَ الحياةِ الصعبةِ الخطرةِ، الحياةِ الرتيبةِ القاسية، وفراقَ الأهل لأبنائهم، والعواطفَ المكبوتة اللاهبةَ نحو صغير بعيدٍ، أحياناً مريض، وأحياناً أخرى بحاجة إلى أهلٍ ينام بين أحضانهم، وينعمُ بحبّهم، ويقفزُ فوق ظهورهم، لا نرى صورةَ العذابِ حولَ الإقامةِ والسرقاتِ والمعاناة الصعبةِ في بيئة قاسية متخلفة... لا نقدّرُ الجهودَ العنيفة والتجاربَ الجريئةَ تفتحون بها عالمَ عملكم القاسي... نتصوّر هنا أن ما تنتجونه يأتي هيّناً سهلاً... دونَ تقدير حقيقي لما تتحمّلون من مخاطرَ ومتاعبَ وأوجاعٍ، وقد نتساءلُ ببلاهةٍ ألفَ سؤالٍ وسؤال، لماذا لا تعملون كذا؟ وتقدّمون كذا؟ وتوزّعون بعضَ البعض مما رُزِقْتُم؟! الحقيقةُ أنكم تحملون صُلبانَكُمْ وآلامَكم، تؤرّقُكُمْ أكاليلُ الشوكِ ويكويكُمْ الحرّ، ويُسَهّدُكُمُ الفراق... أنتم بحاجةٍ لتقييم جديد... لأنكم لستُمْ

مقامرين هَبَطَ عليكم الغنى في لحظةٍ نام فيها القَدَر... ولعمري، لو بَذلْتُمْ نفسَ الجُهد في بلدكم لاستَغْنَيْتُم عن غربةٍ أطعمْتموها شباباً وعمراً وعافيةً وفراقاً وآلاماً... هذه الصورُ تتلاحقُ في مخيّلتي، وتزدحمُ بين لقاء المطار ووداعه، ولا أستطيعُ تصوُّرَ سرعةِ العقارب في الأيام العشرةِ معكم، هذه الباخرةُ تحملنا إلى العاصمة مع المساء وربما كانت نفسُها تنقُلنا إلى المطار مع تباشير الصباح، وبَيْن الرحلتيْن الصورُ الحلوةُ تعمرُ النفس، وتجاورُ الفؤاد... صورُ اللقاءات، والجلساتِ الأنيسة، والسَّهْراتِ الشيّقة؛ ويَتَردّدُ صدى الضحكات، فأسمعُ الهمْسَ، وأرتاحُ للأحاديث، وأعجبُ للزمن يركضُ مسرعاً في لحظاتِ الانشراح، ويتباطأ مزعجاً في فتراتِ الكدر، حتى لكأنّ الغربةَ وطنٌ بين الأحبّة، والوطنَ غربةٌ عند البعاد أو الأحزان... أجد نفسي يا خال عاجزاً عن تصوير الأيام العشرة الأولى من عامنا الذي استقبلناه معاً... وأعود بذاكرتي إلى مقتبل عمري عندما كنا نلتقي كلُّنا في بيروت، في بيتك أو محلّك... كنا لا نزال صغاراً، ونحنُ اليوم لديْنا صغار... والزمن لا يزالُ يركضُ بنا ويطوي أيامَنا... السهراتُ التي أمضيْناها سوياً لا يمكن أن نَنْسى نَكْهَتَها، واللقاءاتُ التي نعمْنا بها ستظلُّ تشدُّنا إليها، والضحكاتُ الرنّانةُ سيبقى صداها يرنّ في أعماقنا... إنها صداقةُ عمرٍ، ورفقةُ حب، بالإضافة إلى القرابة والنسب... أرجو ألا يطول بعادُنا وأن نلتقيَ جميعاً، وهذه المرة في الوطن، فقد آن للمسافر المُتعب أن يعود.

سلامي لكم جميعاً وقبلة حارة على وجْنَتَيْ الخالين محمود وحسن.

كانون الثاني 1975

أنا وأنت نفتش عن أبوينا!*

... بالأمس، وقفتُ مذهولاً أمام التابوت الفارغ الذي أحضروه لجثمان والدي الغائر بين الأنقاض، والمتطايرِ مع الحطام، وقد اختلطَ بلحم الأطفال، ودمِ الأمهات والعجائز والصبايا...

... بالأمس، وقفتُ أمام نَعْشَيْ أمي وأختي الصغيرة وتوابيتِ العشرات من جيراني ورفقائي وقدّ التهمهمُ الانفجارُ الزلزال، وأحال حيَّهم قبراً كبيراً، وبؤرةً يجلّلُها السوادُ، ويقيمُ فيها الخراب...

أمس... رأيتُني ودفعةً واحدةً من دون أب وأم وأخت... تهدّم بيتي، وماتَ أهلي... وتناثرَ دمُهم ولحمُهم وعَرَقُهم مع ركام منزلهم... وأشلاءِ جيرانهم في زوايا حيّهم الوادع... وفي داخلي كان يتردّدُ خليطٌ صاخبٌ من العويل والصراخ والنحيب... ونداءٌ مجنونٌ متواصل من الخوف والرعب والهلع، وتتجاوُب أصواتُ البكاء والنشيج والغثيان، حتى لكأنَّ الأرض مادَتْ بي، وفَقَدَتْ استقرارَها، واجتاحَها زلزالُ رهيب!!

(*) بمناسبة انفجار ساحة البربير وقد نشرت في ملحق النهار العربي والدولي عدد نيسان رقم 466، 1986.

أمس في الضاحية الشرقيّة من عين الرمانة... قفزَ مسلسلُ الرعب فوقَ خطوطِ التّماس، وضرب بحقده الأسود حياً آمناً وديعاً، اغتالَ بقايا الهناء، وسَرَق البسمات عن الشفاه، وحملَ الأحلامَ المكنوزةَ وأطفأ ضوءَ الفرح من سواد العيون!!

أمسِ... في الضاحية الشرقيّة، في عين الرمانة التهبتْ جراحُنا من جديد، لم تستطعْ متاريسُ الرمال والدشمُ المسلحةُ أن تحجبَ نَزْفَها الجاد، أو تخفيَ وَجَعها المتمادي، كان صوتُ الجراح يتردّدُ فوقَ الأسوار العالية، والحواجزِ المرسومة، كان أنينُ الموجعين، وصراخُ المتعبين، ونداءُ المحتاجين، ودعاءُ المؤمنين يتعالى فوقَ أصوات الانفجارات، ودويّ القذائف، وأزيز الرصاص، وحقارة القنّاصين...

... أمس، في الضاحية الشرقية، في عين الرمانة ارتفعتْ أصواتٌ من الأعماق المسحوقة، أصواتٌ تجأرُ إلى الله: أن كفانا عذاباً وآلاماً، كفانا قتلاً وذبحاً، كفانا تشريداً وهجرة، كفانا موتاً عبثياً مجّانياً... كفانا تدميراً وخراباً!!! كفانا احتقاراً للإنسان وامتهاناً للكرامات!!!

... أمس، ارتفعتْ هذه الأصواتُ فوق الحواجز والمتاريس والدشم والأسوار المصطنعة... وتردّدَتْ أصداؤها في بيروتَ والضاحية الجنوبية والجبل والجنوب والبقاع والشمال...

واليوم، ضربتِ الفتنةُ المتنقلةُ في بيروت على الضّفة المقابلة من

خطوط التّماس، وعلى مدى أمتار من مأساة بوسطة الجامعة الأميركية!!!

اليوم ـ ولما أفِقْ بعدُ من ذهولي وهلعي ـ أراني يا أخي في الغربيّة إلى جانبك، وأنتَ تفتشُ عن أبيك المتناثرِ جَسَدُهُ على جدران الأبنية أو على جنبات جسر البربير، أنا إلى جانبك، أشاركُكَ الأسى والوجعَ والرعبَ، وأنت تجمعُ أشلاء طفل، أو مِزَق جَسَدِ صبيٍّ، أو نُتَفاً من صبيةٍ أو عجوزٍ تناثرث حيث شاء لها الانفجار... لأكادُ أشعرُ أنه لا فرقَ بيننا، لا يباعُدنا دين، أو يفصِلُنا مذهبٌ،... نحن كلانا الضحية التي يتراكضون لسلخها وقضمها وهضمها... لأكاد أشعرُ يا أخي القريب البعيد إن وجَعَنا واحد، وألَمَنا واحد، وعذاباتِنا واحدة...

نحن على جانبي خط الفصل تأكُلُنا القذائف، ويلاحقُنا الرصاص... نُشَرَّدُ من بيوتنا، تُنهبُ أرزاقنا ويعضُّنا الجوع...

نحن على جانبي خط الفصل شهداءُ الزّور، نلعقُ من دمنا، ونصبُّ الملحَ فوق جراحنا، ونلحسُ المبرد المسمومَ من دون أن ندري أننا على شفير الهاوية...

نحن يا أخي تضرِبنا الفتنةُ المتنقّلةُ القادمةُ بلا موعد، مع شمس الصباح أو غَسَق المساء... هي تضربُ عشوائياً، وتصوّرُ للسذّج البُلهاء أن المناطقَ تَتذابحُ، وأن الناسَ يتبادلون الانتقام... وما درى هؤلاء أن اليدَ المجرمةَ الآثمةَ نفسَها هي التي تضربُ في أربعِ زوايا الوطن ولا تريدُ له استقراراً ولا أماناً...

نحنُ يا أخي - على رغم البُعد المفروضِ علينا، وعلى رغمِ المتاريس التي تمنعُ تواصُلنا - هدفُ المؤامرة التي تأكل الحجرَ والبشرَ وترمي إلى تفتيتنا شِيَعاً وأحزاباً وجماعاتٍ، لتسرقَ بالتالي وطنَنا، الذي لم نكنْ يوماً جديرينَ به ولم نعرفْ كيف نحافظُ عليه بأهدابِ العيون!!

نحنُ يا أخي في أمسنا ويومنا وغدنا، وَجَعٌ واحدٌ، وهمٌّ واحدٌ... خلَال أَحَدَ عَشَرَ عاماً تعبَ منّا الموتُ وما تعبْنا، واستجار بنا العذابُ وما توقَّفْنا عن التناحر والاقتتال...

وها نحن اليوم، أصبحَ محظوراً علينا أن نفرح، صادَرَتِ الأحزانُ أيامَنا، وملأتْ فراغَ ساعاتنا،... أما الوجعُ فَسَكَنَ أعمارَنا، سَرَقَ ضحكةَ الولدِ وَبَسْمَةَ الطفلِ وحُلْمَ الصبي...

ها نحن اليوم نفتش عن أطلال وطننا، وبقايا أفراحنا المسافرة، فلا نعثرُ إلا على صُوَرِ القتلى تملأُ جدرانَنا، والأعلامَ السوداءَ ترفرفُ فوقَ بيوتنا، وشاراتِ الحزنِ تملأ ساحاتنا، ونحنُ نبْكي بدموعٍ كربلائيةٍ تحرقُ محاجرَنا المقرّحة!

بيروت: الأميرة المتّشحة بالسواد

وكانتْ بيروتُ يا صغيرتي آمنةً وادعةً قبل أن يُدركَها الزلزالُ، كان ناسُها مطمئنين، متحابّين، يعملون ويتعلّمون، يتعبون ويرتاحون، شأنَ كلِّ الناس في بلادهم... كانتْ حياتُهم هانئةً، مسالمةً،... أطفالُهم يمرحون وأولادُهم يَدْرُسون، وفتيانُهم يحصّلون، والرجالُ يبنون الأسرة والوطن.

كانتْ بيروت خليّةً تضجّ بالحياة، العمّالُ والتجارُ، التلامذةُ والمعلّمون، والفلاّحون والسائحون، الغادون والرائحون، الواصلون الليل بالنهار، والنهار بالليل، كلُّهم يتراكضون تَغْمُرُهُمُ السعادة ويَرْفُلون بالهناء.

المدينةُ الأميرة كانتْ في عرسٍ لا ينتهي، شوارعُها جميلة، محلّاتُها مملوءةٌ بالخيرات، بَسْطاتُها غنيّةٌ، صالاتُها أنيقة، وأسواقُها الضيّقة والواسعةُ والمتداخلةُ تضجُّ بالحياةِ وبالناسِ والرزقِ الحلال، أما شوارُعها فكانتْ متواصلةً لا تعرُف الحواجزَ، تترابطُ بطهارةِ المحبة وصفاءِ الجوار.

بيروت هذه يا صغيرتي كانت تَسْهَرُ لياليها حتى الصباح، لا

تعرفُ العتمةَ ولا مَنْع التجوّل، كانت مزدحمةً بالناس، مشرقةً بالأنوار، تتمايل طرباً وسَمَراً، ويتداخلُ غَسَقُ ليلها مع إطلالةِ فجرِها على نداءِ المؤذّن وترتيلِ الراهب وصياحِ الديك.

كانت حياتُها مطمئنةً وادعةً، يحلُم بزيارتها كلُّ الناس، من كلِّ المناطق، أبناء الأرياف البعيدة القريبة، ففيها كلُّ زاويةٍ تَخْتَصُّ بنكهة وتتميّزُ بطابع... أوَما سمِعْتهم يا صغيرتي يتحدّثون بإعجابٍ عن سوق الإفرنج وبِرْكةِ العنتبلي وبابِ إدريس ومقهى البحرين؟! هل تردَّدَ على سمعِكِ تغنّيهم بِرَفاهِ سوق الطويلة، وجمال سوق أياس، وبحبوحة سوق الجوخ أو سوق الصاغة؟! آه يا صغيرتي لو قدِّر لكِ أن تشاهدي النسوةَ وهن يتزاحمْن صفوفاً أمام المحلات الأنيقة المكتظَةِ بألفِ طيبٍ وطيب أو بكلِّ أنواع الثيابِ المحتشمة أو المثيرة، والتي تميس رهافةً وأناقة وإغراء...

على جانبيّ بابِ إدريس كانت تصطفّ محلاتٌ تظنّين أنها اقْتُطِعَتْ من باريس أو لندن تجذبُ الناسَ، وتفتحُ شهيَّةَ الشراء، وأفواجُ السائحين تملأ الساحات، والجميعُ يتدافعون برفق باحثين عن موطىءِ قدمٍ، أو منتظرينَ أدوارَهم للتبضّع، وبين هؤلاء تتعالى الأصوات وتزعقُ السياراتُ وتختلطُ النداءات، حتى كأنّ برجَ بابل بُعث من عمق التاريخ في زوايا بيروت، لا سيّما في ساحة البرج التي تشكّل نقطة الدائرة التي لا تنام وهي تستقبلُ وتودّع، تمتلئُ ولا تفرغ، وأصواتُ المنادين تحدّد وجهةَ السَّيْر، إلى عاليه وبحمدون وصوفر وبرمانا وزحلة وبعلبك وطرابلس وصيدا وصور وصولاً إلى الشام.

كانتْ هذه الأصواتُ تزعجُنا، وكان الازدحامُ يُتعبُ أعصابَنا، كانتْ عجقةُ السيارات تُربِكُنا. ولم نكنْ ندركُ حينئذٍ أنها صورةُ الحياةِ النابضةِ، ومظهرُ الاستقرار... آه يا صغيرتي لو تعودُ هذه الحركةُ، وتلك الأصواتُ، وذلك الازدحام... هذه كانت مظاهرَ السعادةِ التي كنّا نعيشُها ومفاتن الجنّة، [redacted] التي كنّا في أحضانها... لقد افتقدْناها، ونبكي اليومَ عليها دماً لا دموعاً، لأنها الأمانُ المسافر، والهناءُ الراحلُ، والتعايشُ المفقود.

كان يومُ العطلة شيئاً مهماً في حياتنا الدراسيّة، لأن باقي أيام الأسبوع كانت تحصيلاً ودرساً، أما أنتم اليوم فتسرقون يومَ الهناء وتختلسون ساعاتِ الدرس، فمعظمُ وقْتكم ضائعُ بين القصفِ والقنصِ والإقفال القسري لأن عُمْرَكُم الدراسيَّ مرهونٌ برحمة المتقاتلين المتناحرين، حملةِ السلاح..

كنا يا صغيرتي لا نعرف خطوطَ التّماسّ ولا المتاريسَ، لا نعرفُ القذائف ولا الخطفَ ولا مأساةَ التهجير... كانت بيوتُنا لنا، ورزقُنا لنا، وأولادُنا ليومِنا وغدِنا ولزاهي أحلامنا.

وها نحنُ في أيامنا السوداء، يجتاحُنا خوفٌ مرهقٌ، فبيوتُنا ليست لنا، وأرزاقُنا مستباحة، معرضةٌ للسلبِ والسرقةِ، وأولادُنا ـ آه لو تعلمين ـ كم نتعذبُ حتى يعودوا إلى بيوتهم... نموتُ ونحيا لنراهُم مع كلِّ عودةِ سالمين، فإذا تأخّرَ أحَدُهم غارَتْ قلوبُنا خَشية تعرُّضِهِ لأذىً أو اختطافِ وانتابتْنا الهواجسُ المزعجةُ السوداء.

كنا يا صغيرتي نحفظُ أسماءَ الرفاقِ والرفيقاتِ دون أن نَسْتطردَ في البحثِ عن الدّينِ والمذهِب والبلدةِ.. كانت الطفولةُ والصداقةُ توحّدان بيننا، ولم نكنْ نعرفُ معنًى للعصبيّات ولا للطوائف. هكذا كانتِ الأميرةُ تحضُنُنا، أميرةُ العواصم خلعْت هذه الأيام ثوبَها الأبيضَ واتّشحَتْ بالسواد، لَقَدْماتَ أهلُها كمداً، ماتَ الهناءُ فيهم بعد أن سرقوا منهم الفَرَحَ والأمانَ وصبّوا على أثوابِها الزاهيةِ حقدَهُم وأحرقوها، لقد اختلسوا النورَ من عينيها وأطفأوا البسمةَ على شفتيها وجرّحوا وجْهَها..

ما هكذا تُعامَلُ الأميرةُ المتعاليةُ كبرياءً يا جحافلَ اللّيل التي لا تعرفُ الرحمة... أمامَ الأميرةِ المستباحةِ، أمام كبريائِها العظيمةِ أنحني بخشوعٍ ووجعٍ وفي عينيَّ دمعةٌ تحرق محاجري آملاً أن ينتهيَ هذا الليلُ الطويلُ، والكابوسُ المرعب!!

تشرين الثاني 1980

رسالة إلى أمي*

(الرسالة الأولى)

ها أنا يا أمي وحيدٌ في زاويةِ بيتي، أكادُ أَخْتَنِقُ بنَفَسي. منذُ لحظاتٍ خرجَ الأولادُ مع أمّهم لمعايدةِ جدّتهم - بمناسبة عيد الأم - وبقيتُ - أنا الطفلُ الكبيرُ - مع ذكرياتي وأحلامي المسافرة إلى حيثُ تقيمين في أقصى الجنوب...

أتعلمينَ يا أمي أنني أنا الذي نَوَّفَ على الخمسين، وابيضَّ ما بقي من شعري، أرى نفسي أمامَكِ طفلاً صغيراً، يَدْرُجُ في جنبات البيت، يقفزُ ويلهو، يخاصِمُ ويشكو، يَمْنَعُ ويعطي، يأخُذُ ويطمَعُ، يبكي ويفرح، ويفزعُ باستمرارٍ إلى حضنِكِ الدافىء، ويديك المباركتين، ويطمئنُّ ويرتاح إلى عينيك الوادعتين، ووجهِك الطاهر.

أتعلمين يا أمي أنني أُحسّ أنني لم أَكْبَرْ، ولم يتقدَّمْ بي السن... ولم أصبحْ بَعْدُ أباً... لأكادُ أشعرُ أنني صغيرٌ أحتاج إلى

(*) نشرت في النهار العربي والدولي عدد 466 - 7/ 13 نيسان 1986.

مؤازرتكِ وحضانتِكِ وتربيتِكِ، وإلى غفوةٍ هانئةٍ على ركبتِكِ تلاعبينَ خلالها شعري وأنت تترنّمين بالأدعيةِ والتعاويذ. وحيدٌ أنا الآن يا أمي... سعيدٌ بوحدتي معك لأنها أنيسةٌ وادعةٌ، تصلُ ما بين طفولتي ولحظاتي هذه التي تختصرُ نصفَ قرنٍ من الزمن...

أتصدّقين كم أودُّ أن تطولَ هذه الجلسةُ الهنيئة، وكم أتمنى أن أُجدِّدَ دقائقَها، وأتمسَّكَ بهنيْهاتها... أَلَيْسَ فيها بعضٌ من عِطْرِكِ، وشيءٌ من أنفاسك، وشذًى من عبيرك...

كلُّ الناسِ اليومَ أطفالٌ أمام أمّهاتهم. والسعداءُ هم القادرون أن يشمّوا روائحَهنّ وأريجَهنَّ... والسعداءُ ـ حتى الثمالة ـ أولئك الذين يحضنونَ أمهاتِهم ويرتوون، أولئكَ الذين يتطهَّرون بلمساتهن، وأنا ـ عَبْرَ سعادتي المتألمة ـ البعيدُ عنكِ يا أمي... أقبِّل يديكِ بعينيْن دامعتين، وقلبٍ حزين... يكفيني أنّك ما زلتِ بخير، وأن الحياةَ ما زالتْ تعمُر قلبَك الكبيرَ الكبير!!...

أنا بعيد عنك يا أمي... لأن بيني وبينك حواجزَ ومسلّحين وطرقاتٍ مقطوعة، لأن بيني وبينك يا أمي وطناً جريحاً، مقطَّعَ الأوصال، مسلوبَ الإرادة، ينزفُ على صليب الأوجاع والمهانات والآلام... بيني وبينك أَحَدَ عَشَرَ عاماً من العذابِ والقصفِ والدمارِ والترحال والتّهجير...

أكادُ أبكي دماً وأنا بعيدٌ عنك يا أمي... ومثلي كثيرون يبكون عذاباتهم، ويبحثون في بلادهم عن وطنهم المخطوف... أتدرين يا أمي أنهم جميعاً ذبحوه، وأنهم يتراكضون لاقتسام أشلائه ونَهْشِ لَحْمه.

في عيد الأم يا أمي يفرح الأطفالُ ويحملون الهدايا ويعيشون الْمَسَرَّات.

وفي عيد الأم يا أمي يبكي أطفالٌ آخرون لأن أمهاتِهم بعيداتٌ... ويبكي آخرون بصمتٍ موجعٍ لأنهم فقدوا أمهاتِهم...

أما نحن في لبنان فيجب أن نبكيَ جميعاً - بحرقةِ المكْلوم - وطنَنَا المخطوفَ فهو وَحْدَهُ أُمّنا التي لم نَحْفَظْها ولم نَكُنْ بارّين بها.

أتُرى أستطيعَ يا أماه أن ألثمَ يديْك الطاهرتين وأعودَ إلى دفءِ حضنك أيتُها البعيدةُ في أقصى الوطن...

أترى يعودُ وطَنُنا المخطوفُ لننعم جميعاً - نحنُ أطفالُ لبنان - بهناءِ عيْشِهِ وجمالاتِ ربوعه؟!

رسالة*

قرأت في النهار العربي والدولي العدد 466، تاريخ 7 ـ 13 نيسان 1986، للسيد إحسان شرارة «رسالة إلى أمي». وها هنا رسالة مقابلة:

ما عرفتُك قبلاً... لكن رسالتَك عرَّفتني بك، فكلمَتُك بالأمس ولا السحر!.. ما أنا الذي قرأها هي قرأت ذاتي! وجدْتُها تحملُني إلى الأسمى والأعمق تعانق روحي، تنتشل أعماقي من النسيان.

هزّتْني من الجذور. قلْ عرَّت كياني بشفافيتها وطفولتها وبساطتها. هي بعضٌ منا جميعاً، نتفٌ من مشاعرنا الممزقة، رسالتُك إلى أمك رسالة عنا إلى كل الأمهات، ورسالة عنا إلينا. تُوجعنا تلك الوحدةُ التي ذكرت، كما الكآبة والوجد. تؤلمُنا. تسكنُ لا وعينا وتوعّينا.

وبين هذا وذاك، يُطِلّ لبنان مثخناً بالجراح. لا تخفْ صديقي!... الأم في لبنان تحتضن لبنان وتشفي جراحه بدموعها والعنفوان!...

عطا إيليا كوسا

(*) نقلاً عن النهار نجتزىء منها هذه المقدمة مع الاعتذار لعدم نشرها كاملة.

أمي لا تزال في الشريط*

(الرسالة الثانية)

ها أنا أصلّي من جديدٍ في عيدك يا أمي وأتضرَّعُ إلى الله أن يحفظَكِ ويرعاكِ ويُسبغَ عليك الصّحةَ وتمامَ العافية.

في يومكِ هذا أشعرُ أنني رغمَ كِبر سني وبياضِ شعري ما زلتُ طفلاً يلذُّ له أن يغرقَ في حضن أمّهِ ويستكين؛ ويَأْنَسَ باستراحةٍ هنيئةٍ يسترجعُ خلالها أجملَ أيامه الهاربة.

أحببتُ في عيدك هذا أن أضفُرَ قلبي باقةً أحملُها إليك بعض عربون وفاء، وأركضَ إليك مجنَّحَ الخاطر، مسحورَ الرؤى لأنعمَ بفيْضِ الدفء.

ودَدْتُ يا أمي أن أحلُم ككلِّ الأطفال في هذا اليوم، وأهرْوِلَ فرحاً إليك مع أخوتي وأخواتي - بل قبْلهم جميعاً - لأظْفَرَ منكِ ببسمةٍ أو قبلةٍ أو دعاءٍ ينقلُني إلى عالمِ مسحورٍ، ودنيا رغيدةٍ أينَ منها عوالمُ الأحلام.

(*) نشرت في مجلة الشراع في حينه.

ها أنتِ يا أمي تقيمينَ في شريط الأحزان وعلى حدود الأوجاع في أقصى الوطن. بيننا وبينكِ حواجزُ وبوّاباتُ عبور، محكومةٌ بإجراءاتٍ تمنعُ التواصل، وتقطعُ الطرقات، وتقيِّد التحرّك، تقسِّمُ الناس بين الداخل والخارج، لا يمكنُنا أن نذهبَ إليك عندما نريد، في الوقت الذي نريد، كما لا يمكنُكِ أن تأتي إلينا عندما تريدين، في الوقت الذي تريدين.

هل تعلمين يا أمي أن الأرضَ نشتاقُ إليها ونتحرَّقُ لرؤيتها ونحمِلُها في مُهجِ القلوبِ ومحاجرِ العيون.

الأرضُ مِثْلُك تماماً يا أماه، حَمَلَتْنا في دفءِ رحمها، وغذَّتْنَا من خيراتِ عطاياها، شربْنا ماءها وتَنَشَّقْنا هواءها. لعبْنا فوق مغانيها، تَفيّأنَا وارفَ ظلالها، شاركْناها بَرْدَها وحرَّها. رِيَّها وعَطَشها، صاحَبْنا طيْرَها وحيوانَها، أخذْنا منها وأعطيْناها، عشْنا معها وعاشتْ معنا، تسلَّلَت إلى عروقنا، استراحَتْ في نجاوى نفوسنا، وخبايا بالنا.. صدّقيني يا أمي أننا نحملُ هذه الأرض في وجداننا، نحلُم أن نصلَ إليها، أن نركضَ فوق ترابها، أن نتنسَّمَ عطرَها، ونَشُمَّ غبارَها، ونتسلَّقَ صخورها، ونمشي على دروبها، في زوارِيبها، ونسامرَ ضوءَ قمرها...

أتتصورين يا أمي أن الأرضَ نفسَها تشتاقُ لأهلها، لحركةِ الحياة، ودفْقِ الشباب، وغُنْج الصبايا وفَرَحِ المحبين. أتصدقينَ أنها اليوم تئنُّ موجوعةً من ألم الفراق، ومهانةِ الذلّ، ومعاناةِ البعاد؟

في عيدك يا أمي أحلمُ أن أركضَ إليك كما ركضتُ بالأمس البعيد، أن أمرّغَ وجهي بين راحتيك وأنامَ على ركبتك وأنعمَ بدفءِ حنانك وحدائك الجميلِ وأنت تلاعبينَ ما تبقى من بياضِ شعري وتمرّرين يَدَكِ على تجاعيدِ وجهي.

في عيدك يا أمي أحلمُ أن أعودَ إلى بلدتي، إلى بيتي إلى حيث تقيمين ويعودَ المهجّرون في وطنهم أو خارجَهُ إلى أرضِهم وبيوتِهم مع أمهاتِهم أو إلى حيثُ تنتظرُهُمُ الأرضُ والأمهاتُ.

صدّقيني أننا نذوبُ وجداً ونئن من وجعِ الفراق. وأن الأرضَ المشتاقة تئنُ كذلك وقد برّحها الشوق لتعودَ للوطن أو ليعود إليها الوطن، وكلُّنا نتحَرَّقُ لهذا اللقاء الموعود.

معك يطيب لنا هذا العيد

(الرسالة الثالثة)

صدقيني يا أمي أن كبار السن عادوا صغاراً في هذا اليوم ليشاركوا أطفالهم أفراح العيد، وحلموا مثلهم أن يسابقوا نداوةَ الفجر ويَسْعوا جذلين إلى أمهاتهم...

وفَرَحُ الكبار لا يعرف معانيه الصغار، فهو ليس ثياباً جديدة، وجيوباً منتفخة وهدايا متنوعة، ولا لهواً أو لعباً، إنه وعيُ رحلة العمر، ويقظةُ المقلبِ الآخر، ورصيدُ تجاربِ أيامٍ شحَّ زيتُها، وخيالُ أجسامٍ عَارَكَها الزمن، وبقايا ذكرياتٍ طاولها الوهنُ فأضاعَتْ رُواء العافيةِ ونضارةَ الشباب، وأدركتْ وفهمتْ بعمقٍ أن الأم هي الحضنُ الدافىء والقلبُ الحاني، والطهرُ المصفّى، والحبُّ الغامر، والرباطُ المقدَّسُ الذي يجمَعُ ويوحّد...!!

ها نحن يا أمي جئناك مع أبنائنا وأحفادنا، وقد عُدْنا كلُّنا أمامك أطفالاً، تصوّري أننا رغم بياض شعرنا، وتجاعيد وجوهنا، واهتزاز أيدينا، ووقار عمرنا ما زلنا نطمَعُ بقبلةٍ نديةٍ تطبعينها على وَجناتنا،

وضمّةٍ حانيةٍ تُفرح أفئدتنا، ولمسةٍ دافئةٍ تُسعد كياننا، ودعاءٍ حارٍ يهدّئ وجَعنا، وتمتماتٍ رضيَّةٍ تلفُّنا ببركاتها، وتأخذُنا إلى عوالمَ مسحورة الرؤى، عابقةٍ بالإيمان والسكينة...

ها نحن يا أمي تحلَّقْنا حولَك وأحَطْناكِ بنبضاتِ قلوبنا وأهدابِ العيون، ورأيناكِ في وسط الدائرة تَغْمُرِيننا بنظراتك الحانية وتشيعينَ الدفءَ والمحبةَ، فيشعرُ كلٌّ منا أن يديْكِ امتدتا إليه، وأدْنَتَاهُ منكِ وضمّتاهُ برهافةٍ إلى حنايا الضلوع ومهجةِ الفؤاد ورعشةِ الكبد... وأتساءل يا أمي ويأخذُني العجبُ كيفَ يتّسِعُ قلبُك لهذا الكمِّ الفريدِ من المحبّةِ العظيمةِ لنا ولكلِّ الناس؟! وكيفَ استطاعَ ويستطيعُ أن يختزنَ هذا الفائضَ الدافقَ من حبِّ الخير والإيثار، وكيف تمكَّنَ بذلك الصفاءِ النادرِ من الانتصارِ على حبِّ الذاتِ والحقدِ والبغضاء؟! وأنا لا أكاد أذكرُكِ يا أمي إلا مأخوذةً بإيمانِ الزاهدين، وورعِ الأتْقياء، تَصِلِين الليلَ بالنهار عابدةً، قانتةً، متبتّلةً، مشدودةً إلى الخيرِ والصلاح.

في هذا اليوم، مع قدوم الربيع وانبعاثِ الحياة يتوجّهُ الناسُ زرافاتٍ إلى أمهاتهم... يسعدُ كثيرون بهنّ وتغمرُ الأفراح ديارَهم... ويتألم كثيرون ويتوجّعون لأنهم بعيدون عن أمهاتهم لألفِ سببٍ وسبب... وفي مثل هذا اليوم يبكي آخرون، يبكون بصمت، وينشجون في داخلهم لأنهم فقدوا أمهاتِهم اللواتي خَلَّفْنَ بَعْدَهُنَّ الأسى والأحزانَ والآلام...

أحلى ما في هذا العيد أنكِ يا أمي ما زلتِ بحمد الله حِضْنَنَا الدافىءَ وملجأنا المحبَّبَ وملاذَنا الأثير...

أمّي تقيم في الشريط

(الرسالة الرابعة)

أستميحُكِ عذراً يا أماه، لأنني في عيدك لم أتمكنْ من الوصول إليك. فأنا لستُ بعيداً عنك بمقياسِ المسافات وأنتِ ما زلتِ هناك على شريط العذاب حيث تنمحي ملامحُ الوطن.

حلمتُ كثيراً يا أماه أن آتيَكِ مع إطلالةِ الربيع العابقِ بالطيب، وتَنَفُّسِ الصّباحِ المبلّلِ بالندى، فما تحقّقَ لي حلم، وما عَبَق الشذى أو اختَلَجَ الصباح.

ها أنذا يا أماه مُكوَّرٌ على نفسي في زاوية البيت، تطارِدُني الوساوسُ، ويرعبُني دويُّ القذائف، وتنهشُني سودُ الأفكار، ولا أدري أأقع على الموتِ أم يقعُ هو عليَّ في وسط عاصفةِ القصفِ المجنون.

في عيدك يا أماه يحلو الفرح، ويطيبُ الحبور، ونرجع كلُّنا أطفالاً... صدقيني يا أماه أنني رغم بياض شعري ـ كل شعري ـ أحس أنني أمامك ما زلت طفلاً، أحب أن أركضَ إلى حضنك الدافىء، وأنامَ على ركبتيك، وأمرِّغَ وجهي بكفيك، ألثُمُهما، أقبِّلُهُما، أحْضُنُهما، وأغفو هانئاً في مملكتك المسحورة.

بيني وبينك يا أماه مسافاتٌ هي حدود القبائل والطوائف والأحزاب، تحرسُها العصبيات والجهالةُ والحراب.

ها أنا كالأسير قابع في بيتي، وأنت هناك تنتظرين.

بالأمس رغم سواد الأحزان، خرج الناس يضفرون الباقات، ويزيّنون الهدايا، يحملونها مع بسماتهم الحزينة إلى أمهاتهم. وخرج صغاري مع أمهم في دوّامة العيد يبحثون ويستعدّون... وبقيتُ أنا معك في وحدتي، وسافرتُ إليك إلى حيث تقيمين، ومددتُ يدي، ناديتُك يا أماه، ضَفَرْتُ قلبي وحبّي باقةً لعيدك، ورأيتُك بجانبي، معي، هذه يدُكِ أكادُ ألمسُها، وهذا صوتُكِ ملءُ مسمعي يموج بالدعاء.

في عيد الأم يفرح أناس، ويتسابقون إلى أحضان أمهاتهم، حيث ينعمون بدفء المحبة وسكينة الحنان.

وفي عيد الأم يبكي أناس بوجع حبيس لأنهم بعيدون عن أمهاتهم، تفصلهم المسافات والحواجز.

وفي عيد الأم ينشج بصمت أناس آخرون تسكنهم الآلام لأنهم يفتقدون منبع الحنان وطهر المحبة.

أنا يكفيني يا أمي أنك بخير، وأَن قلبك لا يزال يعمر بالحياة لأنني بعيد عنك يا أمي، ها أنا أبكي بصمت. وأحلُمُ كطفلٍ صغيرٍ أن أطبعَ على يدك قبلة العرفان، وأَغْفُوَ هانئاً على ركبتك وأنت تغنّين لي أحلى الترانيم.

من كل ابن إلى كل أم*

(الرسالة الخامسة)

ونحن نجتمع عندك اليوم يا أمي كم يطيبُ اللقاء ويحلو الفرح، كأننا ما زلنا صغاراً ننعم بدفء الحنان. وفيض المحبة... نتحلّق حولك صامتين وأنت تجودين بأمتع الحكايات!!.

هل تذكرين يا أمي كيف كنا نتراكض ونتزاحم على المكان الأقرب منك ونتعارك ليُبعدَ الأقوى الأضعفَ عنك... ويعلو الصراخ، ويعنفُ ثم يرينُ الصمتُ عندما تمدّين يديْك وتحتوين الجميع بضمةٍ نغرق في دفئها، ونستكينُ لهدأة حنانها..

يومها يا أماه.. كان كل منا يشعر أنه أثيرٌ لديك ربّما أكثرَ من الباقين وأنك تعنين له غير ما تعنين للآخرين.. لكنك ما كنتِ يوماً تُحابين أو تفرّقين أو تظلمين.. ما كنت إلاّ طمأنينةَ العدل، وسكينةَ المحبةِ والقلبَ الكبيرَ الذي يَسَعُ كُلَّ الخير..

(*) نشرت في مجلة الشراع 1992.

يومها لم نكنْ ندرُك يا أماه نعمة اجتماع كلِّ الأخوة والأخوات في ظلّ الوالدين.. كان إدراكُنا محدوداً نظنُّ أن اجتماعَ شمل الأسرة أبسطُ المسلّمات.. كنا أطفالاً في كل شيء..

وكبرنا يا أماه.. مشت بنا الحياة وتقدم العمر، توارتِ الطفولة ورَحَلَ الصّبا.. وخرج من البيت الشباب والصبايا ليكوّنوا بيوتاً ويصبحوا بدورهم آباءً وأمهات.. وابيضَّ شَعْرٌ كثير.. ولكننا بقينا كلُّنا أمامك صغاراً رغم الكهولة والمشيب.. بقينا أطفالاً نندفعُ نحوك طلباً للراحة، وبحثاً عن دفء الحنان بين راحتيك أو في حضنك الأثير!!!

صدقيني يا أماه أنني أنا الذي جاوزت الخمسين أشعر أنني ما زلت أمامك طفلاً صغيراً بحاجة إلى العطف المريح، والكلمة الوديعة، والدعاء المُطَمْئِن؛ بحاجة إلى اليد الرفيقة تداعبُ ما بقي من شعري الأبيض، وتسكب في أوصالي أماناً ينقلُني إلى عالم سحري لا يخطر ببال، حتى لكأنني أتعبّد الله في سحر النجوى وتهويم الإيمان!!

في عيدك اليوم يا أمي أرى نفسي طفلاً صغيراً، يطيبُ لي أن ألتصقَ بك.. أنام على ركبتك.. أرتاح وأنت تمرّرين يديْك على تجاعيد وجهي وتقرئين تعاويذَك ويُستجابُ الدعاء.. أنام على صوتكِ وأنت تترنّمين بـ«حادي العيس» و«طير الحمام».. أنام لأعود في خيالي طفلاً يحبو ويدرج، يمشي ويعثر، يتنقل أمامك ويحتمي بك ويبقى طويلاً مستأنساً في حضنك الهادىء الحنون.

في عيدك اليوم، في أول الربيع. وتفتّحِ الحياة في الأوصال

والشرايين يَتّجِهُ كلُّ الناس نحو أمهاتهم يحملون عربون المحبة وبعضاً من الوفاء.. ينتظمون صفوفاً طويلة ويطوفون حولك وهم يرتّلون وينشدون!!!

ها نحن يا أماه جئناكِ مع أولادنا وأحفادنا، وقد اجتمعَ شملُنا أو كاد.. في عيوننا دموعٌ صامتة تناجي المسافرين.. وفي قلوبنا غصّات موجعات.. فاسكبي يا أمي علينا بلسماً يغذي نفوسنا، وانثري في أعماقنا سكينةً تهدّىء أوجاعنا.

جئناك يا جامعة الشمل ونحن نضرع إلى الله أن يبقيك فوق رؤوسنا حرزاً يحفظنا، وتُقًى يحمينا، وزادَ صلاحٍ يركّز خطانا..

يا أمي.. في هذا العيد بكى كثيرون من الفرح وهم بجانب أمهاتهم.. وبكى كثيرون من الألم لأنهم بعيدون عنهن.. وبكى كثيرون كثيرون من الحزن.. أجهشوا ونَشَجوا في أعماقهم لأنهم لا يستطيعون أن يَرَوا أو يكلّموا أمهاتهم.

في عيدك يا أمي نسينا همومَنا وأوجاعَنا.. وتعلمين أنها تلازِمُنا.. نتنشّقُها مع الهواء، تأكل معنا وتشاركنا حتى في خيالات أحلامنا ونحن نيام.

صدقيني أننا اشتقنا إلى الفرح فقد طال زمنُ الأحزان وأَتْلَفَتْ أعصابَنا الهمومُ.

جميلٌ عيدك أيتها الطيبةُ القلب، المشبعةُ بالمحبة والحنان، يا نوراً من الله في كياننا، أيتها الصالحةُ المستجابةُ الدعاء تضرّعي إلى الله أن يمنَّ علينا وعلى بلدنا بالأمان والسكينة والهدوء.

رسالة إلى أمي

(الرسالة السادسة)

ـ الوالدة معنا في بيروت ـ

ها نحن يا أمي نتوزّع السنةَ أعياداً ومناسباتٍ، يختصُّ كلٌّ منّا بأيامٍ عزيزة عليه وعلى أسرته، نتبادلُ فيها سلالَ الزهرِ وباقاتِ الورود وأعذبَ التمنيّات... لكننا كلّنا ننتظرُ عيدَك في مطلع الربيع، لنعودَ أطفالاً مع أطفالنا، ونزحفَ إليك في يومكِ المبارك؛ نجدّدُ الشكرَ لخالقنا على نِعَمِهِ بَعْدَ أن قيّض لنا أن نتحلّق حولكِ لننعمَ بالدفء والسكينةِ والاطمئنان!!

... ها نحنُ كلُّنا عُدْنا صغاراً... جئناكِ مع الصباحِ الباكر على عجل... في قلوبنا تتراقَصُ أفراحٌ جذلى، وفي عيوننا تتمايلُ رؤىً نشوى، وقد غَمَرَتْنا سعادةٌ حملَتْنا كالسّكارى إلى عوالمَ مسحورة...

ها نحنُ أتيناكِ باكراً مع الصباح، نصطحبُ ونحملُ أطفالنا لتنشري ندى محبتك دفءاً في أوصالنا، وتوزّعي حانيَ نظراتِكِ ألقاً في عروقنا وتنشري حَوْلَكِ سلاماً مُنْعشاً نقيّاً ظلالَهُ وأماناً وارفاً نستكينُ إليه...

... صدّقيني يا أمي أننا شعرنا كلُّنا هذه السنة بالذات أننا أكثر التصاقاً بك.

... أدركْنا بوعي أعمقَ نعمةَ وجودِك بيننا... فهمْنا معنى استمرارك سياجاً يحوطُنا، وملاكاً يحرُسُنا... أيْقنّا أنكِ الخيرُ يلفُّ حياتَنا، والبركةُ تعمُّ بيوتَنا، والنفحةُ الذكيَّةُ تنشُرُ عَبَقَ طيبِها!!... أصبحْنا يا أمي نخافُ عليك حتى من النسمة إذا عنفت، ولفحةِ البرد إذا قَوِيَت، ومن الرشحِ والزّكامِ وعوارضِ الضعفِ وبوادرِ الهُزال... حتى لكأننا لا نحبُّ أن نعترفَ أن العمرَ قد تقدَّم بكِ وبنا، وأننا نحنُ أبناءَك قد أصبحْنا جدوداً، وذَهَبَ منذُ مدّةٍ لا بأس بها سوادُ شعرِنا واشْتَعَلَتْ رؤوسُنا شَيْباً...

... ها نحن يا أمي جئناك بفرحٍ غامرٍ مع أولادنا... نحنُ كلُّنا نتَحلَّقُ حولَك... كلٌّ منّا يطمحُ ويطمعُ بضمّةِ حنان، ودعاءٍ نديٍ مستجاب...

أتذكرين كيف كنّا بالأمس البعيد صغاراً نتراكض ونتدافع ليحظى واحدُنا قربَك بمكانٍ أثير... أتذكرينَ كيفَ كان يبكي واحدُنا عندما لا يجدُ له متّسعاً بجانبكِ بعد أن أبعدَهُ أخوه الأكثرُ قوّةً منه... ما زال كلٌّ منّا يتذكَّرُ كيفَ كُنْتِ تمدّينَ يديْك إليه، تأخذينه إلى الحضْنِ الدافىء ثم توزّعين علينا جميعاً نظراتِك الحانيةَ وتغرقيننا في عالمِكِ المسحور، ونغيبُ... نغيبُ كلُّنا في جوٍّ حالمٍ وقد لمَعَتْ في عيوننا ابتساماتٌ رضيّةٌ، وطَفَتْ على وجوهنا ضحكاتٌ هنيَّةٌ... ورانَ علينا سكونٌ محبَّبٌ غريب!!

ها أنا يا أمي رغم بياض ما بقي من شعري، وتجاعيدِ وجهي، ما زلتُ أرى نفسي أمامك طفلاً صغيراً يلذُّ له أن يركضَ إليك؛ يشتاقُ أن يتشبَّثَ بيديْك ويمرِّغَ وجْهَهُ في راحتيْهما...، ويحبُّ أن يُسندَ رأسَهُ إلى ركبتك، وينامَ في حِضْنِكِ ويسمَعَ حُداءك... ويشعرَ أنه استعاد أيامَهُ الخوالِي ورَجَعَ طفلاً صغيراً يحلمُ بعوالـمَ سحريةٍ متراميةٍ وراء مدى الظن...

في هذا العيد يا أمي يتألّم كثيرون لم يقدَّرْ لهم أن يكونوا قرب أمهاتهم... ويتوجع كثيرون بحرقة وبصمت لأنهم فقدوا أمهاتهم وفقدوا معهنّ سكينةَ الحنان وطهارةَ المحبّة ونداوةَ العاطفة...

ها نحنُ يا أمي في عيدك اليوم نعودُ معك وبكِ من ذكرياتنا المسافرة نشكر الله أنّك بيننا... نتضرّع إليه أن يطيلَ عمرَكِ لتبقي الخيرَ العامرَ يلفُّ حياتنا، والحبَّ الطاهرَ يوزّعُ الطيبةَ حيثما حلّ وأقام...

لقلبك الكبير منّا جميعاً أجملُ الأماني، ونسأل العلي القدير أن يمنّ عليك بالصّحةِ والعافيةِ وهدوءِ البال...

آذار 1996

إلى زوجتي وأولادي
وأخي محمد

حبيبتي التي لا أغلى...

وقد سافرت بمناسبة ولادة حفيدتنا الأولى في نورث كارولينا

اليوم أحد... وقدِ اعْتَدتُ منذُ أشرقْتِ في دُنيايَ أنْ أكونَ مَعَكِ هذا النهارَ، فَهوَ لكِ وَحْدَكِ دونَ كلِّ الناس؛ ثم هُوَ مَعَكِ للأسرةِ منْذُ أصْبَحَ لنا أولادٌ... وميزَةُ هذا اليومِ أنَّنا لا نَعْمَلُ فيه، نُخَصِّصُهُ للبيتِ وللمشاوير، للرحلاتِ والمسرَّاتِ، نتزوَّدُ فيه ومنه أفراحاً ومباهجَ ونشاطاتٍ، تَرْفُدُ باقي أيامِ الأسبوع، وتَضُخُّ فيها ما يُنْسينا الجُهْدَ والتعبَ والعرقَ...

ها أنا وَحْدي في بيتنا ـ الذي نَأوي إليه دائماً بسرعةٍ فَوْرَ إِنجازِ واجباتِ الحياةِ ومُتَطَلبّاتِ العمل ـ أجلسُ معكِ لأكْتُبَ لكِ، وأنتِ تُطلّينَ عليَّ من كلِّ زاويةٍ فيه، وتهلّينَ من كلِّ صَوْب...

أراكِ معي تَخْطُرينَ في الغُرفِ والممرّات والشُرفاتِ... أَسْمعُ صَوتَك يتردَّدُ في جَنَباته، ويتجاوبُ في أعماقي... أكادُ أُمْسكُهُ خوفَ أنْ يَذُوبَ ويتلاشى، كما دقَّاتُ الساعة بجانبي، وهذه التراتيلُ المُنْبَعثَةُ من الكنيسةِ المجاورة...

... ها أنتِ حقاً معي في الصورةِ المعلّقة على الجدار، تَنْطِقُ شفتاكِ وهما صامتتان؛ تَتَكَلَّمُ عيناكِ وهما حالمتان؛ تُحدِّثِينَني بلا صوتٍ... فَأَجِدُني معكِ، وأجدُكِ معي - رَغْم السفر البعيد - بيْنَ أزهارِكِ المتَفَتِّحةِ، وورُودِكِ الواعدة، وكلٌ ما اخْضَرَّ بَعْدَ أن لامَسَ رشيق أصابعك.

أنا - في وحدتي - الآنَ معكِ، أراكِ في كلٌ منعطفاتِ البيتِ وزواياه.

... كلٌ ما فيه ما زالَ كما تركْتِهِ على شوقِ الانتظار!!...

صدّقيني أنَّ قهوةَ الصباح لم تُشْرَبْ منذُ بارَحْتِنا، وأنَّ جَلْبَةَ الموسيقى وأغنياتِ الطرب سافَرَتْ معكِ، حتى أنَّ جرائدَ الصباحِ ما عادتْ لها نكهةُ استطلاعِ الحَدَثِ مع فنجانِ القهوةِ الثاني...!!

أنا رغْمَ وحدتي أُغْمضُ عينيَّ فأراكِ معي، تَتَرَبَّعينَ في قلبي، تُطلّينَ من عيْنيَّ، تُقيمينَ في وجداني وأعماقِ وعيي... أحسُّ نَفَسكِ على وجْهي؛ أَسْمَعُ صَوْتَكِ؛ أطربُ له يتجاوبُ في ذاتي حتى لكأنَّكِ تَسْرينَ في دمي... أشعرُ بكِ في النبْضةِ والخلْجةِ في الهَمَساتِ والنجاوى والأسرار... حتى لكأنني غَشيتُ في دُوار الوَجْد؛ فبلغتُ غاية المنى... وغَرِقْتُ في دوّامة الحبِّ الذي لا ينتهي لَدُنْ تماهَيْتُ معكِ في عُنفوانِ الإشراق...

أيتُها الحبيبة

طويلةٌ حتى السأمِ أيامُ البعاد، لكأنَّها بلا معنى... نَفْتقِدُ فيها حلاوةَ اللُّقيا، والهناءَ المُقيمَ...

صدّقيني أنكِ أخَذْتِ معكِ أُنْسَ الحياة؛ وتَركْتني أتَقَلَّبُ مع الوحْدةِ والقلقِ والضجر... قلبي سافر معكِ وخَلَّفَ لي عَبَقَ الذكرى... وعيناي تَسْبُرانِ الأبْعاد، تَرْعَيانكِ حَيْثُ تَحِلّين... وحولكِ أبداً أمنياتٌ وتعاويذُ رَجَوْتُ أن يجعَلَها ربّي لكِ حِرْزاً وأماناً...

... تأكّدي أنكِ غداً عندما تعُودينَ - ستُرجعِينَ لي معكِ ألقَ الحياة... وستَرَيْنَ بنفْسِكِ كيفَ أنكِ تَنَشُرينَ حيثما تَحِلّين حباً دافئاً، وهناءً رخيّاً...

غداً عندما تعودينَ سَتَسْمعينَ عتابَ الفلِّ، وشكوى الورد، وَوَجَعَ الياسمين... وستميسُ هذه فرحاً عندما تطلّينَ عليها، وتُوزِّعينَ بعضَ حنانكِ، وتُمرِّرينَ يَدَكِ الرقيقةَ الحانيةَ فوقَ غلائلها...

يا حبيبتي

كلُّ ما في بيتنا بَرَّحَهُ الشوق... وكُلُّ ما فيه سوفَ يَضجُّ بالحياةِ عندما تُشْرقينَ فيه كما الأحلام الوضيئَةُ...!

22 نيسان 1992

عزيزي فادي

لا أدري إذا كانتْ صدفةً غريبةً أن أكتبَ لك يوم الرابع عشر من شباط الذي يقعُ فيه عيدُ العشّاق... أرى في ذلك مبعثاً للتفاؤل. ومجالاً للاطمئنان... فهذه هي المرةُ الأولى التي أحاولُ أن أكتبَ لك وأنا مرتاحُ البال... فمنذُ تخرُّجِكَ وسفرِك إلى أميركا لمتابعة دراستك وأنامن هنا أبني معك الأحلام العريضةَ والمستقبلَ الواعد، وأحاذرُ أن تقعَ في شَرَك أو خطأ... لأن طبيعةَ الحياة حيث تقيمُ تفرضُ نمطاً من العيش يعتادُهُ الطلاّبُ، ويتكيّفونَ معه، فيصعبُ عليهم بالتالي أن يغيّروهُ... همْ يعيشون في مجتمعٍ متقدمٍ، يوفّر كلَّ الراحة والاستقرار، كلُّ شيءٍ طوعُ بَنا نِهِمْ، تُوَفِّرُهُ مقتضياتُ الحضارةِ والمدنيّة حيث لا يعرفونَ حرماناً ولا يشكونَ حاجة، من الكهرباء إلى الماء، إلى التنقّل، والمطاعم والملاهي والنوادي والصبايا، الرخيصات والغاليات أو الغانيات، وكلُّ ما يتطلب الشباب من لهو. ومجون ومفاسد... حتى بات الهربُ من هذا الطوقِ بطولةً.،. والارتفاعُ فوق هذه المغريات يستحقّ التقديرِ... كانَ باستمرارٍ قلبي معكَ، يخافُ أن تشدَّكَ هذه الحياةُ في أميركا، وتبعدَكَ عن طهارة الشرق، وأخلاقيّة الدين، وبراءة الريف، وعفويّة الترابط في بلدك... كنتُ

أحاذرُ أن ترى في حياة الغربِ ما يُنْسيك سحرَ الشوق، رغم أنني واثقٌ أنك متجذّرٌ في البيئة التي نشأتَ فيها، وَوَعَيْتَ الفضائلَ التي تَتَحكّمُ في علاقات أفرادها... وكنتُ كلما بعُدتْ بيننا المسافاتُ أو باعدتْنا الأيامُ يخامِرُني في الداخل قلقٌ مريبٌ ألاّ تفكّر بالعودة، لأنَّ طبيعةَ عملك، وتقدّمَ المجتمع الذي تقيم فيه، يشدّانك إلى حيث أنت... وكنتَ أنتَ بدوركَ في كل يوم يمرّ، تأخذُكَ أكثرَ الحياةُ في أميركا، خاصةً وأن بلدَنا كان في تصدّع مستمرّ، وتفتّتٍ متزايد، وأنتَ ورفاقُك محقّون في بقائكم حيث أنتم عندما ترونَ القنابلَ العشوائيّة والحربَ العبثيّة تحصدان الأبرياءَ، وتلتهمان الحجرَ والبشرَ والأحلامَ والآمال... كان الوطن يموت تدريجياً، وحلمُ العودة يذوبُ كما الشمعةُ يخفُتُ نورُها وهي تتلاشى في مَهَبّ الريح... ولم يكنْ بوسعنا أن نُقْنِعَكمْ بالعودةِ لأننا نحن لم تكنْ لدينا هذه القناعة... كان كلُّ شيء ينبىءُ بعدم الارتياح، واللونُ الرماديُّ الضبابيّ يلفُّ كلَّ ما عندنا... وكانَ في داخلنا صراعٌ بين العقل والقلب... وقلْنا إن قَدَر أولادنا أن يبقوا حيث هم لأنّ عدمَ الاستقرار يقتضي ذلك... وخِفْنا أن تأخذَهُمْ أميركا نهائياً إذا همْ قرروا ذلك أو سرقَتْهُمْ منا واحدةٌ لا يربطُها بنا أي رباط...

وسط هذا القلقِ العاصف، والخوفِ المقيم أشرقَتْ في حياتك رلى، وأعادتْك إلى دورةِ حياتنا، وأيقَظَتْ فِيكَ الشرْقَ الكامن، والحياةَ والخفرَ والروابطَ المزعزعةَ والإيمان والفضائل... كانتْ كالشّمس التي تبدّدُ الضبابَ وتكشَحُ الغيومَ وتبعثُ الدفءَ والحنان... استيقظت فيك وفينا معك كلُّ أحلامنا بالعودة، والغدِ الواعد

والمستقبل الهانىء... وبعثت فيكَ إشراقةً وسعادةً واطمئناناً طالما افتقدناه... لقد قرأتُ كلَّ ذلك في عيونكما، ولَمَسْتُهُ في كلِّ حركةٍ ونبرةٍ... أتعلمُ يا بنيّ أن للعيونِ لغةً لا يمكنُ إخفاؤها... فهي مرآة النفس، وحركةُ الداخل، والحديثُ الصّامتُ عندما تخرسُ الألسنةُ وتسكتُ الشفاه...

أتصدق يا عزيزي أنني ربما كنتُ أكثرَ منك سعادةً واطمئناناً وأنا أراك ثملاً في تصرفاتك تكادُ تطير، وأنت تمشي، وترقصُ وأنت تتحرك، عندما تكون رلى إلى جانبك... هذا النوعُ من الهناء لا يعرفه إلا الوالدان، اللذان يحلمان بالسعادة الغامرة لابنهم أو لابنتهم عندما ترتبط بمن تحبّ...

الحديث شجون يا عزيزي خاصة في عيد العشاق ومع المحبين... والحبُّ طهارةٌ تلفّ النفوسَ وترتفع بها فوق الأدرانِ والشهوات والأحقاد... الحبّ يطلّ في براءة الأطفال، وتفتّح البراعم، وتغريد العصافير وعندما نحبّ تصبحُ الحياةُ أجملَ لأننا نسبغ عليها من ذواتنا. النقاءَ والخيرَ والإشراق...

أنا الآن ـ وأمُّكَ كذلك ـ مطمئنٌ عليك، أشعرُ أن حضناً دافئاً ينتظرك عندما تعود إلى بيتك، وأن لحياتك معنىً لا يدركه إلا مَنْ عاش حياةَ المحبّين... حافظْ يا بنيّ على هذه الزوجة الحبيبة بأهداب العين ونبضات القلب، أرِها أن الحياة تصبحُ أجملَ ولها معنًى عندما يلتقي قلبان على الخير والإخلاص... لتملأَ السّعادةُ كلَّ ركنٍ في بيتكما... وتأكّدْ أن قلوباً هنا في بيتنا وبيتها سترْقُص فرحاً عندما نراكما رافلَيْن بالهناء... ليعرف كلٌّ منكما القيمةَ التي لا تقدَّر التي

يمثّلها الواحد بالنسبة للآخر... وأن العالم كلّه إطارٌ لصورةِ الحبيب. ألم يكن أحدُ الشعراء محقّاً عندما قال:

الكونُ بعينيَ صحراءُ وأنتِ الواحةُ في الصحراء.

... صدقْني أن هذا هو معنى الحياة... وغداً عندما تكتشفان بعضَكما بعضاً، وتفهمان بعضَكما أكثرَ تدركان بعمق كيف أن الأولاد يمكّنون الروابط ويشدّونها، ويعطون لوناً خاصاً للحياة ويُضْفونَ عليها المباهجَ والمسراتِ وتتحققُ بهم الآمالُ والأحلامُ فنحن لكم وعَبْركم حقّقْنا العديدَ من الطموحات ورأيْنا أنفسَنا فيكم ووزّعْنا عليكم قلوبنا وتطلّعاتِنا وكلَّ الجوانب المضيئة في ذواتنا...

كم هو جميل أن يتواصل هذا الحديث معك وأنت على عتبةِ عيد ميلادِك الثلاثين... لِيكُنْ يا حبيبي عمراً هنيئاً ومديداً إلى جانب الحبيبة رلى... أنا - رغم المسافاتِ البعيدةِ التي تفصِلُني عنكُما - أحسُّ أن روحي تُرَفْرِفُ في كلِّ حنايا بيتكما، وقلبي يغمُرُكما بفيْضٍ من الحبّ والحنان... أتَرى معي بأنّ لهذا العيد نكهةً خاصةً مختلفةً عما كان عليه قبلاً؟!... فَلْيَحْرُسِ اللّهُ التي أَضْفَتْ عليه هذا الهناء وليبارك الرحمٰن أيامَكما ولْيبعثْ لكما الأولاد والهناء وراحة البال والصحة والعافية والتوفيق وكلُّ عامٍ وأنتما بخير.

14 شباط 1993

عزيزي علاء

ها أنت في ربيع هذا العام تنتظر مع العزيزة سهى ولدَكما الأول، وتستعدّان هذه الأيام لتأمين مستلزمات القدوم، وتعيشان ونعيش معكما أبهى لحظات الحياة، مع النطفة التي تكتسي عظاماً ولحماً في أجمل تقويم... يا سبحان الله، الخالق المبدع كيف تتكَوَّنُ الأعصابُ والحواسُّ وتنبضُ الحياة في القرار المكين؟! وكيف يتغذّى ويتقلّب في بطن أمه، وترتبط مع كل حركةٍ هذه الصلةُ الفريدةُ بين الأم وجنينها وتنتقلُ إلى الأب عاطفةً وحناناً ورحمةً وغريزةً بقاءٍ واستمرار؟!

ها أنتَ يا علاء تقتربُ أكثرَ من والديْك، وأنتَ على عتبةِ أبوةٍ لا أحلى ولا أجمل... وأنتِ يا سُهى - منذ دَبَّتْ حركة الحياة في الصغيرة - تفهمين أكثرَ أمّك وأباك... حتى لكأنَّ الولدَ لا يعي تماماً ولا يدركُ قيمةَ والديْه إلا بعد أن يصبحَ أباً أو أماً... طالما ردّد ذلك وديع الصافي وهو يُنشد «اليوم صِرْت بيّ يا بيّي»... أتراها غائِيّة الحياة والهدف من حب الاستمرار؟!. البنتُ الصغيرة وهي تلعبُ تبني لنفسها بيتاً وتهزُّ سريراً وتخيطُ أثواباً... والولدُ الصغيرُ يحلم أن يبني مستقبلاً ويحقّقَ لنفسه مركزاً مرموقاً ويصبحَ له أولاد... فبالبنوَّةِ

تتلاشى الأنانيةُ ويتحقق (الإيثار)... يَرضَخُ الأبُ فقط ولا ينزعج عندما يقال له: إن ابنكَ أحسنُ منكَ أو أفضلُ أو أذكى... في هذا الموقع فقط لا تتحرّك الأنانيةُ ويخمدُ الحَسَدُ وترتاح النفس... فعبْر الأبناء يحقّقُ الأهلُ ذَواتَهم، يؤمّنون لهم ما حُرموا منه، ويوفّرون لهم ما كانوا (يتمنّون لو توفر) لهم وهم صغار... فإذا رأوا ثياباً حلوةً تمنّوها لأولادهم، وإذا حلموا بالأجمل فلصغارهم... هم نقطةُ الدائرة ومكانُ التجاذب وهم العالمُ بضيقه أو اتساعه... وهم بالتالي استمرارُ الحياة التي يَودّع عَبْرَ حركتها جيلٌ جيلاً، ويحمل الأبناءُ أسماء الآباء، ويرثون ما يتركونه لهم من ألقاب وأمجاد وكلٍّ غال ونفيس...

أنا أكتبُ لكما أيها الحبيبان ولا يزال صوتُكما يرنّ في أذني وأنتما تعطّران صباحنا يوم الأحد لتعيّدا أمَّكما بعيدها... وتشاء الصدف أن يكون هذا العيد الطيّب يحمل أريجَ عيد العشاق، ونفحة (السان فالنتينو) وتَراحُم الحبّ وسكينةَ الخير والإخلاص والوفاء...

ها أنا أنتقل معكما إلى البيت، وأشعر أن فيه حركةً تُنْذِرُ بالضجيج ثم بخرْبَطة كل ترتيب... القادمةُ الجديدة مع الربيع ستملأ غرفتكما صراخاً أو بكاءً أو مناغاةً أو تغريداً حسب الشبع «والنظافة» وحركة امتلاء البطن... وسوف تناديكما باسمكما، وترفعُ يديها الصغيرتين معبرةً عن فرحها عندما يطلّ أحدكما عليها... وسوف تكسر صحون (السّجائر) وكلَّ أدوات الزينة المبعثرة على (تواليت) أمها أو على كلِّ طاولة تصل إليها يداها... هكذا كنتما وأنتما

صغيران... طالما أتعب كلٌّ منكما أهلَهُ، وطالما بكى وضحك وطَرِبَ وشبع وجاع وتوجع... لَمْ تكبرا بهذه البساطة ولا بهذه السهولة... صوَرُكما ما زالتْ لدينا محفوظةً عَبْرَ المجموعات، أو مُنْطبِعةً في الخيال... وهي تمثّل أجمل الذّكريات وأحلاها أليس كذلك يا علاء؟ فكأنك أمامي وأنت «تشيطن» في الملعب البلدي أو في قبيع أو في بيت جدك في بيروت أو في بنت جبيل أو في الأنطونية وفي كل مكان دَرَجْتَ فيه ولعبْتَ وتعبتَ وأتعبت... هكذا الحياةُ يا ولدي تنتقل وتتكرّرُ عَبْر الأجيال... ها أنا اليومَ غيري بالأمس، ابيضَّ شعري ومالتْ شمسي وعراني الذبولُ، وأصبحتِ الحياةُ ذكرياتٍ أكثرَ ممّا هي تطلعاتِ أرى الشروق فيكم، حيث تتفتّحُ البراعمُ، وتطلُّ الأفواجُ المبشّرة بالربيع الزاهر...

يا ولدي ليس في الدنيا أجملُ من الطفولة، الطفولةِ في كل شيء... راقب براءة الهررة الصغيرة، أو العصافير الصغيرة، أو حتى طفولة الحيوانات المفترسة... الطفولة هذه لا تعرف الاعتداء ولا الحسد ولا الخصومات... تبدأ المشاكلُ عندما تتوارى الطفولةُ أو تنسحبُ لتتركَ المكانَ للشباب العنيف المغرور... أمام الطفولةِ وبراءتها قد ينكسر العنفُ والتوحّشُ... ألم تحدِّثْنا الأساطيرُ أن الذئبةَ أرضعت طفليْن في روما؟! وأن الغزالة أرضعتْ حيّ بن يقظان، وأن جنكيزخان رضخ أمام الأم التي أضاعت طفلها وجاءت تطالبه به في غمرة اجتياحه لبلادها، ولم يهدأ حتى أعاده لها بعد أن أَجْبَرَ قادَتَهُ على بذل جهودهم لإعادته سالماً؟

غداً يا ولدي سترى في بيتك نَمَطاً جديداً من العيش... ستركض من عملك إلى البيت لترى «ريا»[1] أو «سنى» حسبما تختارُ لها اسماً وستنسى الدنيا عندما تحملُها بين يديك... وعندها ستدركُ أن أباً قد حملَكَ على هذا النحو، كما ستدرك أن أماً حملَتْها وقاسَتْ وتحمّلَتِ الكثيرَ حتى صارتْ كما هي اليوم... ونحن هنا في بيتنا نحلم - وسوف نعد أنفسنا - بأحفادٍ قادمين ليغيّروا بعضَ الرتابة ويملأوا البيتَ ضجةً وحركةً و«شيطنة»!... ويا سهى... أيتها العزيزة... وأنا أكتب الآن... قبالتي أم فادي تحيك كنزةً صغيرةً، وتقبّلها بين الحين والآخر... لكأنَّها رسالةٌ من النفس إلى النفس... تحيك اليوم كما حاكت أمس للأب الذي تقول عنه: «فَشَرْ الأمير: أندرو»... ولأيام خلت جاءت أمُّكِ وجدّتُكِ وبعضُ أهلك ليحققوا نذراً عزيزاً وليجتمعوا حولَ «مولد» أجادَتْ وبَرَعَتْ فيه جدّتُكِ حتى «طرِبْنا» وانتشيْنا بصوتها الرخيم؟! (وعَقْبَال) مولد آخرَ وموالد تكثرُ مع الولادات والأحفادِ القادمين...

الجلسةُ تحلو معكما أيها الحبيبان، لكنَّ رنا تقطعُ عليّ هذا الجوَّ الحالم وهي تدعوني للغداء، وصوتُ أمّ فادي ينادي من بعيد «بَرَد الأكل» ولا يسعُني إلا أن أقولَ لكما إلى لقاء قريب مع الآتي باسم الرب أو القادمة مع براعم الربيع وتفتّح الحياة،...

الأحد في 15 شباط 1992

---

(1) أسمياها: (سيما لِيَن) وقد تخرّجت منذ أيام بتفوّق من المرحلة الثانوية.

عزيزتي لمى...

أنا حزين حتى الموت، أكاد أشعر أنني أذوب دموعاً تحرق أجفاني وأن نفسي استحالتْ رقيقةً شفّافةً تظلّل أوجاعَ قلبي الكسير... ها أنا الآن أسيرُ عاطفةٍ جامحةٍ، وحسٍ مرهف، أختنقُ بكلامي، وأشرقُ بأفكاري... تكويني دموعي، وأغصّ حتى بالإجابة، وردّ التحية...

في داخلي نجاوى صاخبةٌ، وضوضاءُ همسات، وحوارٌ ساخن بين تداعي الذكريات، وأحاديثِ السكون... ها أنتِ يا ابنتي معي في الخلجة والنّبضة، في هَدْأة التذكّر، وجموحِ الحنان... أيَّ مكانٍ لم تعبريه إلاّ ونثرتِ فوقَهُ حلاوةً وحبوراً، وأيَّ ركنٍ لامَسْتِهِ، إلاّ ونثرتِ فيه من دنياك ألقاً وفرحاً... أكاد الآن أشمّ حلو عطرها، وألامسُ جمالَ دنياها... إنه شذىً موصولٌ في البعد الذي تحلّين فيه، وعبيرٌ مشدودٌ إلى الركن الذي فيه تقيمين...

أتعلمين يا غاليتي أنّك تحتلّين قلوبنا حتى أعماق المهجة، وتختالين أمام عيوننا وأنت في سواد أحداقها، وأن كلَّ زوايا البيت وأركانه تحمل منك ألف لفتةٍ، وكلَّ الخواطر البهيجة. وحبورَ الحياة وصخبَ الفرح... لكنه ـ لو تدرين ـ فرحٌ مسافر ترك لنا بعض العبق،

وراح معك إلى البعيد البعيد، فأصبح فرحاً موجعاً، فيه ملح الدموع ورنّات من الأسى المؤلم... هل سمعت يا عزيزتي بهذا الفرح الغريب... الذي يربط بين الأهل الموزّعين في زوايا الأرض... وقد اغترب أولادهم بحثاً عن العلم، أو هرباً من طواحين الحرب في شوارع بيروت أو حولها ولا ندري إذا كان لهم أمل في التلاقي أو في جمع الشتات!!!

ها أنت يا حلوتي معي تبدين لا أحلى أمام عيني الدامعتين وأنا أجلس معك لأتحدث إليك... لا...، عفواً فأنت معي في ضوء العين، ونبضة القلب... ونجوى النفس...

أنت عندما قررت أن تسافري تركت عندنا فيضاً من تداعي الذكريات، وهمس الحكايا... كلُّ ما في البيت يناديك، أيَّ مكان لم تتركي لنا فيه نداء! وأيَّ زاوية لم تخبّئي فيها من عطرك، أو ضحكاتك، أو أنسك أو أناقتك الزائدة؟... أنتِ أردتِ أن تبقي لنا عالماً يَمورُ بكل نداءات الأنس والألم، والفرح والوجع والضحك ورقة المشاعر الدامعة...

أنت أردت أن تسافري... وعن وعي أو لا وعي مشيتُ معك إلى حيث تريدين... من البيت، إلى عمّان إلى فندق الملكة عالية، إلى أمستردام، إلى نيويورك، وكانت رحلةً قصيرة، مختصرة... وهربْتِ مني بعدها بسرعة البرق وأحسسْتُ أنك تبعدين عني، وأن قلبي مسافر إلى حيث تقيمين... وأن نفسي ترفرف حيث أنت تتحركين، أو تدرسين، حتى لكأنّ أحلى ما في عمري من خيالات وأحلام يُختصر فيك أنت بالذات... أتدرين أنني أيتها الغالية أهرب

من التحدث إليك. حتى في الخيال... وأرى أنني ضعيف أمام جموح عاطفتي فأصبح أباً بدل أن أكون رجلاً، وأحبّ ألا تتراكضَ دموعي، لكنها في هذا الموقف تجعلني مرهف الإحساس، رقيقَ الشعور، وتخفف من وجع الفراق... هكذا أردتِ أيتها الحبيبة الغالية، وأردتُ بالنتيجة أن أحقّق لك ما تريدين... أتعلمين أن غُرْبتك أنتِ بالذات أنستْني غربةَ أخويك، وأصبحتِ أنت نقطة الدائرة، وكلّ «شغل البال» حتى أحس أنك مرتاحة، تبنين غداً حلواً، وتحققين أملاً موعوداً... ثقي يا حلوتي أنني لن أدّخر جهداً حتى يكون لك ما تريدين... أكاد أسمعك تنادينني باستمرار... ها هو صوتك يتماوج في مسمعي، وها أنت تخطرين في بالي بإطلالتك الحلوة وقامتك الهيفاء... سعادتي يا عزيزتي أن أراك فرحة، جذلى وقد حققتِ ذاتك، ولم يقصّر معك والدك... وغداً عندما تعودين مع الفرح المسافر، والوعد الجميل، نتمنى أن يرجع معك إلى بيتنا الهناء والأمان والاطمئنان، والأحلام المرصودة، وكل عوالم السعادة المملوءة بالمسرات... وبانتظار ذلك، أنا أمنّي نفسي بعودةٍ إلى حيث أنت، وأخواك، لأحسّ أن قلبي عاد إليّ... وعلى هذا الأمل، أنام وأصحو علّنا نجتمع معاً، رغم أن الزمن يهرب منا، وأن الصغار أصبحوا كباراً... لكنهم وباستمرار وفي نظر الوالدين يبقون صغاراً، تحرسهم العين ويحضنهم القلب... وبانتظار أن أضمّك طويلاً طويلاً إلى صدري، لك مني كل المحبة والحنان.

الاحد في 8 تشرين الاول 1988

ابنتي الحبيبة لمى

رسالة ثانية بمناسبة رأس السنة

... اليوم الأحد هو آخرُ أيامِ السنة، ونهارُ عطلةٍ لا يعمل فيه الناس، ومن الطبيعي أن يخلُدوا للراحة، بعد أسبوعٍ من العناء الطويل، والتعب المضني، لكنّهم - خلافاً لعادتهم - لم يناموا طويلاً ويهدأوا، بل راحوا يستعدّون لوداع عامهم المسافر، أو بالأحرى لاستقبال سنتهم القادمة، إذ لا فرق في مقياس الزمن لأنّ ميقاتَ الرحيل هو نفسُه ميقاتُ القدوم، ففي اللحظة نفسها التي تُغلقُ السنةُ المنصرمةُ وراءها بابَ الماضي ينفتح الزمنُ للعام الجديد، وتزيد الأعوامُ وحدةً تضاف إلى ما انصرم منها حتى هذا اليوم المفْصَل...

نهارُ العطلة هذا يا بنيّتي ازدحم بالحركةِ والمشاريعِ والأحلامِ... كلُّ المحلاّت فتحتْ أبوابها باكراً وتلألأتْ فيها الأضواء... أليس غريباً أن يعملَ الناسُ راضين وقت الراحة؟! ويتسابقوا لتأمين متطلّباتهم وهم يلهثون مرتاحين!!... كأنّهم يتراكضون ليستبدلوا تعب النهار براحةِ الليل، الذي وعدوا أنفسهم بتكريسه ليلاً مشحوناً بالأنس الغامر، ملوّناً بالأحلام المجنّحة، رافلاً

بالهناء المقيم، ليلاً دائرياً موصولاً، قد تعرفين بدايتَهُ إلا أنك لا تحبّين أن تري له نهايةً لأنه يحمل في حناياه عبق ذكرياتِ المسافر، وندى أطياب الزائر الجديد، المثقلةِ سِلالُهُ بكلِّ وعدٍ مرصود!!.

... أمام دكان بائع الزهور يا بنيّتي أرْتالٌ من الناس، يلوحُ أمامي شعرُهم الأبيضُ والأسودُ والأشقرُ والمصبوغ... ويداعب الهواءُ مناديل بعضهنّ والشعورَ الطويلة؛ والكُلُّ يختارُ باقاتِ الهوى، ويضفُرُ معها الأحلام والأماني...

... أتصدّقينَ يا عزيزتي أنّ الأطفال باتوا يدركون بعضَ معاني العيد؟! ربما يشمّون فيه روائح أطياب الطعام والحلوى... أو يتصوّرون أنفسَهم يرفلون في ثيابٍ مزركشةٍ وأحذيةٍ جديدة، أو يتلهّون ببعض المفرقعات!! أما الكبار فقد حلموا بليلٍ شهيٍّ تمنّوا إلا يكون له آخر... وأعدّوا له ما يتطلّب، وخطفوا ألوانَ قوسِ قزح ليزركشوه... كدّسوا أحلامهم ليصلوا ما بين العامين بحيث تندغمُ - مع دقات منتصف الليل - مشاعرُ الوداع بأمنياتِ الاستقبال... هذا المُنْعَطَفُ الدقيقُ بين العامين ألا يذكّرُكِ بالمواطنينَ وهم يقفون مشدوهين عندما يموتُ ملكٌ ويتوّجُ وليُّ عهده على العرش - وهو عادةً ابنُه - فأيُ مشاعرَ تنتابُه وتنتابُ الرعيةَ، وجثمانُ الملك الراحل لا يزال مسجّى وطرياً لمّا تفارقْهُ بَعْدُ آخرُ خلجات الحياة؟!! ألا يتقاطعُ الأسى مع الفرح؟ والأماني مع الحسرات؟ ألا نفقدُ التمييز بين نوع الدموع المسفوحة، ونحارُ عما إذا كانت تعبّر عن حزنٍ دفينٍ أم عن سعادة تتوالد...!

... ومع دقات الساعةِ والأجراسِ وأصواتِ الرصاص، واختلاطِ العتمة بالنور، ووسط الهياج والصياح وَصَلَ القادمُ الجديد، وَصَلَ مع ضجيج الموسيقى، وروائح المشروبات وتصادم الكؤوس وتبادل القبلات البريئة والمشبوهة... أقبل يرفلُ مختالاً وسط موكبٍ لا نظامَ فيه ولا انضباط، جنودُهُ سكارى، وجمهورُه مخمور، والكلُّ يغنّي ويترنّح ويصيحُ في صخب لا ينتهي.

... الكبارُ نَسُوا أو كادوا وقارَهم، والشبابُ والصبايا والأطفالُ والأولادُ يتمايلون ويرقصون وينشدون،.. يحقّ لهم كُلُّهم أن ينسُوا ولو للحظة أنّ في الحياة هموماً وأوجاعاً وأحزاناً ينطفىء من لظاها بريقُ العيون، ويتقلّصُ من أساها حتى قلبُ الصغير الطريّ...

أتدرين يا بنيّتي أن العامَ الرّاحل رغم سفره ما زال مقيماً معنا، قابعاً في خفايانا، لقد زاد في أعمارِ كلِّ الناس وحدةً أُضِيفَت إلى أعمارهم، فكبروا جميعاً وحملوا من بقاياه أفراحاً وأحزاناً، ففيه رحل أحبابٌ كثيرون، وقدِم أحبابٌ كثيرون، تَشَتَّتَتْ أسرٌ، وتلاقت أسرٌ أخرى، سافر أعزّاء وباعدتْ بينهم المسافات، وتلاقى مُحِبُّون، وعاش آخرون وما يزالون على أمل اللقاء!!.

... أنا الآن ومع إشراقة الفجر الجديد، بعد أن هدأ الصخبُ، وخفتَ الضجيجُ، وتَعِبَ السكارى والصاحون، أنا الآن يا بنيّتي أجلسُ معك أمام مكتبكِ بالذات، صورتُك -قبالةَ عينيّ- وملءُ ناظريّ، أخاطبُكِ على الورق وأناجيكِ عبرَ القلب، وفي مقلتيّ دمعة حائرةٌ تمنعُني من جلاء النظرة، فلا تَبرَحُ ولا تَكرُج، وتُسْعفُها أخرى

فأحسُّ بطعمها المالح في فمي، ثم تغطّي الزجاجَ الذي ترتاحُ صورتُك ضاحكةً تحته... ها أنتِ معي في النبضةِ والخلجة، ورفّةِ الجفنِ وارتعاشِه، ها أنتِ معي في تراقُصِ الرؤى والأحلام، تبتسمينَ أمامي، فلماذا يُسابقني الدمع؟... ها أنتِ في الحنايا مع أختكِ وإخوانك المسافرين أحدّثُكم، أناجيكم، أسهر معكم... كُلّكم ضاحكون، تبتسمون، أكاد أسمع أصواتكم... صدقيني أنها ترنّ في أذنيّ، تختلطُ وتتمازجُ، أحبّ أن أحضنها وأتدفأ على نغماتها. أو أتَشَبَّثَ بها حتى لا تهرب، ها أنا أبسط يديّ لأضمَّكم إلى قلبي!! هل تُحْضَنُ الصورُ يا عزيزتي؟ ها أنا أشدّ عليها بقساوةٍ وعطفٍ ولين، وأتصوّر أن ثلوج أميركا كلّها لن تقوى على تبريد مشاعري الملتهبة، أو شوقي المجنّح... أنا أتمنى أن تطولَ هذه الجلسةُ الهانئة، وألاّ يُعكِّرَها صوت... أَتُصَدِّقين أن صوتَ المؤذّن وهو يَصْرُخ باكراً ـ رغم هدأة إيماني. لم ينتشلْني من هذه الخلوة الحُلوة التي حشرتُ فيها نفسي معكم؟!.

... جميلةٌ هذه المُسامَراتُ الصامتة!!. وها أنا أعودُ من جديد لأتنقّلَ بين صُوَرِكم، وأسافرَ بين بسماتكم، وأحلمَ عبر نظراتكم ثم لأغيبَ كما الصوفيّ في سعادة ليس لها آخر... يا بنيّتي... أنا أحارُ مَنْ أخاطبُ منكم، ومَنْ احتكر؟ ومع مَنْ اختلي؟! بعضي يناجي بعضي، وقلبي يحضنُ قلبي؟ وكلّي مكوّر على ذاتي، فأنتم، أنتم معي في كل دقّة قلب، ورفّة جفن، واختلاجة عاطفة... أنا يا عزيزتي أعيش معكم على الذّكريات، أتنقل عَبْرَها بين طفولتكم ويَفَاعِكم، بين

شبابكم والصِّبا الواعد... أراكمْ وأحسّكُمْ، وأكاد أسمعكم... أتصوّركم تدرجون في زوايا البيت، وتتنقّلون في جنباته، تملأونه صخباً وضجيجاً... وتضفون على كل زاوية حركةً وحياة...

... أتصدّقين يا بنيّتي أن كثيراً من الماضي لا يَبْرَحُ ولا يُنسى، يتجذَّرُ في أعماق الذات.

يا عزيزتي لمى... إن بعضَ الذكريات أحلى ما في العمر، هي صفحاتُ الماضي المشرقةُ التي لا يقوى عليها النسيان... أنا أنعم بحلاوةِ تَذَكُّرِها، أَرْتاحُ وأسعدُ باسترجاعها... إن بعضَ الماضي لا يمكن أن يتكرَّرَ في المستقبل، وها هو الزمن يهرب منا مسرعاً باستمرار ونحن نلهثُ وراء حلاوته أو وراء أحلامنا الضائعة!!

في أول يوم من العام الجديد. أراني أُلملمُ ذكرياتي وأضفرُ من رؤاها باقةً نديةً أحملُها لكِ ولأختكِ وإخوانك في بلاد الاغتراب، راجياً لكل بعيدٍ أن يؤوب.

يا عزيزتي... لقد آن أن تعودَ للبيت الصامتِ ضوضاءُ الحياة، وآن لهذا السفر الطويل أن ينتهي... وللمسافرِ المتعب أن يرتاح... كما آن للأبِ المنتظر على سعير الشوق والحالم بعودة أبنائه أن يحقّقَ بعضاً من أُمْنياته بحلاوة اللقاء...

اول كانون الثاني 1991

حبيبتي لينا

هي الساعة التاسعة مساءً من يوم الأربعاء السادس عشر من تموز، وأنا وحدي في الطابق العلوي في بحمدون وقد سكن كلُّ شيء، وخمدت الحركة، فالوقتُ منتصفُ الليل، والقمرُ بدرٌ متربعٌ في كبد السماء ينشرُ أشعتَهُ البيضاء يضيءُ دنيانا، ويبعث فيها السكينة، ويغري الناس أن يتسامروا ويسهروا ويتنزهوا ويكتنزوا الفرح والسرور...

أنا غارق في هذأةٍ مريحة، أكاد لا أسمع إلا صدى بعيدٍ لنباح كلب يشكو جَوْرَ صاحبه الذي ربطه ومَنَعَ عليه حرية الحركة في كرومه الواسعة... وقريباً مني في الطابق الأرضي أمك وأمها مع خالتك يتابعن مسلسلاً عن «أبناء القهر» يختصر مأساة العائلة التي تفتقد تفاهم الأم والأب وتدفع بالتالي ثمن هذا الخصام،.. فالأنانية المتبادلة تؤدّي إلى تفتيت الأسرة ودمار البيت - وبالرغم من الأداء الشيّق للمسلسل، فضّلْتُ مختاراً أن أستأثر بجلسةٍ حميمة معك تعيدني إلى أيامٍ رَحَلَتْ وأخذتْ معها كمّاً من الهناء، وذكرياتٍ حلوةً تضيء خاطري، وتكوّن دنياي، وتبعث في نفسي أطياباً من العبق، ونفحاتٍ

من العطر... ويأخذني دُوارٌ محبَّبٌ وأتصوركم جميعاً بجانبي مأخوذين بفرح أبنائكم وبناتكم وهم يلعبون ويركضون ويتخاصمون ويتصالحون، ويضحكون ويبكون، وينقسمون فئاتٍ ومجموعاتٍ ثم يتوحّدون في لعبهم أو في مشوارٍ عزيزٍ إليهم، ويجرّوننا خلفهم إلى حيث يريدون... هكذا كان صَيْفُنا المنصرم، غنياً، مليئاً، حافلاً، حلواً، متعباً، مريحاً... على عكس صيفنا الهادىء، الحزين، الصامت المملّ، الذي يستثير الذكرياتِ ويحرّك الأوجاعَ، ويهيج الأحاسيس...

أنا أحببت أن أسهر معك، ولم أقصدْ أن أفتحَ قلبي وأكشفَ ألمي، لئلّا أثيرَ لديك مثلَ ما لديّ من مشاعر، لكنّ كل ما حولي يوحي ويذكّر، هي الأمكنة تنادي، والزوايا تموج، تستولد الأحداث ونحن نعطيها ونسبغُ عليها من ذواتنا... أتصدّقين أن (داني) لم يعد يحب بحمدون، ولم تعد تفتح شهيّته على ارتيادها... أمس قال لي: مع مَنْ ألعب؟ (جادو). ليس هنا ولا أسيل ولا (حَدَنْ)... هو بحاجةٍ إلى الرفيق في المكان الذي ذكّرهُ به أو أثار أحداث ماضية!!

المسلسل الذي تتابعه أمُّكِ أشرفَ على نهاية الفترة المحددة له... وأنا موجعٌ لأن سهرتي معك لم تطل... والكتابة غَدَتْ ترفاً بعد أن سرق وهجها «التلفون»، أصبحت المراسلةُ (موضةً) عتيقةً، إلا إذا كانت سريعة عَبْرَ الأنترنيت وفي زمن السرعة والتواصل الآلي في اللحظة نفسها.

القمر ما زال في كبد السماء، حوله غلالةٌ من الغيم المضيء،

وفي السماء نجوم تتغامز وتتسامر، والصمت يلف دُنْيايَ... وأنا يُضيء نفسي بدرٌ ينثر في جنباتها السلامَ والسكينةَ والأمان، ويَتَجاوَبُ في مسمعي صوت رخيم. مُحبّب ويخطرُ أمام عينيّ طيفٌ ملائكيٌّ، وأمعن النظر وقد غشَّتْ عينيّ دمعتان رقيقتان، فأرى وأسمع وأحسّ أنك تخطرين أمامي وتنادينني وتطبعين على وجهي قبلةً نديةً وأمدّ يديّ بشوقٍ وحنان لآخذَك إلى قلبي وأحضنَك، فلا أجدُ إلا سراباً، سراباً يهرب من يديّ إلى عينيّ، إلى قلبي... فأغمضُ عينيّ على الدمعتين، وأطبقُ قلبي على السراب الهارب، وأراك... قامةً هيفاء، ووجهاً ملائكيّاً، تستقرّين في مهجتي وترتاحين بين ضوء العينين وسويداء القلب.

بحمدون في 2003/7/16

أخي الحبيب أبا علي

رسالة إلى شقيقي محمد الذي هاجر - إلى ديترويت - مع أسرته في أواسط الثمانينيّات

أنا بشوقٍ زائدٍ إليك، أحببتُ هذه الليلةَ أن أسهرَ معك، وأفتحَ لك قلبي، وأنتَ تعلمُ تماماً أنكَ في مُهْجَتِهِ، كما أنّكَ تُطلُّ مع هذه الحروف من عينيّ رغم غشاوةِ الدمع الذي يملأُ المآقي وأنا أتحدّثُ إليك... أوَلَسْتَ جزءاً من كياني، وبعضاً من حياتي، وفصلاً متّصلاً من عمري... ربّما كنتَ تذكرُ أو لا تذكرُ عندما كنتَ صغيراً - وأنا الأكبرُ بينكم - كَمْ لاعبْتُكَ وداعبْتُكَ وأضْحَكْتُكَ وأبكيْتُكَ... وكَمْ رتَّبْتُ شعرَكَ وألبَسْتُكَ أزهى ثيابك وأخَذْتُكَ معي إلى «الكرم» أو إلى بيتِ الجدّ، أو إلى حيث كنّا نلعبُ ونرتاحُ ونطمئنّ... حتى إذا كبرتُ وكبرتَ معي أدركتُ أنا - كما أدركتَ أنت - أننا كلٌّ لا ينفصلُ، وأن بيتَ أحدنا مهما صغر يتّسع للكلّ، وأن موقعَ أيٍّ منّا هو لجميع الأخوة، فلا نذكر اسم الواحد حتى تردَ أسماءُ الآخرين حتى كأننا حلقةٌ متصلةٌ متماسكةٌ تبدأ من الكبير حتى الصغيرة... هذه الصغيرة

التي أضحتِ اليوم كبيرة... وأصبحَ الجميعُ آباءً وأمهاتٍ... والأيامُ باعَدَتْ بين الأهل وفرَّقَتْ بين الأخوة فانتشرْنا في أماكنَ نائيةٍ وتَوزَّعَ أولادُنا حيث شاءتْ لهم الأقدارُ، كما توزعتْ قلوبُنا في كلِّ منحًى أو زاويةٍ يكافحُ فيها أيٌّ منّا، لقد حمل كلٌّ فردٍ من أسرتنا ذكرياتٍ حلوةً ومُرَّةً، وقصصاً هي تاريخُ عُمره، يأنسُ إليها إذا خلا إلى نفسه، يرى فيها شبَابَهُ الراحلَ، وأيامَهُ الجميلة... يسافرُ عَبْرها في ماضيه ليجدَ أنها الحُلُمُ الذي لن يعودَ، والرؤيةُ أو المنام الذي مرّ مرور السحاب... صدّقْني يا أخي أن مأساةَ الإنسان تتلخّصُ في سرعةِ الأيام وهي تطوي عُمْرَه. فلا يكادُ يحسّ بحلاوةِ الطفولة حتى يَجِدَ نفسَه وقد أصبحَ شاباً، مليئاً بالقوة والعزم والتصميم والرجولة والطموح القادم، ولا يفيقُ من هذه الآمال العريضة حتى يجدَ نفسَه وقد غدا أبيضَ الشعر، ضعيفَ النظرَ، هزيلَ البُنية، خائرَ القوى... ويستفيقُ مع ابن الرومي وهو يرثي نَفْسَهُ وقد فَقَدَ الشباب والصِّبا ولم يجدْ واحداً من الناس يعزّيهِ بهذه الخسارة... هكذا يركضُ العمرُ بنا ونحن نرتعدُ عندما نلتفتُ لنرى أننا أصبحْنا كهولاً، وأن قطارَ الزمن يوصلُنا بسرعةٍ إلى المحطات المرسومة...

ما كان أحلى طفولَتنا وشبابَنا يا أبا علي... كنّا في بلدنا نكتفي بمشوار على طريق العيْن، وبسهرةٍ في البيت على ضوء السّراج، وبالقفز على الفراش قبل النوم... كان سوقُ الخميس أكبرَ المواسم، وكانت «النزهةُ» مع المدرسة أحلى الأماني... كانتْ «شلعبون» آخرَ الدنيا، وكانتْ أَكْلَةُ (الفقّوس) عصراً مع «التمشاية» لها طعمٌ فريد...

كنّا نتحلّى بقطعة مشبّك أو نمورة ونكتفي بصبّاط «نص نعل»... كنا نقنعُ «بخرجيّةٍ» مرةً في الأسبوع... كانتْ قناعتُنا هذه حلوةً لا تعرفُ الطمعَ ولا المتطلّبات... كنا رغم ذلك تَغْمُرُنا سعادةٌ لا توصف... أتُرانا نحن المساكين أم أولادُنا الذين غَزَتْهم السياراتُ والطائراتُ والتلفزيوناتُ وكلُّ مخترعاتِ الكهرباء... فلم يعدْ في حياتهم معنًى لمشوار على طريق العين، أو لنزهةِ المدرسة، أو لمسحّراتي رمضان أو لمظاهرةٍ ليليةٍ عند خسوف القمر... أولادُنا لا يكادون يعرفون صداقةَ الطبيعة وَرِفْقَةَ العَصافير... لقد حلّت البندقيةُ مكان الفخّ والدّبق... والسيارةُ مكان الحمار؛ وسرق التلفزيونُ كلَّ حلاوات السهرات واستعْبَدَهُمْ؛ أصبحوا يحلمون بالسفر البعيد في الطائرات، وتبدَّلَتِ العلاقاتُ ـ كلُّ العلاقات ـ وتَبَخّرَ الحياءُ والخَفَرُ وقلّ الدين...

أنا يا أخي أشتاقُ لهذا الماضي الذي سافَرَ مع عمرِنا الراكضِ سريعاً... أشتاقُ للطفولةِ التي غَدَتْ ذكرياتٍ غائرةً في أيامنا، أشتاقُ مِثْلكَ إلى بلدي، إلى رائحة ترابها، وغبارِ شوارعها... إلى إطلالةِ قمرها، وزقزقةِ عصافيرها... صدّقْني يا أخي أن للأرضِ نداءً، وأن حبَّ الوطن هو الوجع المقيم... نحن هنا لا يمكنُنا أن نذهب إليها عندما نريد، وفي الوقت الذي نريد... نحنُ محكومونَ بطبيعةِ الأحداث ومزاجيّةِ الحاجز، ومخاطر الطريق... ونحسّ أنَّ شوقاً عارماً يزدادُ كلَّ يوم، ينادينا إلى الأرض التي اشتاقَتْ إلينا كما اشتَقْنا إليها... أتصدّقُ يا أبا علي بأنني أحلمُ باليوم الذي نستطيع فيه بكلِّ

حرية أن نزورَ متى أردْنا ترابَ أرضنا، ونتنشّقَ هواءها ونشربَ ماءها، ونسهر في أحضانها، نسامرُ قمَرها، نسمعُ أذانَ المؤذّن ودعاءَ رمضان والبلاغاتِ الصادرةَ من مئذنة الجامع... أحلمُ أن تعود أنتَ وأعودَ أنا إلى مرابع الطفولة لنعيشَ معاً نجدّدُ أزهى الأيام وأحلى الأماني... أتراني أطلبُ المستحيل أم أن القَدَر الذي باعَدَ بيننا يخبىءُ لنا مفاجآتٍ حلوةً ليعيدَنا إلى بلدنا وأهلنا ونعيشَ سوياً أياماً طالما حلمنا أن نَرْفُلَ بجمالاتها...

أنت يا أخي قطعةٌ مني، يوجعُني بُعْدُكَ، ويؤلمُني ما تعاني من ألمِ جسدي وعذابِ نفسي... ومهما قلتُ لك فإنّ في داخلي وجعاً كبيراً يزيد معاناة هذه الغربة المفروضة!! أتُرى يسمحُ لنا الزمانُ أن نُعيدَ ما كنا عليه في مطلع أيامنا، نتلاقى ونتشاكى، نفرح ونتألم، نبتعدُ ونقتربُ، نجتمعُ على الأقلّ كلَّ أسبوعٍ أو كلَّ عيدٍ أو عندما تفرض المناسبات..

يا أخي البعيد القريب...

هذا قلبي معك عَبْر هذه الحروف، هذه يدي تمتدُّ نحوك تصافحُك رغم المسافات، كلُّ كلمةٍ قُبْلَةٌ على وجنتيْك وكلُّ دمعةٍ رسالةٌ تقول لك والله اشتقنا يا أبا علي أيها الأخ الحبيب...

1989

رسائل إلى بنت جبيل

القرية.. ومرآة الطفولة*

... وأنا كلما ابتعدتُ عن بلدتي، اقترَبَتْ هي مني... وكلّما غبتُ عنها أضحى وجودُها نابضاً في ذاتي... لأكادُ أشعرُ بها أنَّى اتجهتُ وحيثما سرت... تأكلُ معي في صحني، تشاركُني خلواتي، تنادمُني في سهراتي.. تلاحقني كظلّي... أحسّ حرَّ أنفاسها على وجهي... وفي كلِّ مساءٍ تنام معي على مخدتي...

أتدرون حرقة الشوق ولظى البعاد؟! في داخلي يتأجج هذا الحبُّ المتعب... لكنني أرتاح له وأتقلّبُ على وَهْجِهِ، ففيه معنى لا يفهمه إلا المحبون! ونكهةٌ خاصةٌ تميّزهُ عن أي حب آخر!! أليس حبُّ التراب هو الأعمق والأبقى؟ ألا يمثّلُ انشداد الذات إلى جذورِها في أرض المولد ومراتع الطفولة؟!

بالأمس عُدْتُ مأخوذاً إلى بلدتي، أبحثُ عن طفولتي فيها وطفولتها فيَّ... كانت أحلامي تسبقُني، وخيالاتي تتراكضُ أمامي... عبثاً حاولتُ إمساكها، جريْتُ لاهثاً وراءها... فَأتعبَني

(*) نشرت في جريدة السفير في 27/ 1/ 1985.

السّيرُ وبرّحني البعد... حتى لكأنَّ رجليّ ما عادتا مني.. ولا عاد قلبي يحتملُ لذَّةَ اللقاء!!

فتّشْتُ عن طفولتي في بلدتي، فما وجدتها!! بحثْتُ عن الطفل الصغير في الكرم وحاكورة «نص الضيعة» ودرب العين و«شلعبون» وتحت «اللكس» فلم أعثر له على أثر، وحسبتُ أنه في لعبة «الغمّيضة» اختفى عند «الحوّارة» أو في خلّة عيسى أو في الوادي.. ففتحتُ عيني وشدَدْتُ على جفونهما وعركْتُهما فلم أكتشفْ له مخبأ حتى على بيادر «صف الهواء» أو على أيِّ بيدر آخر!!

كِدْتُ أختنقُ بنَفَسي!! وأشرقُ بريقي.. ركضتُ ملهوفاً إلى هذه المرابع، فما عَرَفَتْني الطرقُ، ولا عَرَفْتُ أنا المعالم... لقد غيَّرتْ هندامَها ولبستْ أثوابَها الجديدة... غَزَتْها مدنَيّةُ الباطون والزفت...!! الكروم ما عادت كروماً.!. والدروبُ غيرُها بالأمس، والعصافيرُ هاجرت.. وحاكورة «نص الضيعة» فَقَدَتْ حفْلاتها ودبْكاتِها وناسَها، ودربُ العين هجرتْه الصبايا اللواتي كَسَرْنَ جرارهن!! أتدرون لماذا؟ إن مواسيرَ المياه التي غَزَتِ البيوت سَرَقَتْ مواعيدَ الشباب وأحلامَ الصبايا، فانتحرتْ جرارُهُنَّ حزناً من المدنيّة القادمة!!

أما «شلعبون» فقد يبسَتْ أزهارُها بَعْدَنا وماتت... فالمدارس ألْغَتِ النزهات، واغتالتْ أصواتَ التلاميذِ العائدين مع بقايا زوّاداتهم، وروائح البيض المسلوق و«الزعتر» البري والأحلام البريئة!! حتى النُّور ما عاد يشع تحت «اللكس» ولا عاد الضّجيجُ يتعالى عند السرايا، أو تتجاوَبُ النداءات المتداخلةُ المتشابكةُ بين عرائش سوق الخميس أو في ساحة البلدة!!

هل تتصورون معي كم كانت جميلةً طفولةُ بلدتي؟!

كان صوتُ «الأخرس» يوقظُنا في رمضان!! وكانتِ القناديلُ تضيءُ أزقّتَها المظلمة! كنا نحملُ أكياسَنا ننتظرُ الأذانَ لنفطرَ بعد عناء الصيام... كنا ننسى أثناءَ النهار صيامَنا، فنشربُ أو نأكلُ حبّةَ تين، ونحتَفِظُ بالسرّ.. ونبقى صائمين!!

كنا نصطاد العصافيرَ برحمة، فالدّبقُ ليس له وحشيّةُ البارود... وليس للفخّ قساوةُ المتفجرات!! أما العصيُّ والأغصانُ فكانتْ خيولَنا، نركبُ عليها، ونتسابقُ!! والسعيدُ المحظوظُ من كانَ يركبُ حماراً حقيقياً ليسقيَه من ماء البركة!!

كنا لا ننام ليلة العيد، نحلمُ بالقميص الجديد، والبنطلون الجديدِ والصّباط «بنصّ نعل» وببضعة قروش تنتفخُ بها جيوبُنا على غير عادة...

كانت طفُولتنا في قرانا مترابطةً ومتشابكةً ومتواصلةً، لا يقطعُها متراسٌ أو يباعدُ بينها جبلٌ مصطنعٌ من الرمل يختبىء وراءه مقنّعون ومشوّهون!!... واليوم.. مَنْ سَرَقَ منّا هذه الأحلام؟ مَنْ خَطَفَ أيامَنا الحلوة؟ وعلى أي حاجزٍ ذُبحتْ هذه الخيالات؟؟ من شوّهَ طفولةَ بلدي، وأطفأَ قناديلَها وكَسَرَ جرارَها وأخَذَ بيادَرها، وغلالَ الخير من جنباتها؟

من خَرَّبَ دائرتَها فلم يَعُدْ لها حاكورةٌ في نصّ الضيعة؟؟ مَنْ سَرقَ أفراحَها ودبكاتِها وأعراسَها وأهازيجَها!! مَنِ اختلس أحلامَ التلاميذ وأغانيهم؟!

الحزنُ مستوْطنٌ في بلدتي. يسكنُ عظامَ ناسها، والوجعُ ـ خبزُها اليومي ـ أضحى جزءاً من هوائها، وبعضاً من مائها...

أنا غريبٌ في بلدتي، كلانا اليوم غريب... لقد ضاعتْ طفولتُنا. قلبي وقلبُها يقطران دماً... هي على شريطِ الأحزان في ليلِ الجنوبِ الطويلِ... وأنا أنتظرُ على الجواحز الشمسَ المشرقةَ من أقصى الجنوب!

تداعيات على أمل اللقاء

بنت جبيل!...

أيتُها الأسيرةُ المخطوفةُ، إليك نسافرُ بأشواقِنا كلَّ يوم، تحُومُ أرواحُنا في سمائِك، تطوفُ خيالاتُنا في رحابِكِ، تسعى أفئدتُنا في دنياك... ونتعبَّدُ ونبتهلُ ونصلّي فوقَ ترابِكِ ونحنُ مأخوذون في دُوار الأوهام والأحلام.

إليكِ ترحلُ عيونُنا كلَّ يوم، أيتُها المصلوبةُ على شريط الأحزان، تنقلُنا إلى مرابعِ الطفولة ومدارجِ الصِّبا، تعيدُنا كما كنّا صغاراً، نَتَنَقَّلُ كالفراشات في الحقول والكروم، نطاردُ العصافير، نسرحُ ونمرح، نغنّي ونلعب، نجوعُ ونعطَش، نفرحُ ونحزَنُ، نتعبُ ونرتاح،..

أيّامَ كنّا لبَّ هذا الكونِ والباقي قشورْ

لا نحفلُ الدّنيا تدورُ بأهلها أو لا تدورْ

... أتعلمين أننا عندما نسافرُ إليك ولو بالخيال نغرقُ في سعادةٍ هنيئةٍ لذيذةٍ، لا نَنْتظرُ على مَعْبر، ولا نعاني على حاجز... أبداً تسبقُنا أحلامُنا إليك، تحاولُ أن تلامسَ ندى الفجر على جبينكِ قبلَ أن تقبِّلَهُ شمسُ الصباح...

صدّقيني أن شوقي إليكِ أنهكَني، مَلَكَ عليَّ مشاعري، حاصرَني في دائرةٍ مونقةٍ، ولفَّني في دُوارٍ عنيف، أحلى من سكرةِ الوجد، وأبْهى من هناء الولوع، حتى لكأنّني ذِبْتُ أو تماهيْتُ مع سمائِك وأرضِك ومائِك وتعلّقتُ بكِ كما يتعلقُ المولودُ بأمّهِ ويلتصق.

ها نحنُ يا بلدتي على أمل اللقاء، نتهيّأُ جَذلاً لنرتميَ في حِضْنك، تَتَراقصُ أفئدتُنا، تَتَرنّحُ مشاعرُنا، وتسابقُنا أحلى الأحلام... سنعودُ إليك بفرح الأطفال، ووعيِ الكبار، وشوقِ المحبين.

ها نحنُ في رمضان... بربِّكِ أعيدينا إلى مباهجِهِ في دنياك، أرجعينا صغاراً إلى حاكورة «نص الضيعة»، ننتظرُ، أذانَ الشيخ محمد لنفطرَ على حبةِ تمرٍ ثم لنطيرَ إلى بيوتنا نكملُ طعامَنا... أرجعينا إلى صوت «الأخرس» يوقظُنا على السحور، نغالبُ النعاس، ونداعبُ الأماني، ونشاطرُ السمّار، ونلتهمُ زادَنا بعجلٍ قبل أن يدركَنا موعدُ الإمساك، أو طلوعُ الفجر... بربِّكِ أعيدينا إلى طُهْرِ صوْمنا، ونقاوةِ إيماننا، وبراءةِ طفولتنا... يومئذٍ كنا نَنْسى أحياناً صيامَنا عَبْرَ يومنا الطويل فنشربُ جرعةً أو نأكلُ لقمةً ونندمُ، ونكتُمُ السرَّ ونستمرُّ صائمين... وأنا أزعم ولا أفتي أن صومَنا مقبولٌ لأنه طاهرٌ وبريءٌ وتَبَرُّعٌ وتقرّبٌ مجانيٌ لله.

يا بنت جبيل

بربِّكِ أعيدينا إلى يوم العيد... تلكَ الليلةَ كنا لا ننام... كنا

نقنعُ بالصّباطِ الجديد أو المجدَّدِ «بنصّ نعل»، نقنعُ بالصنْدل أو الثياب البسيطة... كنّا لا نكلّفُ أهلنا مصاريفَ باهظةً، كانتْ تكفينا قطعةُ نمّورة أو قرصُ مشبك أو صحنُ مرشوشة، كنا قنوعين نذرعُ شوارعَ وزواريبَ البلدة، نتباهى بالجديد الذي نلْبَسُ وبرنّةِ قروشٍ معدودةٍ لم تَعْتَدْ جيوبُنا على احتوائها إلا أيام العيد...

بربُّكِ خذينا إليكِ من جديد، أعيدينا صغاراً، ... آه لو نستطيعُ أن نعودَ صغاراً، فقد تقدّمَ بنا العمرُ وركَضَتِ السّنون... خذينا إلى دَرْبِ العين، إلى الصبايا الحاملات جرارَهنَّ، المتمايلاتِ غُنجاً ودلالاً وزَهْواً أمام نظراتنا، يومَها كنّا في مقتبل الشباب تأسِرُنا النظرةُ، وتدوّخُنا اللّفْتَةُ، وتُسْكِرُنا الغمزةُ، وتحملُنا إلى عوالَم مسحورةٍ نودّ أن نَغْرقَ فيها ولا نستفيق...

يا بنت جبيل، نشتاق إلى حجارتكِ وغبارِ سوق الخميس؛ نشتاقُ إلى تمشايةٍ توصلُنا إلى كَرْم العجمي إلى «الصحرا» نسعدُ فيها بأكلِ الخيار و«الفقوس»... نشتاقُ إلى جلساتِ الشاي وندواتِ الشعر، ونقاشات الأدب، وسجالات السّياسة، وخلافاتِ الرأي... نشتاقُ إلى الدبْكةِ وأيامِ الهناء، نشتاقُ أن نفرحَ من أعماقِ قلوبنا، قلوبِنا التي أقامَ فيها الحزنُ ولم يَبْرحْ، ونشر فيها سواداً وهمّاً وَوَجعاً...

نشتاقُ إلى مدرستنا الأولى ذات الغرف الأربعِ وساحةِ السرايا وتحت اللّكس وطريقِ المسلخ وصفُ الهواء والنزهاتِ إلى «شلعبون»... نشتاقُ إلى طريق مارون ويارون وعيناثا وخلّةِ عيسى والوادي والبِركة والحُوّارةِ والعَيْن «الزغيرة» وكلُّ زاويةٍ أو منحنى...

ألا تَرَوْنَ معي أيها الأخوةُ أن كلَّ هذه الأماكن مطبوعةٌ في أعماقنا، محفورةٌ في نفوسنا، وأننا كلّما ابتعدْنا عنها اشتَقْنا إليها... أنها الألَقُ في عُمرِنا المنصرم، والذكرياتُ من الأيام الخوالي... ونحن هاهنا كلُّنا أبناء تراب بنت جبيل وهوائها ومائها وسمائها وكلِّ معالمها... نحمِلُها معنا أنّى كنا وحيثُما أقمنا، في الوطن أو المهجر... بنت جبيل هذه ملتصقةٌ بنا، نحنُ عطاؤها، نحن سفراؤها، هي أُمُّنا انطلقْنا حاملين أريجَها وعطرَها وإليها نعودُ حالمين أن تَلُفَّنا بدفئها أو تحضِنَنا أحياءً أو أمواتاً... ها نحنُ يا بنت جبيل على أمل اللقاء... نَضْفُرُ أحلامَ العودة نرتّبُ الباقات...، نزيّنُ الأماني، نهدّىءُ لهيبَ الشوق... ننتظرُ يوماً طالما رَصَدْناه، يوماً نركبُ فيه سياراتنا، ونتوجّهُ جنوباً، جنوباً لنتنسّمَ ريحَ الصَّبا، وهواءَ صف الهوا، ولا يعترضُنا حاجزٌ، أو يُطلبُ منا تصريح، لنصلَ إليكِ، إلى بلدتنا الصابرة وقد طلع فجرٌ جديدٌ ووُلِدَتْ آمالٌ وضيئةٌ، ويكفينا سعادةً أن نصلَ إليك يا بنت جبيل وقد أشْرَقَتْ شمسُ الحرية وتحطمتْ أغلالُك أيتها العزيزةُ الأسيرةُ الصامدةُ المصلوبةُ على شريط الأحزان.

2 كانون الثاني 2000

بنت جبيل... كم اشتقنا*

أتُراكَ في دُوار الحلم ووهم العودة؟! أتُراكَ في هذيانِ وَجْدِكَ ورؤى الوعد المرصود؟!

... لا لستَ بالحالم ولا السكران!! افتحْ عينيكَ على مداهما الواسع، ها هي بنت جبيل أمامك تدخلُ إليها مع المواكبِ الهادرة بلا حواجزَ وتصاريح، دون تفتيشٍ وإذلال...!!

ها أنتَ فيها مع أذان الفجر، وقد استفاقَتْ على أهازيج التحرير وتكبيراتِ المؤمنين وأشواقِ العائدين... اليوم... اليوم أنزلوها عن خشبة الآلام.. . انتزعوا المساميرَ المغروزةَ في أطرافها، ومهجة فؤادها، وسواد عينَيْها... أَخرَجوا الحراب المسمومةَ من خاصرتها، ومزّقوا أسواطَ الحقد التي اقْتاتَتْ من لحمها... اثنان وعشرون عاماً وبنت جبيل تنتظر هذا اليوم... كانت مدينةً تمورُ بالحياة والعنفوان، وبألفِ حلمٍ عربي واعد... كانتْ تختزنُ طموحَ الوطن الكبير وآمالَه وآلامه... هي جارةُ فلسطين وبوابةُ جبل عامل... يومئذٍ في ليلة

(*) ـ كُتبت صبيحة التحرير ـ 25 أيار 2000.

ليلاء داهمتْها جحافلُ الحقد وتزويرِ التاريخ، اغتالتْ فيها الصِّبا ونبضَ الحياة، سمَّرتْها على صليب الأوجاع، منَعَتْ عنْها حركةَ التنفّس وأحالتْها قريةً حزينةً غادَرَها الفرحُ المسافرُ وبرَّحَها الشوقُ القاتل...

لا... لستَ في حلم... هذه مدينتُك التي أضْحتْ قريةً فتحتْ عينيها من جديد... عاد نبضُ قلبِها ونداءُ روحِها...أُشْرِقَتْ بنور ربِّها... ها هي تحضنُ الموكبَ القادم بدفء مهجتها قبل أن تبْسُط له يَدَيْها... بنت جبيل التي عاد إليها صباها هذا اليوم تناديكم أنتم... أبناءها وكلَّ الوطن... أنتمُ الذين توزّعتُم في الداخل ووراء البحار أنْ تعالوا إليَّ في يوم التحرير فقد مات الليل وطلع صبحٌ لا يرحل...

بنت جبيل هذه عاد إليها رُواؤُها مضمَّخاً بدم الشهادة، معطّراً ببطولاتٍ كالأساطير أو هي الأساطير نفسُها...

نحن على وقع أقدام المواكب الهادرة العائدة ننحني بإجلال مهيب، بتقدير سنيّ، لأولئك الكربلائيين، صانعي التاريخ، ونذكر باعتزاز وعرفان ومحبة، نضال الرئيس نبيه بري، رجلِ المواقف الصعبة وابنِ الجنوب العنيد.

سُقياً لها تلك الأيام

ونحن نلتقي في رحابِ الشهر الكريم يكفينا زهواً أن رجْسَ الاحتلالِ قد زال بمُعظمه عن الوطنِ وأصبحَ بوسْعنا في أيِّ وقتٍ نريدَ أن نزورَ باعتزازٍ أرضَنا وربوعَنا وبلدَنا، وقد سقطتِ الحواجزُ والتصاريحُ وممارساتُ الإذلال، ورحَلَ المحتلُّ مكرهاً في ليلٍ بهيم تحت ضرباتِ المواكبِ الزاحفةِ التي راحتْ تهزُّ الراكدين وتوقظُ الراقدين وتفتحُ أبوابَ المجد.

مع هدير هذه المواكب اسْترجَعَ جبلُ عامل بعضَهُ المصلوب، واستردَّ الوطنُ كرامتَهُ المسلوبةَ، واسْتَشْعَرَ الناسُ، كلُّ الناس أن العينَ بوسعها أن تقاومَ المخرز، وأن الدّم يمكنُه أن ينتصرَ على السيف ويزلزلَ كيانَ الجَوْر، وأن إرادةَ الحياة أقوى من جبروتِ الموت، وأن الفئةَ القليلةَ المنذْورةَ للشّهادة لها أفياءُ النصر الوارفةُ والسجلُّ الزاخرُ بالبطولات.

ما كان يسمّى «الشريط الحدودي» أضحى بواقعه وبعد تحريره مزاراً حبيباً، ومحجّةً مقدّسةً نستلهمُ منها معانيَ الفداء وعنادَ الصمود والتشبّثَ بالأرض وحمايتَها بأهدابِ العيون ومهج القلوب.

للسياسيين أتركُ هذا الجانبَ المشرقَ من الكلام، لهم أن يسترسلوا ويفيضوا أو يتوسّعوا فهم بالإضافة إلى مواقعهم حاذقون في أناقةِ التعبير ورشاقةِ السَّكْب ورهافةِ الأداء... أما أنا فسأستأثرُ بكم لدقائقَ تجنح فيها خيالاتنا ونسافرُ سوياً إلى بنت جبيل، حيثُ مدارج الطفولة وملاعبُ الصِّبا... لألملمَ رائعَ ذكرياتِ الطفلِ الذي كنتُ وساحرَ الصور وأنثرَ عليَّ وعليكم طيباً من عبَقها، ونداوةً من عبيرها وعطراً من أريجها. تعالوا معي إلى أيام طفولتي في بنت جبيل التي رَعَتْ خُطواتي الأولى وحَضَنتْني وربّتْني، كما رَعَتْ وحَضَنَتْ وربّت أترابي ورفاقي في فترة مشرقةٍ زاهيةٍ لم تعرفْ شبيهاً لها الأجيالُ اللاحقةُ ولم يُقدَّرْ لها أن تتكرّر...

من هذا المنطلقِ يحقُّ لنا نحن رفاقَ تلك الفترة أن نتيهَ ونزهوَ بحلاوةِ زماننا، وبساطةِ عيشه وصفاءِ العلاقة فيه، وقلّةِ التحاسد والبعدِ عن التكلّف والتعقيد والافتتان بالمظاهر!!

يومئذٍ كانتْ بلدتُنا على طبيعتها، فتعلّقْنا بها وانجذَبْنا إليها وأحببْناها حتى العبادة... تعالوا شاركوني فرحي وأنا أسترجعُ الماضي بشميمِ نفحاته، وأعودُ ذلك الطفلَ الجوّالَ يتيهُ ويقفزُ ويصدحُ، لا يعرفُ هماً ولا شجَناً، تَلُفُّهُ سعادةٌ غامرةٌ ويأخذُهُ هناءٌ رغيد... هو في الحضن الدّافىء يرتعُ ويشدو ويطيرُ، ويحاذرُ أن ينأى عنه، يلذُّ له أن يلتصقَ به، يتماهى معه... يشتاقُ إليه حتى وهو فيه، ويخاف أن يبارِحَهُ وهو مُمْسِكٌ به... مَثَلُهُ مثلُ العاشقِ الولهانِ لا يرويه قربٌ حميمٌ، ولا يريحُه بعدٌ موجع:

وما في الأرضِ أشقى من محبٍّ
وإن وَجَدَ الهوى حُلْوَ المَذاقِ
تراهُ باكياً في كلِّ حالٍ
مخافةَ فُرقةٍ أو لاشتياقِ
فَيَبكي إن نَأَوْا شوقاً إليهِمْ
ويبكي إن دَنَوْا خوفَ الفِراقِ!!

. . . هذه العلاقةُ تشكّل مرضاً لذيذاً لا يُخيفُ (هو مرضُ الحنين إلى الأرض)، ووجعاً مطلوباً لا يُضْني، وقلقاً مريحاً لا يؤرِّقُ - وانشداداً آسراً نديّاً لا يُتعب، انشداداً إلى الأرضِ التي درجْنا عليها صغاراً ولم نكدْ نكبرُ حتى ابتعدْنا عنها فحملناها في ذواتنا أَرَجاً يفوح، وعبقاً يُسكر، ونفحاتٍ تُنعشُ، وذكرياتٍ كما الشّهدُ المُذاب.

هذه الأرضُ التي أُجْبِرْنا باختيارنا المرّ على تَرْكها هي أمُّنا الثانية، هي أمّ أمهاتنا، تنشّقْنا عليلَ هوائها، وشربْنا عذبَ مائها، درجْنا فوق ترابها، لعبْنا ولهوْنا، عَثَرْنا وقُمْنا، فَصَّلْنا من أشجارها رماحاً ومن أغصانها سيوفاً، فتعاركْنا وتصالَحْنا. . . سرقْنا من خيراتِ كرومها، وهَرَبْنا أمام مطاردةِ نواطيرها. . . فَرِحْنا في أحلى مناسباتها، تعلّمْنا دبكتَها، تدرَّبْنا في نقلِ خطواتنا على إيقاع شبَّابتها، وزَجَلِ شاعرِها وبديعِ أغنياتها، وانتشاءِ مُشاركيها في وثْباتهم وضبْط حركات أَرْجلهم المنسجمِ مع النّغم والصّوت والحماس.

أَنْتُم الجيلُ الجديدُ تنقُصُكم نكهةُ أيّامنا، تُعْوِزُكم بساطتُها وتلك السذاجةُ البريئة... أنا أزعمُ أنكم لو سمعتُمْ أخبارها لحسدتُمونا على زمان طفولتنا...

أنتم مثلاً لا تعرفونَ كيف كنا ننتظرُ صباح العيد... في تلك الليلة كنّا لا ننام... نحلمُ كيف سنلبسُ القميصَ الجديدَ والبنطلونَ الجديد، والصّباط الجديد أو الذي جدّدْناه (بنصّ نعل)... نحلم ببضعةِ قروشٍ تنتفخُ بها جيوبُنا على غيرِ عادة، نشتري ببعضها قرصَ مشبَّك أو قطعةَ نمّورةٍ أو صحنَ مرشوشة، نتشاركُ عليه ونحتفظُ بالباقي من (عيديَّتنا) للأيامِ الصعبة القادمة... والباقي على قلّةِ قيمتِهِ كان كثيراً بنظرِنا، وعظيمِ قناعتنا واكتفائنا.

وأنتم كذلك لا تعرفون ما كانت تعني لنا تمشايةٌ على طريقِ العين عصرَ كلِّ يوم، ولا منظرُ الصبايا الحاملاتِ جرارَهنّ وهن يَخْتَلْنَ بفرح، ويَمِسْنَ بغُنج، ويَخْطُرْنَ بدلال.. أنتم لا تعرفونَ براءةَ اللّفتةِ الآسرة، ولا سحرَ العيون النجلاءِ ورسائلَ الهوى العذريّ ومواعيدَهُ يلتقطُها ببراعةٍ المُذْنفون الحالمون، ولو قدِّرَ للأماكنِ أن تتحدَّثَ لَرَوَتْ لكم تلك الدروبُ أساطيرَ الهوى وحكايا الحبِّ المترعةَ بأحلى الأماني وأزهى الأحلام... كانت التمشايةُ تنتهي بجلسةٍ أنيسةٍ وادعةٍ أدبيةٍ سياسيةٍ اجتماعيةٍ غزليةٍ في كرمِ (العجمي) نتناولُ فيه (الفقّوس) والخيار أو في جلسة شاي يُرنِّمُ (سماورُها) ويُسْكِرُ شايُها...

يا الله كم كنا متواضعين قانعين سعيدين... أيّامُنا تلك التي نتزوّدُ باستمرار من عَبَقِ ذكرياتها لا تَعْدِلُها جلساتُ مقاهي بيروت في

(الداونتاون) أو في شارع مونو... فنحنُ كان الحياءُ يلازُمنا، والمحافظةُ على السّمعةِ العَطِرَةِ تُقَيِّدُنا، والالتزامُ الأخلاقيُّ يصونُنا - كنّا أوادمَ بامتياز... لم تَكُنِ التلفزةُ قد غَزَتْنَا بعد، ولا الأفلامُ المراهِقةُ أو البوليسيّة اجتاحتْ دنيانا، ولا (الأنترنيت) أخذَتْنا بعيداً إلى ما يجبُ أن يكونَ محظوراً... لم تَكُنِ المفاسدُ تسلَّلَتْ إلى أخلاقنا، ولا عَرَفْنا صَرْعاتِ هذا الزمان: الشبابَ المخنّثين والبناتِ المتفلّتات والثيابَ القصيرة والصدورَ المفتوحة والبطونَ المدلوقة، والأجسامَ المحشورةَ والثيابَ الشفّافةَ والإغراءَ الرخيصَ السافلَ المُبتذَل...

هذا الزمانُ الجديد تغيَّرَ كثيراً عن زماننا حتى في علاقةِ الأهل بأبنائهم... نحنُ كنا نخافُ أهلَنا، نحترمُهُم ونقدِّرُهم، نرتجفُ إذا غضبَ والدُنا، ونستكينُ كأنّ على رؤوسنا الطير؛ نبكي إذا غضبَتْ أمُّنا أو نظرتْ إلينا شزراً تدليلاً على عدم الرضى، نلبسُ ثيابَ بعضنا، ونتقاسَمُ بمحبةٍ وقناعةٍ ما استطاعَ أهلُنا أن يوفِّروه لنا، وكانَ بسيطاً متواضعاً، نحترمُ جيرانَنا وأقاربَنا ونزورُهم، ونتبادلُ المحبّةَ في محيطنا الهادىءِ الوادع... وفي الزمن الجديد تغيَّرتِ المفاهيمُ وتَبَدَّلتِ العلاقات...!! تربيةُ الأهل لأبنائهم أصبحَتْ رَخْوةً لا تعرفُ الحَزْم... كثرةُ الدّلالِ والدّلعِ للأبناء أصبحَ علامةَ ضَعْفٍ. وأدّى بنا وأوْصَلَنا إلى قلّةِ الاحترامِ وضياعِ المهابة وانعدامِ الحزم... والحرمانُ الذي عايَشْناهُ انعكس من قِبَلنا افتتاناً في تأمين غيرِ الضّروري... صارَ هاجِسُنا أن نؤمّنَ لأولادنا كلَّ ما حُرمنا نحنُ منه، نؤمّنُهُ مضاعفاً

أو دون حدود، في المأكلِ والمشربِ والثيابِ والمدرسةِ والخرجيّةِ وأعيادِ الميلاد والرحلات... وطَمِعَ أولادُنا بنا، وبتضحياتنا حتى غدَوْنا مكرّسين لتنفيذِ طلباتهم وأوامرِهم وباتوا يعتقدون أنَّ كلَّ شيءٍ متوفِّرٌ لهم، وطوعُ أمنياتهم... ففقدوا لذّةَ الشعور بتحقيقِ المُرتجى، ومجاهدةِ الحرمان... وأضاعوا تراقصَ الأحلام، وتوالدَ الأماني والأرقَ الحبيب الذي يسبِقُ مقاربةَ ما يريدون...

نحن ضيّعْنا عليهم - عندما ضعفنا مختارين أمامهم - البراءةَ والبساطةَ والقناعةَ وجميلَ الأحلام، أطمعْناهم بنا فشوَّهنا طفولتَهم، وما أهّلناهم ليتحمّلوا بعضَ المصاعب وكثيراً من المسؤولية، فنشأوا كما أعدَدْناهم... ربما لأننا حاولنا أن نحَقِّقَ أنفسَنا فيهم... أن نَنْتَقِمَ من حرماننا بمزيدٍ من تبذيرِ العطاء... هي مأساةُ الفروقاتِ بين جيلَيْن، نرتاحُ نحن ونتعذبُ مع أحداثها وتداعياتها... بعد أن تغيَّرَ التفكيرُ وتبدّلتِ العلاقات واختلفتِ المعايير...

* * *

وبالأمس عندما عُدْتُ إلى بنت جبيل وأنا أنوءُ تحتَ ثقل السنين في خريف العمر محاولاً أن أسترجعَ الأيامَ الخوالي وزهوَ الشباب... أخذني دوارٌ عنيفٌ ولفَّني سوادٌ قاتم... فَتَشْتُ عن طفولتي في بلدي فما وجدْتُها... كِدْتُ أختنقُ بنَفَسي وأَشْرَقُ بِريقي، ركضتُ ملهوفاً إلى مرابعِ الطفولة فما عرفَتْني الطرقُ، ولا عرفتُ أنا المعالم... لقد غيَّرتْ هندامها ولبِستْ أثوابَها الجديدة بعد أن غَزَتْها مدنيّةُ الباطون... الكرومُ ما عادت كروماً والدروبُ صارت غيرَها عن

الأمس، وحاكورةُ نصّ الضيعة التي كانت بنظر الطفلِ كبيرةً واسعةً رأيتُها صغيرةً حزينةً بعد أن فَقَدَتْ حفلاتِها، وأضاعتْ دبكاتِها وناسَها... حتى ساحةُ البلدة التي كنتُ أتصورها طويلةً عريضةً عميقةَ الأبعادِ... رأيتُها كذلك صغيرةً هامدةً خاوية... لقد رَحَلَ ناسُها، وأخذوا معهم المباهجَ والأفراحَ والذكريات... وطريقُ العيْن محفَّرٌ هَجَرَتْهُ الصبايا اللواتي كَسَرْنَ جرارهنَّ... لأن مواسيرَ المياه غَزَتِ البيوتَ وسرقتْ أحلامَهن وأخذتْ مواعيدَ الشباب، وزَهْوَ الصِّبا، وحلاوةَ المشاوير.

وفي الوقت نَفْسِهِ، الذي بكيتُ فيه طفولتي وأحلى ذكرياتي... حزِنْتُ وفَرِحت... فَرِحْتُ لأنني في بلدي... وقد عُدْتُ ذلكَ الطفلَ الصغيرَ ألتصقُ بها، وأتشبَّثُ بكلِّ ما فيها... يكفيني سعادةً أنه صارَ بوسعي متى أشاء أن أزورَها وهي مطهَّرةٌ من رِجْسِ الاحتلال، تفتحُ صدرَها بحنانٍ وتنادينا أن نعود إليها...

2004/11/23

بنت جبيل بحاجة إلى قامتك فاحضنْها يا دولة الرئيس*

ها نحن جئناكَ، وقد أضَعْنا الزمن، أو أضاعنا الزمن... ونحن ما زلنا على المحطّة... المحطّة التي تجاوزها القطار، وقد بقينا عليها ثلاثة وعشرين عاماً ونحن ننتظر... ومشى الناسُ، وتقدموا، وتركونا وراءهم نتحرّق مع لهيب الانتظار...

وعندما عاد القطار، إلى المحطة من جديد، وجدنا أنفسنا كأهل الكهف، نحاول أن نعوّض خسارة الزمن، ونختصر بالسرعة أو التسرّع كلَّ شيء... غدَوْنا لجوجين بلا صبر، فتحمَّل لهفتنا فنحن ما جئنا لنطالب ولا لنذكّر، بل لنمسحَ غياباً موجعاً، ونشعر أننا عدنا وعَبْر هذا البيت إلى رحاب الوطن الحبيب.

ها نحنُ نأتي إليكَ رافلينَ بنعمة التّحرير مُنْتَشينَ بنفحاتِ الحرية... نأتي إليك وقد أُلْغِيَتِ المعابرُ وسقطت الحواجزُ وأشرَقَ

(*) ألقيت في المصيلح بعد التحرير بمناسبة اللقاء الذي دعت إليه الرابطة الثقافية لأبناء بنت جبيل بتاريخ 3/ 2/ 2001.

فجرٌ جديد... نأتي إليكَ من بلدِك الآخر، ذاك الذي خُيِّلَ لهم أنهم عزلوه عن الوطن، أو اغتالوه أو غيَّروا هويّتَه طيلة سنواتٍ قاربت ربع قرن، ثقيلةٍ موجعةٍ، سنواتٍ تحتضن جيلاً تألّم وعانى وسُجن وشُرِّدَ وهُجّر، فما لانَ ولا استكانَ ولا استسلم...

يومئذ في تلك الليلة السوداء من آذار، كانت بلدتُنا، بلدتُك الثانية رغم الكثيرِ من الحرمان ـ شأنَ كل الجنوب ـ مدينةً عامرةً تزهو فيها الحياة ويتفيأ في جنباتها الربيع... كانتْ مدينةً تستقطبُ وتعطي، تحضنُ وتحبّ، تضيءُ وتَهَبُ النور... تثورُ لكرامتها، تتمرَّدُ لعنفوانها... تَرفضُ أن تَسْتَسْلمَ وتستكين... أبداً كطائر الفينيق تنبعث من الرماد... من ذلك الرماد المشبع بكربلائيةٍ غَدَتْ سِمَةَ الجنوب، كلِّ الجنوب.

وطيلة تلك السنوات الطويلة الثقيلة، أُذِلَّتْ بلدتُنا، عُلِّقَتْ على صليب شريط الأحزان، دُقَّتْ مساميرُهم المسمومةُ في العينين والقلب... حاولوا اغتيالها ببطءٍ وبدمٍ بارد... ضَيّقوا عليها مجرى النَّفَس، وأفقَ الروحِ وشعاعَ النور...

وكانت آلتهم الحربيةُ قد التهمتْ معظم حجرها وكثيراً من بشرها ونَشَرَتْ فيها وحَوْلَها خرائبَ الأطلال... تلك المدينةُ يا دولة الرئيس عشْنا ذُبولَها يوماً بيوم وليلةً بليلة وعشْتَهُ أنتَ معنا.

تلك المدينة انفصلتْ جغرافياً عن الوطن، حوصرتْ في شريط حزين لا تُغذّيه نسائم الحرية ولا تُضيئه أنوارُ الهداية.. ولا تؤنِسُهُ

ندواتُ الشعر ولا مطارحاتُ الهوى في ليالي السَّمَر وحفلات الشاي...

تلك المدينة مع انفصالِ الجغرافيا، وبعنفوان أبنائها ـ حافظَتْ على تاريخها، وحفظت (تراثها).. هي قصةُ الأجداد وحكايات العمائم والشعرِ والأدبِ والنضالِ والمعاناةِ والرفض... لقد لازمهم عنفوانُهم، توزّع معهم حيثما حلّوا، وأقاموا في الوطن، وفي زوايا الأرض الواسعة..

هكذا يا دولة الرئيس أصبحتْ المدينةُ قريةً، وربما قريةً كبيرة... هكذا هي اليوم... لقد رأيتُموها أنتمُ الثوار، أنتمُ المقاومة عندما دخلْتُموها يوم النّصر الكبير، يوم أشرقتِ الأرض بنور ربّها... في ذلك اليوم عادَ التاريخ، وعادتِ الجغرافيا إلى البلدة الصابرة، وعلى وقع الصوت الهادر الله أكبر... قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً...

لكنَّ بنت جبيل لم تَعُدْ كما كانت... كانت تستشعر حزناً مقيماً رغم الفرح العارم... أتراها نسيَتِ الأفراح والأعراسَ ومواسمَ الدبكة التي طالما وصلتِ المساء بالصباح...

بنت جبيل مع ليل الاحتلال الأسود الطويل وقفتْ في عروقها دورة الحياة... تجمّدتْ حركةُ التقدم في ميادينها... مشى الناس في الوطن، وانتشر العمرانُ مع ما يستتبع من أمن اجتماعي وماء وكهرباء وتنظيم وتخطيط وصحة وطرقات ومشاريع، وبقيَتْ بلدُتنا طيلةَ هذه

السنوات أسيرةً محاصرةً... بعد أن تهدَّمَ ما كان فيها عامراً ونَعبتْ فوقه غربانُ الموت البطيء...

بنت جبيل يا دولة الرئيس تخلَّفَتْ عن اللّحاق بحركة العمران... سرقتِ المهاجرُ العديدَ من أهلها وأخذتِ الحواضر قسماً منهم... نشأ أولادُها الجُدُدُ غرباءَ عنها، اعتادوا البِعاد، افتقدوا الحنان الذي يشدّنا إلى الأرض... لم يعرفوا حرقة الحنين ولا لهيب الشوق... لا دربَ العين ولا حاكورة نص الضيعة ولا ساحة السرايا... لم يعرفوا الرابطةَ المقدّسةَ بينهم وبين الماءِ والترابِ والهواء... الرابطةَ الحميمةَ التي تجعل الوطنَ أحلى بقاع الأرض... فبتْنا نخافُ أن تخطُفَ أولادَنا الديارُ الجديدةُ لأنهم لا تهتاجُ أشجانُهم إلى الثلج والموقد وحُداءِ الأم وحكاياها المرصودة في الأماسي الباردة.

بنت جبيل اليوم هي المريضُ في العناية المكثَّفة، هي المُتْعَبُ المحتاج إلى الرعاية في كلّ شيء، إلى إعادة الإعمار، إلى البنى الفوقيّة والتحتيّة، إلى الإدارات والمؤسّسات والجمعيات وأعمال الخيرِ وتأهيلِ المستشفى.. والمساعدات والإعفاءات.

بنت جبيل هي اليوم محاولةُ استعادةٍ للجغرافيا، وتصميمٌ على استنهاضٍ للتاريخ، ألم تكنْ يوماً إحدى قصبات جبل عامل وثغراً من بلاد بشارة، ومنارةً فكريةً مشعّةً في بلاد العروبة والإسلام.

ما تحتاجه بنت جبيل رغم بِرِّ أبنائها بها، أبنائها الذين نقدّر ونحترم... ما تحتاجه بنت جبيل هو بِرٌّ آخرُ هو قامة كبيرة من

البرّ... قامة على مستوى الجنوب والوطن وما يتعدّاه... هذه القامةُ نحن متأكدون أنها تعرفُ ما تحتاج بنت جبيل وتعلمُ وتدركُ أن البلدةَ التي كانت مغيَّبة، مهجَّرةً، محاصرةً تلزمُها رعايةٌ استثنائيّةٌ وعاطفةٌ محببَّةٌ وحضنٌ دافىء عساها تستطيع أن تعوِّض الزمنَ الضائعَ وتلحقَ أو تدركَ من سبقها.

بنت جبيل بحاجة كبيرة إلى القامة العملاقة التي تروي ظمأها المزمن فَظَلِّلْها واحْضُنْها يا دولة الرئيس.

السبت 2001/2/3

الأطلال أرحم من محو المعالم*

يومَ كانتْ بنت جبيل شريطاً حدودياً، يتعذَّرُ علينا الوصولُ إليها، ناجيتُها بوجع البعاد وحرقة القلب: أيّتُها الأسيرةُ المخطوفةُ، إليكِ نُسافر بأشواقنا كلَّ يوم، تحومُ أرواحُنا في سمائك، تطوفُ خيالاتُنا في رحابك، تسعى أفئدتُنا إلى دنياك، ونتعبّدُ ونبتهلُ ونصلّي فوقَ ترابك ونحن مأخوذون في دُوار الأوهام والأحلام!!

إليكِ ترحلُ عيوننا كلَّ صباح، أيتُها المصلوبةُ على شريطِ الأحزان، تَنْقُلُنا إلى مرابعِ الطفولةِ ومدارجِ الصِّبا، تُعيدُنا ـ كما كنا ـ صغاراً، نَتَنقَّلُ كالفراشاتِ في الحقول والكروم، نُطاردُ العصافير، نسرحُ ونمرحُ، نغنّي ونلعب، نجوعُ ونعطش، نتعبُ ونرتاح!

كلُّ ما فيكِ يستدعي أزهى الذكريات، يوقظُ مشاعرَنا، ويرسمُ أحلى الأماني... أتصدّقينَ أننا نشتاقُ إلى حجارَتكِ، وغبارِ سوقِ الخميس، ونحلمُ أن نتلاقى في شوارعِك وزواريبِ الطرقات، على دربِ العين، وكرومِ الوادي، وبيادرِ صفِّ الهوا، ومسالكِ المتنزّهاتِ

(*) نشرت في جريدة النهار في 9/ 3/ 2007 «بمناسبة هدم بيتنا التّراثي دون مبّرر».

ونرتادُ الأماكنَ المطبوعةَ صُوَرُها في أعماقنا، الماثلةَ رسومُها في خواطرنا، المحفورةَ دُناها في نفوسنا، الراسخةَ معالُمها في ذاكرتنا، والتي نحملُها على الدّوام معنا أنّى كنّا وحيثُما أقمْنا في الوطن أو بعيداً في المغتربات والمهاجر.

وفي عُرسِ التحرير، عندما عادتِ الأسيرةُ إلى حضنِ الوطن - بفضل التضحياتِ الكبيرة والدماءِ الزكيّة والبطولاتِ العظيمة - تنشّقْنا هواءَ الحرية وقَبَّلْنا الترابَ والحجارةَ وجذوعَ الأشجار وأكمامَ الأزهار، وشاركْنا العصافيرَ تغريدَها بمواسمِ الأفراح!

وكذْنا لا نصدِّقُ - لفرطِ سعادتنا - أنه صارَ بوسعِنا أن نؤوبَ إلى بنت جبيل عندما نُريد، في الوقت الذي نريد، دونَ حواجزَ ومصاعبَ وممنوعات... كنّا خائفين على هذه النعمة، ضَنِينينَ بهذا الفرح، تماماً على قَدْرِ وعينا وإدراكنا لمعنى الانتماءِ للأرضِ والالتصاق بالتّرابِ لأننا عانيْنا أوجاعَ البعاد، وآلامَ الغربة في داخل الوطن خَشْيَةَ أن يعترضَنا قهرٌ جديد، أو فراقٌ على غير انتظار تخبّئُهُ سودُ الأيام أو غدرُ العدو اللئيم!!

وكانتِ الأحداثُ لنا بالمرصاد، فَصَحَّتْ توقّعاتُنا، واجتاحَتْنا جحافلُ الحقد والانتقام، وصَبَّتْ جامَ غضبِها علينا، دولةً ومؤسساتٍ وجسوراً وبيوتاً ومواطنين - أطفالاً ونساءً وعجزة - ومقعدين في الملاجىء والمستشفيات، أو هائمين على الطرقات، فطاولَ الهدمُ والحرائقُ والتدميرُ مسارحَ البطولات، وميادينَ المقاومة على امتداد مساحة الوطن، إمعاناً في إزالة قرى أو دساكرَ عن الخريطة... وكانَ

نصيبُ بنت جبيل وعيثا الشعب وعيناثا وفرون والغندورية مرعباً بعد أن دَمَّرَتْ معظمَها الطائراتُ والمدافعُ والقنابلُ والصواريخُ، والتهمتْها النيرانُ ولفَّها سوادٌ مقِيم، لتغدوَ ركاماً سدَّ المعابر، وأقفلَ الطرقاتِ ومحا أحياءً، وغيَّر معالمَ، وابتلعَ آثاراً، وسرَقَ الذاكرةَ والذكريات!!

ما بقي من البيوت المبتورة والمشوّهة والمخلّعة والممزقة بالشظايا كان عبارةً عن أطلال، وما سلم نسبياً ـ على قلّته ـ شكّلَ حافزَ المعاندة والصّبر والصّمود والتصْميم على البقاء.

حرائقُ بنت جبيل، وركامُ بيوتها، وحجارتُها المُتناثرةُ على الطرقات والساحات تنتصبُ فوقَ ترابها الأغبر، المتّشحِ بالسواد، والعابقِ بأطياب الدماء، تنتصبُ كمآذنها الجريحة المبتورة، وتنادينا وتشدُّنا إليها لنعودَ ونستعيدَ ذاكرتَنا وننطلقَ من جديد.

وبالأمس تناهى إليّ، أن اعتداءاتٍ جَرَتْ على مبانيَ تراثيةٍ في بنت جبيل كانتْ سالمةً بمعظمها، فَهُدمتْ دونَ وجهِ حق، وسُرقَ قسمٌ من حجارتها القديمة، ممّا جعلني أتساءل عما إذا كنّا نكملُ ما بدأَهُ العدوُّ ونعملُ على إزالةِ بيوتٍ ومعالمَ تاريخية، ونمحو دياراً وذكرياتٍ وروابطَ، ونقطعُ النياطَ التي تربطُ القلوبَ بالأرض التي حضَنَتْ أجدادَنا وآباءنا وأولادنا؟

هذا القَطْعُ مع الماضي يمثّلُ بَتْراً لكلِّ تواصلٍ بين الأجيال...!! وهذا المَحْوُ للذّكريات والذاكرةِ يشكّلُ اغتيالاً لأقدس مشاعر الإنسان، وافتئاتاً على قدسيّةِ الروابطِ بين الناس!!.

نحنُ نريدُ أن نرى بعضَ تراثِ بنت جبيل، بقايا زواريبها، ونمطَ بيوتها، وأشكالَ ساحاتها التي كانتْ تنبضُ بحركةِ التاريخ... نحنُ - هذه الأيام - مثلُ البدويّ الذي ارْتحلَتْ قبيلَتُهُ - نحبُّ أن نشاهدَ بعضَ ما تَرَكَ السَّلَفُ، نحبُّ رؤيةَ الأطلالِ ومطارحَ الذّكريات وساحاتِ الفرح والأحزان؛ نحنُ نخافُ من إزالةِ التراثِ... نرتعدُ من إلغاء الذاكرة ومَحْوِ الذكريات!! فكيفَ إذا كان القرارُ اعتداءً وظلماً واغتصاباً... نحنُ لا نصدّقُ أن جرافاتِ اليومَ تقومُ بعدوانيّةٍ لافتةٍ بإزالةِ بيوتٍ ومبانيَ أثريةٍ وتُغيِّرُ معالمَ البلدة وتكادُ تُكمل - ولو عن غير قصد - ما كانت تقوم به جرّافاتُ العدو؟!

لكِ الله يا بنت جبيل التراث، ولا سامح اللّهُ المعتدين الذين يغتالونَ ذاكرتَنا ويريدون مَحْوَ أحلى ذكرياتنا!

إلى الجمعية الإسلامية

جمعيتنا كأماكن العبادة مفتوحةٌ أمام كلِّ الناس(*)

... وتلكَ بِضعةُ أزرارٍ لقد كَبُرَتْ
على جداري فبيْتي كُلُّه عَبَقُ
تعانَقَتْ عندَ شُبّاكي!! فَيَا فَرَحي
غداً تُسَدُّ الرُبى بالوردِ والطرقُ...
اليومَ بِضعةُ أزرارٍ ستَعْقُبُها
أُخرى... وفي كلِّ عامٍ يَطْلُعُ الوَرَقُ

... وها نحنُ كخميلةِ نزار قباني... كلانا نتجددُ سَنَوياً باسْتمرار!!

هيَ تُشرِقُ بأنوارِ الرّبيع، تَتَفَتحُ أكْمامُ أزهارِها مع نُسْغِ الحياةِ

(*) ألقيت باسم الجمعية في إحدى احتفالاتها السنوية في الثمانينيّات.

المُنْبَعِثِ منْ أَعْماقِ الأرْضَ... ونحنُ كلَّ سَنَةٍ يُطِلُّ ربيعُنا، مُخْتالاً مَعَ مواسِمِ الأجْيالِ الطالعةِ، والصِّبا الواعِدِ والشَّبابِ الزاخِرِ بالإمْكاناتِ والعَطاءاتِ والآمالِ العريضة...

بيْنَنَا في الجمْعية وبينَ أفواجِ الشبابِ القادمةِ إليْنا كلَّ عامٍ، تَواصُلٌ حبيبٌ وترابطٌ حنون!!

يأتونَ إليْنا بأحْلامهم المرْصُودةِ، وتطلُّعاتِهم الحُبْلى بالأماني، يَحْملونَ مَعَهمْ تَفَوُّقَهم ولَمَعاتِ ذكائِهم... يُطلُّون عليْنا، كما الشروقِ، بعُنْفوانِ الصِّبا، وتصْميم الشّباب... ونحنُ نأخُذُهم ليرتاحوا في حِضْنِنا الدافىءِ وقد أثْقَلَتْهم الحاجةُ وكبَّلهمُ الفقرُ... واللَّذيْن حالا دون آمالهمِ العريضةِ...

أيها الأخوةُ...

أنتمْ تُمثّلونَ جيلَ القَهْرِ والعذابِ، تُجَسِّدون العِصاميّةَ بكلِّ تَجَلِّياتها... يَذْكرُ مُعْظمُكم ما عانَى من المصاعبِ، وما واجهَ من الآلام... كانَ أهلُكُم في أرْيافهمْ على حافَّةِ الحاجةِ، يجهدونَ لتأمينِ مُتطلّباتِ حياتهم، يركضونَ لاهثين وراءَ لُقمةِ العيشِ، جيوبهُمْ خاويةٌ، وحياتُهمْ محاصَرَةٌ بالتقصيرِ والفقرِ، مطبوعةٌ بالبساطة والسذاجة...

يومَها أيها الأخوةُ كان العلمُ احتكاراً... كانَ وقفاً على المحظوظينِ والأغنياء... كانتِ المدرسةُ الرسميّةُ ملاذَ معظمِ الناس... هذا إذا لم ينصرفوا منذُ صغرهم لمساعدةِ أهلهم... ومن هذا الجيلِ كان الرعيلُ الأولُ الذي قدِمَ إلى بيروت ليتعلمَ في حوضِ الولاية وما ماثَلَها من المدارس...

كانَ الرعيلُ الأولُ غريباً في بيروت... تجدُهُ في زوايا الغرفِ الصغيرةِ في الزواريبِ الفقيرةِ، في أماكنِ البؤس... يَنَامُ بعضَ لياليه على الطّوى، دونَ أنْ يَشْبَعَ لأنَّ الزوّادةَ لم تصلْ إليه أو لأنه يخافُ على قروشه المعدودةِ أن تنضبَ... لم يكنْ له يومَها في بيروتَ أقاربُ أو معارفُ... كان القدومُ إلى العاصمة حركةً خجولةً... وكانَ كثيرٌ من القادمينَ يعملونَ في المهنِ الوضيعةِ إذا جازَ التعبير... المهنِ التي تتطلبُ جُهداً جسدياً، كانوا نواطيرَ بناياتٍ، أو عمالاً أو باعة صحفٍ أو مستخدمين في المؤسسات. كانوا حمَّالين في البلدية أو مساحي أحذية، أو أجَراءَ أو موظفين صغاراً...

هذا الرعيلُ الأولُ الفقيرُ جَذَبَتْه المدينةُ... وأجبرتْه أن يُواكبَ حياتَها حسْبَ إمكاناته... وراحتِ الدائرةُ تَتّسعُ، وبدأتْ محاولاتٌ خجولةٌ للتلامذةِ القادمينَ من أجل العلم... كانتْ دارُ المعلمين، والمدرسةُ الزراعية، والمدرسةُ الفندقيّة والمدرسةُ العامليّة محطاتِ انطلاقٍ... لأنها تُعطي منحاً... تسدُ بعضَ الرمق... تساندُ فقرَ الأهل.

ومن هذهِ المحطاتِ كانَ جيلُ العصاميّين الذين شَكّلُوا طليعةَ المعلمينَ والمتفوقين؛ والذين لعبوا ولعبَ أولادُهم فيما بعد دوراً في هذا النَّهَمِ الشَّرهِ للتّحصيل، وهذا العَطَش المزْمِنِ للعلم...

... هذا الرعيلُ العصاميُّ هو الذي عانى عذاباتِ الفقر والحاجة... لم يُقَدَّرْ له أن يُكمِلَ مشوارَه... لم يكنْ لدى أهلِهِ المالُ ليساعدَهُ على متابعةِ التحصيل.

... كان جيلاً أكثرُهُ من الأذكياءِ الموهوبين... أَجْبَرَتْهُ الحاجةُ

أن يكونَ معلماً أو موظّفاً صغيراً... فأهلُهُ بحاجةٍ لمساعدته وعليه أن يقومَ بهذا الواجب!!

هذا الرعيلُ العصاميُّ حَمَلَ في أعماقه تمرّداً ونقمةً وثورةً لأنهُ لم يُحققْ ذاتَه... لأنه لم يُقَدَّرْ له أنْ يكونَ كما حلمَ وأرادَ..

لم يكنْ بوسع أبناءِ هذا الجيل أن يحلَموا ليصبحوا أطباءَ أو مهندسين أو محامين أو صيادلة... كانَتْ هذه المهنُ وقفاً على أصحابِ الأموالِ والرساميلِ وأبناءِ العائلات!! كان العلمُ يومَها احتكاراً... كانتْ ميادينُهُ محرَّمةً عليهمْ، ومقفلةً أمامهم.

أيها الإخوة

هذا الجيلُ العصاميُّ المحرومُ، المقهورُ، المعذَّبُ، النّاقمُ، الحالمُ... عملَ على تأمين ما حُرم منه في الجيل اللاحق، عملَ على تحقيق ذاته عَبْرَ أبنائه... قرّر هذا الجيلُ أن يردَّ على التحدي... أن يحرمَ نفسَه ليوفّرَ لولدِهِ الذكيِّ الشاطرِ المتفوّقِ السبلَ التي تمكّنُهُ من إكمالِ تحصيله.

... وبدأتْ إرْهاصاتُ المعجزة وتباشيرُها... أبناءُ العمّال الفقراءِ همُ الأكثرُ تَفَوّقاً... أبناءُ المزارعين وصغارِ الكَسَبَةِ والموظفين همُ البارزون... لقد كُسرَ احتكارُ التحصيل والعلم... وكثرتِ المدارسُ الرسميّة، وازدادَ عددُ أبناءِ الطبقاتِ الفقيرةِ في المدارس... وتحسّنَتْ الأوضاعُ الماديّة، وكَثُرَ القادمون من الأرياف إلى المدينة.. ولم يَعُدِ الجيلُ الجديدُ غريباً.. لا حيثُ أقَامَ ولا حيثُ عمل... وصار المالُ مُتَدَاوَلاً نسبياً حتى عندَ الفقراء...

وسافرَ كثيرونَ إلى دنيا الاغتراب، وفُتحتْ أمامهم أبوابُ الرزقِ والغنى، وراحوا يُرسلونَ الأموال ويبْعثونَ بأبنائهم إلى المدارسِ والجامعاتِ ليحصّلوا ويتعلّموا...

في هذه الفترةِ، في أواخر الستينيّات، نجحَ رمّال رمال بتفوّقٍ في شهادةِ الرياضيات وكان الأوّلَ في لبنان، وهو ـ كما تعلمونَ ـ الولدُ البكرُ لموظفٍ بسيط في مصلحة مياه بيروت، وُعِدَ بمنحةٍ من قِبَلِ وزارة التربية ليُكمِلَ دراستَه في الخارج... ولسببٍ ما... تبخّرتْ هذه المنحةُ وهذا «السبب الما...» يدركُهُ كثيرٌ منكم إن لم تدركوه كلُّكُمْ...!!

... وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خيرٌ لكم...

وتنادى بعضُ الرفاق من الجيلِ العصاميِّ الذي عانى هذه المشكلةَ المتماديةَ... وقرّروا ردَّ التحدي... قرّروا أن يؤمّنوا منهمْ هذه المنحة... وكانَ هذا الردُّ الخطوةَ المباشرةَ لتأسيسِ الجمعية... جمعيَّتِكُمْ التي نحتفلُ هذه الليلةَ معها في أفياءِ هذا الشهرِ المبارك...

... كان الهدفُ من إنشائها كسرَ احتكارِ الدراسةِ الجامعية.

... كان الهدفُ تعليمَ المتفوّقين المحتاجين لأنّ هؤلاءِ ـ أيها الأخوة ـ يحقُّ لهم أن يحقّقوا ذواتِهِم ويُبْرِزوا إمكاناتِهم وكفاءَتهم...

... كان الهدفُ أن نَفْتَحَ البابَ واسعاً أمام الحالمينَ بغدٍ أفضلَ ومستقبلٍ زاهر!!!

... كان الهدفُ أن نساعدَ المستحقّينَ الأذكياءَ ليصبحوا أطباءَ ومهندسين وأساتذةً وعلماءَ في مختلف ميادين التحصيل...

. . . كان الهدفُ أن نَرتَقِيَ بهِمْ ونرفَعَهُمْ من بُؤرِ الفقرِ والحاجةِ إلى ذُرى الحياة الكريمة.

. . . كان الهدفُ أن نُشعِرَهُمْ أنهم بشرٌ وأن الله خَلقهم كالآخرين، تماماً كأبناء الذَوَات، أصحابِ الدماءِ الزرقاءِ. . تماماً كأبناء الأغنياء والمحظوظين. . .

. . . كان الهدفُ أن نُشْعِرَهُمْ أن الأكواخَ والزواريبَ قد تُعطي، - وأكيداً أنها تعطي - أكثرَ من القصور وبيوتاتِ التسلّطِ والمصادرةِ والقهر. . .

. . . كان هدفُ جمعيتِنا أيها الأخوةُ أن نُحرِّرَ الإنسانَ من قيود الحاجةِ والفقرِ، وتَفْتَحَ أمامه آفاقَ الحياة. . . أوَلَيْسَ من حقِّه أن يعيشَ ويتعلمَ ويفكّرَ ويؤمّلَ ويَتَحلّمَ كما يحلم الآخرون؟!!

هذه الجمعيةُ أيها الأخوةُ منكم وَلَكُمْ. . . إنها لعملِ الخيرِ الصِّرْفِ والمُحَرَّرِ عن الغايات. . . لقد آلَتْ على نفسِها مُنْذُ إنشائها - وكما استمرتْ وكما هي اليوم - أن تَبْقَى فوقَ السّياسة والارتهانِ السياسي، هيَ لكلِّ الناس. . . هي كالبحر تتسعُ للجميع، تستقبلُ كلَّ الروافد، تنقّي الماءَ العَكِرَ وتَنْدَمِجُ بالماءِ الطاهر. . . تفتحُ ذراعيْها وقلبَها لكلِّ قادم. . . تشكرُ كلَّ مساهم أو متعاطف. . هي تماماً كأماكن العبادة مفتوحةٌ أمام كل الناس، وتَنْشُدُ باستمرارٍ أن تبقى طاهرةً كهذه الدُّور. . .

يوم ولدت الجمعية*

أيها الأخوات والأخوة

من نِعَمِ الله علينا، أننا نشهدُ اليوم، ومُعْظمُنا في المقلب الآخر من العمر، إنجازاً واكبَ شبابنا، وتفتحتْ عليه أحلامنا، وجَهدْنا أن نوفّرَ له سُبُلَ النجاح، ونرعاهُ بأهدابِ العيون ومهجِ القلوب.

ومن نِعَمِ الله على الإنسان، أن يُقَيِّضَ له أن يطمحَ ويخطّطَ ويعملَ وينتجَ ويحققَ أمانيه؛ إلا أن هناك طموحاتٍ بعيدةَ الغايات، تتعدّى طاقةَ الفرد، وتتطلّبُ تضحياتٍ وجهوداً، ولا تُدرك إلا بالكثير من التآزر والتعاون وصفاء النوايا ونظافة المقاصد... أعرض لذلك وأنا أعود بكم ومعكم إلى نشأة جميعتنا... أعود بكم ستاً وثلاثين سنة إلى الوراء لأبيِّنَ لكم وأؤكّدَ أن وضوحَ الرؤية ونبلَ المقصد والتّصميمَ العنيد ووجهةَ الخير، هي أقصرُ الطرق - مهما كانتْ بعيدةً - وأضمنُها لتحقيق النجاحات.

(*) ألقيت في الجمعية الإسلامية للتخصص والتوجيه العلمي في 6/ 1/ 2006 بمناسبة تقديم أوسمة للمؤسسين.

ولو قدِّر لمراقبٍ أن يُطلَّ علينا في ذلك اليوم الذي اجتمعْنا فيه، وكان عددُنا لا يتجاوزُ أصابعَ اليدين، لو قدِّرَ له أن يستمعَ إلى أقوالنا، ويصغيَ إلى طموحاتنا، لضحكَ من خيالاتنا، وهزيء من تواضع قدْراتنا وهزالِ إمكاناتنا المادية.

كنا في ذلك اليوم مجموعةً يعمل أفرادُها جاهدين لبناءِ ذواتهم، وتأمينِ مستقبلهم، كنا أفراداً عصاميّين، نعتمدُ على أنفسنا، من بيئة مهمّشةٍ، تكاد تكون آنذاك خارج النسيج الاجتماعي للوطن. . . وبعناد المؤمنين وتصميمِ الحالمين، ومساهماتِ الخيّرين، انطلقتْ مسيرةُ الألف ميل، وتألفت الجمعية سنة 1969.

حتى إذا تابعنا السير، فاقتْ توقعاتِنا تباشيرُ المواسمِ، وتدفقتْ مساهماتُ الخيّرين، فتوسعتْ دوائرُ نشاطاتنا، وتفتحتْ أمام عيوننا آفاقٌ جديدة، ونَمَتْ على جنباتنا نبتاتٌ وليدة، وازدهرتْ طموحاتٌ واعدة. . .

الجمعية شقتْ طريقَها، أصبحتْ معلماً وطنياً، نادياً خيرياً، مؤسسةً تحاولُ أن تساهم في البناء الاجتماعي والثقافي والعلمي. . . وإذا كان المؤسسون أمّنوا لها انطلاقتَها ـ وبمساعدة أهل الخير ـ ووضعوا لها اللبنات الأولى، فإن مَنْ تعاقبوا على إدارتها خلالَ ثلث قرن، وبينهمْ عدد من المؤسسين لا يزالون يعطونها من جهدهم وإمكاناتهم، هؤلاء الذين تعاقبوا على إدارتها، بذلوا جهوداً عظيمة وقدّموا تضحياتٍ كبيرةً، ووسّعوا ميادينَ نشاطاتها، وزادوا مؤسساتِها وارتقوا بها وأعلُوا شأنَها وحملوا مشاعِلَها.

لكل هؤلاء الذين وقفوا حياتهم على العطاء النظيف، بلا مِنَّةٍ أو خلفيةٍ مشبوهة، أنحني إجلالاً وتقديراً، وأشد على أيدي الرفاق الذين يتوهجون نشاطاً وعطاءات، وأزعُمُ أن التكريم، رغم نُبْلِ البادرة، هو في رؤية أفواج الطلاّبِ تتتابعُ كلَّ سنة ويزدادُ عديدُها وتتضاعفُ مع هديرها أعدادُ الخيّرين الذين يوفّرون المال الحلال زكاةً وتبرّعاً وتطهيراً لما حباهم به ربُّ العالمين.

لكل هؤلاء، المقدِّمين جهودَهم، المتبرعين بأوقاتِهم، الواهبين أموالَهم، أجملُ التمنّيات وأزهرُ الأيام وأطولُ الأعمار، وتحيةُ عرفان ووفاء لمن غادرنا من الرفاق الأوائل وأخصّ أول رئيس للجمعية بشر نزار جابر والزملاء حسن الحاج، جميل سعيد، الحاج مرتضى حمود وعبد الهادي سعد.

إلى الأدباء

... ويا أبا وضاح*

المنبرُ الذي طالما زها وأنتَ تترنمُ فوقه يفتقدكَ بألمٍ وانكسار، والقلمُ الذي كان يتراقصُ جَذِلاً بين أصابعك حزينٌ حتّى الموت؛ ومجالسُ السَّمَر بعدكَ واجمةٌ يلفُّها وجعُ الفراق، والرفاقُ الذين تعرفُهم، والذين لا تعرفهم، ذاهلونَ ولمّا يستوعبوا مأساةَ الرحيل. لكأنَّ سفَر الكبير ـ أديباً كان أم شاعراً أم عالماً ـ معضلةٌ وهمٌ لموتٍ مزعوم. الناسُ لا يصدِّقونَ أن الغيابَ يُطاولُ الكبار، لأنَّ هؤلاء خالدون في النفوس يمثلونَ كبرياءَ النفس. وعنفوانَ البقاء، والتحدّي الذي يتوقون إليه، وبطلُ الرواية يصارعُ الموتَ باستمرارٍ ولا ينتهي إلاّ عندما تنتهي الروايةُ نفسُها. لذلكَ كان رحيلُ الأديب ـ الذي لا يتجاوزُ انطفاءَ الحركة في الجسد ـ حدثاً مفجعاً في حياة الأمة، وخسارةً لا تعوّض لأن الزمنَ قلّما يجودُ بمثل هذه الفُرادة من الناس.

أصحيحٌ يا أبا وضاح أن هذا العقلَ الكبيرَ قد توقّفَ عن العطاء؟ وأنّ اللسانَ الصادحَ قد كفَّ عن الغناء؟ أفيدوني بربّكم كيف ينطفىءُ الوهجُ، ويتلاشى فيضُ المعرفة، ويهمدُ القلبُ النابضُ بحركة الحياة،

(*) ألقيت بمناسبة أسبوع الأديب عبد اللطيف شرارة، بتاريخ 10/ 5/ 1992.

والذي كان ملءَ السمعَ والبصر لأكثرَ من خمسين عاماً.؟

أتُراك أضْناكَ القلمُ، وأتْعَبكَ سوادُ الحبر؟ أم أن عينيكَ آثرتا أن تستريحا في إغماضةٍ طويلة، فأنتَ طالما أَجْهَدْتَهُما وقسوْتَ على جسدكَ النحيل.

أنتمْ يا أهلَ القلم تَعِبُونَ مُتعِبون. غرباءُ في تصرّفاتكم، متطرّفونَ في آرائكم. لا تُدارونَ ولا تُمالئون!! تسكُنُكُمْ أحياناً «غربةٌ قاتلة» أو وحشةٌ تنأى بكمْ عن العاديّ والمألوف، تعيشونَ للناس وبينهم، بعيدين عنهم، تحاولونَ أن تشدّوهم إليكم، ترفَعوهمْ إلى عالمكم، تبعدوهم عن السقطاتِ والتفاهاتِ ومُغرياتِ المادّةِ الرخيصة، وهمْ لا يفهمونكم أحياناً، ولا يدركونَ أو يقدّرون ما تبذلونَ من أجلهم.

تلك هي باستمرارٍ مشكلةُ الرسالات، مشكلةُ الرسول مع محيطه، والرّائدِ مع ناسه، والقائِدِ مع شعبه، والمجلّي بينَ العامّة والسواد.

أنتمْ أصحابُ الكفّ النظيفة والقلم الشريف، تتعذبونَ مع الناس ولأجلهم، يعذبونّكم بدورهم، ولا يدرونَ ماذا يفعلون، وحَملةُ الرسالةِ طالما عانَوْا من جهالةِ الآخرين، حتى إذا انتصرتِ الرسالةُ بدمِ الشهادة وعذاباتِ النضالِ سرقَ قدسيتَها لصوصُ الهيكل وشوّهوا طهارةَ التضحيات.

أنتمُ الذين آخَيْتُم الفقرَ، وعانيْتُم الحاجةَ، وحُرِمْتُم من نِعمٍ كثيرة، عرفْتُمْ ظلامَ السجونِ وعذاباتِ الملاحقة، ورفضتمْ بإباءٍ أنْ تبيعوا ضمائرَكم في سوقِ النخاسة وبإزاء السلاطين والأمراء! لمِثْلكمْ ولمثلكم فقط تُطأطأ الرؤوسُ وتَنحني الهامات!!

هل تتصورونَ ما عانى أديبُنا الراحلُ من عذابٍ وهو على فراش الألم وليس لديه ما يؤمّنُ نفقاتِ الاستشفاء ومتطلباتِه؟ اسألوا الرفاق في المجلس الثقافي، اسألوا الصادقَ الحبيبَ وهو يشاركُهُ وجعَ المادةِ وآلام المرض. أهذه حالُ الأديبِ في بلادنا، في البلاد التي تُنْفَقُ فيها بشكلٍ عبثي مجنونٍ مبالغُ أسطوريةٌ على مآدبِ الزّيْف وحفلاتِ السُّخف وأعراسِ المظاهر؟

الأدبّاءُ الشرفاءُ بعيدونَ عن غنى المادة، وجاهِ الثروة، هم نظيفو الكفّ واللسان والضمير.

اسألوا كوكبةَ أبي وضاح. اسألوا فؤاد الخشن وحبيب صادق وأحمد سويد وعلي سعد ومحمد عيتاني وجورج جرداق وخازن عبّود، اسألوا حسين مروة ومحمد دكروب وواصف بارودي ومحمد يوسف حمود. واسألوا قبلهم الشيخ عارف الزين وفؤاد حبيش وتوفيق يوسف عوّاد وألبير أديب وسهيل إدريس وسواهم وسواهم.

هؤلاء الشرفاءُ، رفاق أبي وضاح ابتدأ معهم في العرفان والمكشوف والأديب والآداب والطريق، وفي الندوة اللبنانية والمقاصد ودار الكتب. أخذ عنهم وأخذوا عنه، وتفتحتْ معهم وعَبْرَهم آفاقُ ثقافتِهِ الرحبة، فكانوا أهلَهُ وأسرتَهُ ودنياه.

فقيدُنا أيها السّادةُ كان موسوعةً أدبيةً تضيءُ حيثما حلّت، كان معرفةً تمشي، وتراثاً يتحرك، وروحاً وديعةً مسالمةً تصلُ الماضي بالحاضر. كان عالماً قائماً بذاته من الحبّ والصفاء. غريباً عن عالم العنف والمادة وسفاسف الصراعات.

صدّقوني أنه كان غريباً في نشأته وتصرفاته.

كان إنساناً ـ بلا طفولة ـ اللّهم إلا طفولةَ القلبِ والحبِّ، كان إدراكهُ أكبَرَ من عمره. اسألوا إخوته وأترابه. كان طفلاً عندما نظم الشعر، وكان صغيراً يافعاً عندما بدأ يكتب.

كان أفقهُ أوسعَ من البيئةِ التي يعيشُ فيها. يقرأُ فيستوعبُ بعمق، ويكتبُ دائماً برشاقةٍ ووضوح. كان أنيقَ القلمِ والخطِ والفكر.

كان غريباً في حياته وأطواره.

كان غريباً بين أهله رغم قربِهمْ منه، غريباً في بيته رغم حياته فيه، غريباً بين أقاربه رغم اتصالهم بهم، كان حاضراً وشارداً في الوقت نفسه، بعيداً وقريباً، مهتماً وغير مبالٍ. لكنه كان دائماً ناسكَ قراءةٍ وراهبَ مطالعةٍ ومتعبدَ ثقافة.

كان متواضعاً، طاهرَ القلب، أبياً عفيفاً، متمرِّداً، أتُراه صوَّر نفسَه في مطلع شبابه عندما أنشد:

يا ابنة الأحلامِ في الدنيا ويا أختَ الرِّغابْ

لا يغرَّنْكِ عذابي إنني فوق العذابْ

أنا لنْ أُذْعِنَ للجوْرِ ولو صرتُ ترابْ

أنا لا أحسبُ للكونِ وإن ضجَّ حسابْ

همتي العزةُ أو لا... فَلْتُمزِّقْني الحرابْ

أنا في الليلِ هزارٌ ومع الفجرِ عُقابْ

فاطلبي غيريَ يُسْمِعْكَ أنا عيبَ الغرابْ
وغداً يَنْحَسِرُ الليلُ وينجابُ الضبابْ!!

... ربما كان لنشأتِهِ الأثرُ البارزُ في تكوينه. ففي الثلاثينيات، وفي جبلِ عامل كان بيتُ الشيخ علي شرارة ناديا أديباً ومدرسةً فكريّة. وخليةً وطنية؛ كان هذا البيتُ يتفاعلُ مع حركةِ التاريخ يومئذ جنوباً في فلسطين، وشمالاً في النبطية وصيدا وبيروت وطرابلس وشرقاً في دمشقَ وبغدادَ وغرباً مع تيّار النهضة الأدبيةِ في مصر. سلْ رفاقَه كيف أَغْنَوا محيطهم بحركةِ نضالهم وأدبِهم في جبلِ عامل. سلْ علي بزي وموسى الزين شرارة والحاج علي بيضون والشيخ علي الزين وعبد الحسين عبد الله وحسن فياض شرارة، سلِ الأُفُقَ الأوسَع والأرحَب في مدرسةِ رياض الصلح وامتداداتِها في لبنان ودنيا العرب.

يومها كان أبو وضاح يختزنُ كلَّ ذلك، ويعيه بعمق. كان يستوعبُ ما يحدثُ ويكتنزُ ثقافةً ينمّيها نهمٌ فريدٌ للمطالعة، وأفقٌ عريضٌ بالمعرفة، وذاكرةٌ قويةٌ تحفظُ غرائبَ السيرِ والأحداث. والكثيرَ الكثيرَ من عيونِ الشعرِ والأدبِ قديمِه وحديثِه.

هذه الثقافةُ الموسوعيّةُ، والاطلاعُ الرحبُ على حركة الفكر، رفَدَهُما امتلاكٌ لافتٌ للّغتين الفرنسية والإنكليزية، وقدرةٌ غريبة على فهم روح اللغة، وأداءِ المعاني. فراحَ يغرفُ من معينهما علماً واطلاعاً ناقلاً إلى العربيةِ روائعَ الفكر الغربي ليغنيَ ثقافَتَنا بأزهى وأجملِ ما طالع وممّا قرأ. عشراتُ الكتبِ تتصدرُ المكتبات وتحملُ اسم عبد اللطيف شرارة منذُ الأربعينيات. بدءاً بروح العروبة، والحجّاجِ،

وفلسفةِ الحبّ عند العرب، مروراً «بكتابه القيّم - الصهيونية جريمة العصر الكبرى، أو بسلسلة أدباءِ العربية قديمِهم وحديثهم وبترجماتِه التي تعدُّ بالعشرات من مذكراتِ ديغول، إلى كتبِ الشعر، وعلمِ النفسِ والاجتماع، والفلسفةِ، وكلِّ آفاقِ المعرفة.

أكثرُ من ثمانين كتاباً من عيون التراث والفكرِ منتشرةٌ في مكتباتنا تحملُ فيضاً من عطائكَ يا أبا وضاح. والمجلاتُ والصحُفُ منذ خمسين عاماً في دنيا العرب على رَحْبها تزهو بمقالاتِك وأبحاثك! وروحُ العروبة التي تغنّيْتَ بها لن تنطفىءَ جذوتُها، رغمَ الضبابِ والحصارِ والانكسار. فسوادُ الليل لا بد أن يعقبَهُ نورُ الصباحِ المنبلجِ مع أصوات المؤذّنين.

يا أبا وضاح، لقيناكَ آخر مرة مع الشريف الرضي؛ والشراعُ المحببُ إليكَ ما زالَ يمخرُ العباب. القرّاءُ ينتظرون والحديث شجون أيها المسافرُ على عجل أخبرني بربكَ كيف انطفأ العقلُ الكبير؟ وكيف سقطَ القلمُ من أصابعك الرشيقة التي ما عَرَفَتْ إلا عطاءً وفيضَ إبداع؟

ها أنتَ معنا. على المنبر وبين الرفاق، في أحاديثِ السمرِ ونَدْوات الأدب. روحُك معنا - تحومُ فوقنا. وإطلالتُك نتخيّلُها مع الجسمِ النحيل والشَّعرِ الأبيضِ ونقاءِ الكف والضمير. ها قد عُدْتَ إلى بلدك بعد طول غياب، صدّقني أن ترابَ الوطنِ حنونٌ دافىءٌ كقلب الأم... رغمَ وجعِ الأرض هناكَ في الشريط... لقد آن للفارسِ أن يرتاحَ، ففي الحلبة بعده حكايا وأقاصيصُ عن البطولة والعطاء.

مع الأخ الأديب جواد صيداوي

لا أدري إذا كانت مصادفةً أن يختارَ أديبُنا لنفسه اسمَ نديم صافي... ربما أدركَ بحدسه أو شعرَ أنّ القارىء يتعطّشُ في وحْدتِهِ وهو يقرأُ أنه بحاجةٍ إلى نديمٍ في تبتّل وحدته، وإلى صفاءٍ ذهنيٍ وهو يختلي به بقلبٍ مفتوح، وجوارح مرهفة!!...

أمسِ قالت لي ابنتي ما الذي أخذكَ عنا حتى الانجذاب؟! قالت ذلك وأنا مستغرقٌ مع النديم الصافي، أو مأخوذٌ بحلاوة السّرد، وجمالِ الأداء، وسلاسةِ اللغة، وعذوبةِ الحديث... ألا ترونَ معي أن حديث القلب إلى القلب يجعلُ القارىءَ يحسُّ أنه يقرأُ سيرتَهُ ويفتحُ كُوى الماضي، ويَنْبِشُ المفرحَ أو المؤلمَ من المشاعر والخلجات؟!...

ناولتُ الجزء الأول من «أجنحة التيه» إلى ابنتي وقد أقلعتُ مع الجزء الثاني ولم أكنْ بحاجةٍ لأرويَ لها بعضَ ما فيه... كان يكفي هذا الاستغراقُ الجميلُ الذي لاحَظَتْني فيه... لكن أمّها سبقتها إلى قراءته... وصَدَقَ ظني، نَسِيَتْنا سيدةُ البيت وقد أخذها النديم الصافي كما أخذني معه إلى مرابعِ طفولتِهِ وأحداثها والشيطنات والتدخين

وسرقة الليمون وصوت المسحّرين، وحجاب الشيخ أمين وجلسات المشايخ ومقالبها، ومدرسة النبطية، والخوري الصايغ والأستاذ أنطوان، والمغامرات الليلية في عنف المراهقة المغلولة بالخجل..؟!

... صدّقوني أن طفولةَ نديم صافي في وكر أجنحة التيه تمثّل معاناة جيلٍ عريض في جبل عامل... في أربعينيّات هذا القرن عندما كانت شهادة السرتفيكا ـ مع ال التعريف طبعاً ـ تعني يومئذٍ قمة التحصيل... في ذلك الوقت كانت المدارس التكميليةُ مقصورةً على كبريات المدن... يومئذٍ لم يكن الجنوب قد دخل عصر الدولة... كان على هامشها... ولم يقتحمْها إلا بعد نكبة فلسطين 1948، حيث الْتَفَتَ مرغماً ومضطراً إلى الشّمال إلى صيدا وبيروت...

في ذلك الزمن، كان العلمِ ترفاً، كان حكراً على طبقةٍ معينةٍ، كانتِ الجامعةُ التي تخرّجُ الطبيب والمهندسَ والصيدليَّ والمحامي عالِماً لا يدخُلُه أبناءُ العامة لأنه مقصورٌ على الأغنياء والميسورين...

بالنسبة لهؤلاء كانت دارُ المعلمين الحلمَ والملاذ... فيها منحةٌ تقيهم الفاقة والعَوَز، ودراسةٌ تؤهلهم ليتخرجوا معلمين تأخُذُهم الدولةُ بعد ذلك موظفين يؤمّنون غدهم، ويقتصدون خلال دراستهم، بعض المال من هذه المِنَحِ البسيطةِ مصروفاً للصيف وثمنَ ثيابهم التي لم يكنْ قبل ذلك بوسعهم تأمينُ بديلٍ عنها...

هكذا كنا في الأربعينيّات والخمسينيّات... كلُّ شيءٍ بمقدارٍ... لا ماء ولا كهرباء، لا تكميليات ولا ثانويات، لا سيارات خاصة ولا

بيوتاً في بيروت وإنما طنابرُ وحناطيرُ وبوسطاتٌ وتراموي وعذابُ غربة وحرمان، ثم زوّاداتٌ نحلم بها، ننتظرها وقد حَمَلَتْ لنا معها الشبعَ والرّيَّ ورائحةَ البلد والأهل!!

نديم صافي أو جواد صيداوي هو الصورةُ المتألّقةُ لمعاناةِ جيلٍ بأكمله... نرى أنفسنا معه، نتحرَّكُ كأشخاص روايته، نفرح ونبكي، نركض ونتعب ونرتاح، نأمل ونيأس، نشبع ونجوع، نغامر ونعشق، نغار ونشمت، نناضل أو نناور... حتى لكأنَّ أحداثَ الرواية صورةٌ ناطقةٌ لحركتنا، على مسرح الحياة...

نديم صافي بالإضافة إلى ذلك يجسّدُ الطموحَ اللاهبَ لبناء الذات، والتصميمَ العنيد لشقّ طريق المستقبل عَبْرَ تلال المصاعب، إنه يمثّل وَجَعَ الحرمان، وطهارةَ الكفاح، وهو يوائم بين نُبْلِ الغاية واستقامةِ السبيل، ونظافةِ الكفّ ونقاء الضمير...

مع نديم صافي في أجنحة التيه نسترجعُ أيامَنا عندما كانتْ تسكنُنا المُثُلُ، وتأخذُنا إلى عوالمَ قصيّةٍ نحلمُ فيها بتحرّر وتحرير الشعوب، وإقامةِ الدولةِ العادلةِ وزوالِ الظلمِ وتراجعِ الإقطاعِ أو القضاء عليه... كنا نحلم بالوحدة وانهيار الكيانات... نحلُمُ بتآخي الشعوب وزوال الفروقات... كنا نَحْلُمُ بالإنسان الذي يحقّقُ ذاتَهُ في مجتمع يقومُ على تكافؤ الفرص...

أتُرانا يا أخي جواد أسْرَفْنا في خيالاتنا وأحلامنا؟!... هل كان صبانا شاعرياً طوباوياً؟... لا أدري لماذا في أيامِنا هذه ـ كل ما في

السفح يشدُّ الناسَ إليه... لا أكادُ أصدّقُ هذا السقوطَ المريع، وهذا الانهيارَ الكبيرَ لأحلامٍ عظيمةٍ لجيلٍ حالم؟...

نديم صافي - ما زال كما كان منذ صغره - طفلاً يافعاً في وكره، ومراهقاً وشاباً في أحلامه، وأستاذاً مناضلاً في تونس، في كل هذه المراحل كان ملتزماً... ملتزماً في حبّه، منسجماً مع مُثُلِهِ وأحلامِهِ وتطلّعاته... في ليالي النبطية، في غرفته، في الأشرفية، في جبشيت في مظاهرات بيروت وأحلامِ رأس النبع، في تونس مع خديجة وعزيزة.. ومع كل ليلة عاشها كان محاصَراً بالتعاليم التي شبَّ عليها بنبيلِ الأخلاق، ويقظةِ الضمير... فلمْ يسمحْ لنفسه أن يجتازَ حاجزاً، أو يرتكبَ إثماً... أو يقترفَ مُنكراً...

يا أخي الذي لم أعرفْهُ قبل اليوم

أرى نفسي فيك، أراك تمثّل شريحةً كبيرةً من جيلنا المعذّب الذي جاء المدينةَ مع مطلعِ النصف الثاني من هذا القرن يحمل ـ وهو على حدّ الفقر ـ الآمالَ العريضة، والآلامَ الموجعةَ حتى لكأنّكَ القصةُ الحيَّةُ لمعاناتنا وعذاباتنا...

يا أخي جواد

لُغتك العذبةُ أَسَرَتْني، حمَلتْني إلى عوالَم سحرية... في سَرْدِكَ جرسٌ آخّاذ، وفي وصفك خَدَرٌ كما النبيذُ المعتَّق... صَدِّقْني أنني كنتُ وأنا أسافر معك أخافُ أن تنتهي الرحلة ويتوقفَ المشوار...

نَثْرُكَ أحلى من الشعر، وأمتعُ من رنين القوافي المتألقة...

تألمت لأنني لم أقرأك من قبل... شكرتُ أخي المحامي الفنّان سامي الرفاعي عندما قال لي سوف تَختلي بأديبنا وستَتْعَبُ لأنه لن يكونَ بوسعك أن تَتْرَكَهُ دونَ أن تكمل المشوار...

قرأتكُ بنهم، تَرنَّحُت لحلاوةِ السردِ وجمالِ الأداء، وَدَدْتُ لو لم نتوقفْ... بعد تونس فتشتُ عن الخماسين ـ حسدتُ المطبعة على سبقها ـ أسفتُ لأنها لمّا تصدرْ، فمنْ يجالسُك لا يستطيع إلا أن يرافقَكَ حتى آخر الرواية التي أتمنى ألا تنتهي.

ما أحلى أجنحةَ تيهك الجميل، ما أسمى حبَّكَ وشعرك ورفيقَ أحلامك، أنتَ أيها العائدُ من تونس مهيض القلب، منهدمَ الروح، مكسور الجناح... أنت أيها الحاملُ ركاماً رميماً من الأحلام والآمال... بالله عليك أكملْ قصيدتك المبتورة وادفع لنا خماسينك فإن أجنحة التيه سوف تحملُكَ باستمرارٍ وتحملُنا معك إلى أحلى الأماني والأحلام.

1994/11/4

حسن شرارة الأديب الذي رحل*

في ذكرى مرور أسبوعٍ على رحيله، يفرضُ عليَّ الوفاءُ أن أنحنيَ أمام ذلك الحاذق الذي كان يلاعبُ اللغةَ وينتقي عرائس الكلمات، يصوغُها، يُذهِّبُها، يُزَرْكشُها، يجنِّحُ الأفكار، يلوِّن الخيالات، ويُخرجُها أدباً يمورُ بلاغةً ويَتَثَنَّى إيقاعاً ويُسحرُ أداء!

المنابرُ على امتداد جبل عامل في الثُّلث الثاني من القرن المنصرم تذكرُهُ خطيباً، مثَّقفاً، طالما عَنَتْ له وزَهَتْ به، ونحن ـ أطفال تلك الأيام ـ لا تزال تتردّد في أسماعنا أصداءُ كلماته، وتنتصبُ أمام عيوننا قامةُ فارسِ منبر، وأمير خطابه...

أيها الأخوة... عندما يتهالكُ الجسدُ، وتنخرُهُ السنون، يُمسي الإنسان نمطاً من خيال الظلّ، وشَبَحَ صورةٍ فَقَدَتِ الكثيرَ من أَلَقِ الشّباب، ورُواء الصّبا، فينوءُ الجسمُ تحت ثقْل الأيام، وتتلاشى قُواهُ، وتغدو الحياةُ تعباً وآلاماً ومآسيَ تتجدّد!

المقلب الآخر من رحلة العمر محكومٌ بالأوجاع ومُلازمة الطبيب

(*) ألقيت في ذكرى اسبوعه ونشرت في جريدة النهار بتاريخ 4/ 12/ 2005.

وتناوُلِ الأدوية، والإقامةِ الجبريَّةِ بين البيت والعيادات وأسرّةِ المصحّات، وبالإضافة إلى ذلك فهو محكومٌ بالأحزان وغيابِ العديد من الأهل والأصدقاء، فكيف إذا تسرَّبَ الضعفُ والوهَنُ إلى العقل والذاكرة والإدراك؟! وألْقَيَا بنا في متاهات الضُّمورِ والاضمحلالِ وتداعياتِ أرذلِ العمر؟!

الحياةُ أيها الإخوةُ تحلو مع الجسد المعافى، والعقل الحكيم، والوعي العميق، والإدراك السامي، والاحترام المفروض، والتقدير المكتسب.. وعندما تتهاوى هذه الفضائل، أو يُلامِسُها خَلَلٌ تهتزُّ الصورةُ، وتختلفُ الموازين وتترنَّحُ القِيَمُ وتنقلبُ الرؤية، وتغدو الحياةُ بعد ذلك عبئاً ثقيلاً يَقْتَنِصُ رصيدَ الماضي ويُشوِّهُ تجلّياتِه، ونردّد عندها القول الشائع «عِشْ ما دامت الحياةُ تليقُ بك».

من هذا المنظور أطلُّ على ابن العمة حسن شرارة، وأحفظ له في وجداني ـ ومنذ طفولتي ـ صورةً زاهيةً وإطلالةً حلوةً، وأناقةَ مظهرٍ، وحلاوةَ حديثٍ، وقامةً لافتةً، ووقفةً مميَّزةً لفارسٍ يعتلي منبراً، ويتدفَّقُ أدباً، ويتلو شعراً، كأنّه أميرٌ مهاب!!

حسن شرارة استحوذ على قلوبنا، ومَلَك عقولنا منذ كنّا صغاراً، كان كما اعتاد أن يقدّمه أخوه الشاعر إبراهيم أولَ الخطباء، وأولَ المتحدثين، يومَ كانتْ لبنت جبيل ريادةُ التحرّر والنّضال في جبل عامل، وعلى مساحة الوطن الكبير، يوم كان علي بزي وموسى الزين شرارة والحاج علي بيضون ورفاقُهم يقارعون الانتداب، ويقرعون أبواب السجون والمعتقلات، ويفتحون آفاقَ المستقبل، ويؤكّدون أن

العين يمكنُ أن تُقاومَ المخرز، وأنّ الشرفاء البسطاءَ المؤمنين أقوى من السلطة وحِرابها ولهم، لهم وَحْدَهُم، الساحاتُ وميادينُ الغد الموعود!!

حسن شرارة لو قُدِّر له أن يُكمل دراسته، ويُحقِّق مواهبه، لكانَ إنساناً آخَرَ. . لكنّه قنع أن يمتهن التجارة، بالبساطة التي كان يمتهنُها غيرُه من الأقارب وسائر الناس، وبقي تاجراً عادياً في دكّان متواضع رغم ازدهار هذه المهنة وامتداد نشاطها إلى الجوار كلِّه حتى أعماق فلسطين.

لكن حسن شرارة الذي حَصَرَ نفسه في مهنةٍ لم يُخلقْ لها، انصرف إلى جانب عمله المحدود - إلى آفاق التحصيل الواسعة، وإلى مواكبة الحركة الثقافيّة في لبنان والبلاد العربيّة في زمنٍ أو مرحلةٍ كانت تفتقدُ الكثير من مقوّمات النهوض ووسائله، كالمدارس العالية والمكتبات الغنيّة والصحف والمجلاّت والإذاعات والكهرباء والتلفزة.

. . وبالرغم من كل ذلك راح حسن شرارة يطالعُ ويستوعبُ ويحفظُ ويكتبُ وينشُرُ، وكانت (العرفان) في تلك الفترة عاملَ تواصلٍ ثقافيٍ بين الوطن والمهاجر، لا يكاد يخلو منها بيتٌ من بيوت مثقّفي جبل عامل. . . . كانت تواكبُ الحركةَ الأدبيّةَ في بلاد العرب لا سيّما في العراق وسوريا ولبنان ومصر. . . ومصرُ يومئذٍ تعجّ بالمفكرين على مختلف تيّاراتهم الأدبيّةِ والثقافيّة، بآمالهم وأحلامهم، وقد قُدِّر لعديدٍ منهم أن يحملوا ثقافات الغرب، ويعايشوا مدارِسَهُ الأدبيّه وتيّاراتها المتنوّعةَ: أمثال طه حسين وتوفيق الحكيم وعباس محمود العقاد

ومصطفى صادق الرافعي وإبراهيم المازني وقاسم أمين وأحمد شوقي وحافظ إبراهيم وغيرهم وغيرهم؛ وكانت تصلُه بعضُ مؤلفاتهم ومجلاّتهم كالهلال والرسالة والرواية فزادتْ ثقافتُه اتساعاً، وأصبح بمفرده في بنت جبيل ومنطقتها الأوسعَ ثقافةً واطّلاعاً وقوّةً في النقاش - هذا إذا استثنينا عبد اللطيف شرارة الذي كان مقيماً في بيروت وأكثر متابعةً واطّلاعاً على هذه النشاطات. . . وكان لأحمد حسن الزيات الأثرُ الأهمُّ والأبْرَزُ في تكوينه الثقافي، فقلّد أسلوبَه وطريقتَه وصُوَرَهُ وتقاطيعَ جُمله وخيالاتِه، حتى بِتْنا إذا قرأنا ما كتبَ نظنُّ أو نتصوّرُ أننا نقرأ في مجلّة الرسالة أو ترجماتٍ في مجلة الرواية أو في كتاب (رافائيل) للامارتين الذي ترجمه أحمد حسن الزيّات!! هذا دون أن نُغْفِلَ متابعةَ حسن شرارة وتأثّرَهُ بالأخطل الصغير وأمين نخلة وبدوي الجبل، وبالأدب المهجري، الرابطة القلميّة في نيويورك مع جبران ونعيمه وإيليا أبي ماضي، وبالعصبة الأندلسيّة في الجنوب الأميركي، بالمعالفة خاصة بفوزي المعلوف وجورج صيدح والشاعر القروي.

. . . «وكان دكانُ حسن شرارة في بنت جبيل نادياً أدبياً مصغّراً، ملتقًى للشباب المتنوّرين، كان - كما قال الدكتور إبراهيم بيضون - مكاناً تلجأُ إليه باختيارِكَ لتبدِّد الملل الذي يرين حولك فتدلُفُ إلى حانوت حسن شرارة في أول السوق وتحطّ الرحّال على كرسيّ يخُصُّكَ بهِ ولا يَلْبَثُ المتنبي أن يَحْضُرَ، وكذلك بدويُّ الجبل محاطاً بحميميّةٍ خاصة دون أن يُغَيِّب عبد الحُسين عبد الله الذي كان يعتبرُهُ شاعر الجنوب».

ومع تَوهُّج المدِّ الوطني، وغليانِ حركة التحرر على مساحة الوطن الكبير في الثلاثينيّات والأربعينيّات، كان حسن شرارة في طليعَة فرسان الكلمة، أميراً على منابر جبل عامل، يغرف من قلبه، ويصوغُ من فكره، وينمّق من ذوقه، بأناقة المرهفين، ورؤية الحالمين، ورشاقةِ المبدعين، . . . كان حاذِقاً في انتقاء الكلمات، وصياغةِ التعابير، وإخراج المعاني، وتَلْوينِ الأفكارِ وملاعبةِ التصوُّرات، حتى لكأنّك وأنت تقرؤه تُسافرُ معه مرتاحاً، سعيداً على سجيَّتك، مأخوذاً بأسلوبه، وجَرْسِ أدائه في أدب يتدفّق غزيراً صافياً، ويمورُ بلاغةً وسلاسةً وبساطةً وجمالاً بِصُوَرِهِ البديعة وتشابيهه واستعاراته وكناياته المحبَّبة وتلقى نفسك في سفرك الشيِّق معه تحفظه وتسترجعه ثمّ تترنّم به كألحان المزامير. . .

ها أنا معكم أسترجع مقاطع له متناولاً فيها ولادة الشاعر ورحيله:

«يَوْمَ يولدُ الشاعر، تولَدُ دنياً جديدةٌ، لا تُخومَ لها ولا حدود! يُخلق كونٌ لا ثرى له ولا سماء! دنياً ملاعبُها في أراجيح الوهم والظنّ والرؤى والخيال، لا أرضَ لها ولا سماء! وإنما هي طيوفٌ وأحلامٌ وهواجِسُ مُسْتَطارةٌ تهبُّ من هنا وهناك، كما يهبُّ النسيمُ الرخيُّ في رحاب الأفق، وتتدافعُ كما يتدافعُ النورُ، ويندّاحُ على وجْنَةِ الكون، وفوقَ صهوات الأثير!!

ويوم يموتُ الشاعر، تموتُ طيوفُ إبداعٍ كانتْ في يديه مُلكاً، وأدواتُ خلقٍ كانتْ في حوزته رقّاً ومفاتيحُ رؤًى، كانَ يفتحُ بها المغالقَ ويُطلّ منها على الغيوب!!

يوم يموت الشاعر، يموتُ الفكرُ الحالمُ المتوقِّدُ، والوجدانُ المتفتِّحُ، والطيوفُ والرؤى التي كان منها الخيال والظنّ يَتَفَجَّرُ وينبجسُ.. الشاعر ليس ملكاً لأحد، ولا تابعاً لأهل، أو مُنتمياً لعشيرة، وإنما هو رسولُ الضمير الإنساني يبلِّغُ رسالتَهُ بأمانة، وسفيرُ القلوب والأرواح والسرائر، يترجمُ بِلُغاهُ لُغاها، وينقل بِبَثِّهِ نَجْواها، ويبوحُ بِبَوْحِهِ مكنونَ أسرارها ولواعجها وهواها».

هذا نمطٌ من أدبه الجميل... ولو قدِّر له أن يخرجَ من بنت جبيل - التي طالما أحبّها - ويعيشَ بين الكتب، يرتادُ المكتبات الكبيرةَ الغنيَّةَ ويعاشِرُ رجالَ الفكر في المدن، لكنّا اليوم نتحدّثُ عن أديبٍ كبيرٍ وإنتاج عميم.

حسن شرارة الأديبُ الشاعرُ الناثِرُ، فَقَدْنا في غيابه إنساناً متنوّراً ومواهبَ كثيرةً واعدةً لم تتحقّقْ، وهذه الكتاباتُ التي تركها، والأشعارُ التي خلَّفها، تبقى برهاناً على ذلك وتؤكّد أننا فَقَدْنا في رحيله أديباً وشاعراً وإنساناً مرهفاً... وأستعير ما قاله: في رحيل صديقه الشاعر عبد المطلب الأمين... وكأنما كان يتكلم عن نفسه: «إذا مات الشاعرُ أو الأديبُ تموتُ بموتِهِ أمانيُّ كانتْ تشربُ من غدائرِ قصيدِهِ، وتَذْبلُ نفوسٌ كان يَرُشُّ عليها من ذَوْب نشيده، وتدلهمُّ دنياً، وتعتِّمُ آفاقٌ كان يُضيئُها ويُنيرُها من قناديلِ فكرهِ وقلبهِ وأنواره».

يا أبا عماد... سلام عليك حيث ترفد في الخالدين!

أديب القنطار،
سفير لبنان وسفير الكلمة الأنيقة*

قبل يوم واحد من سفري خارج الوطن تكرّم عليَّ الأخ الكبير أديب القنطار وأهداني مشكوراً كتابه «أيام لن تعود مع الأدب والديبلوماسية» فحملتُه آملاً أن يكونَ خيرَ زادٍ يؤنِسُني في رحلتي.

ودون تأخير بَدَأتُ في الطائرة رحلتي معه، ورأيتُني - مأخوذاً بفرح الأطفال - اقرأ بتمهّل لذيذٍ وأسترجِعُ حلاوةَ ما قرأت، وصدقَ ما شعرت، وقررتُ ألا أتسرّع لأستمتعَ بنكهة الأدب، وأغتنيَ من متانة السّبْكِ، وبراعةِ الصياغة، وأقنعتُ نفسي أن أخصِّصَ لكلِّ يومٍ سانحةً مريحةً من الصفحات النديّة، وأتصوّرني من جديد طالباً على مقاعد الدراسة أرتشِف تاريخ الأدب، وفصاحةَ اللغة وإعجازَ البلاغة من المعلمين الكبار. وأدركتُ - كما قال المحامي الأديب إدمون رزق - أنني بدوري ربحت صديقاً، وواكبت إنساناً، وصحِبْتُ مثقفاً يفيض أدباً وحكمة واستقامة ووعياً وبُعدَ نظر.

(*) نشرت في جريدة النهار 18/ 3/ 2007.

. . . في بلدة «المتين» الوادعة، المنداحةِ على أعالي الجبال، تبدأ حكاية (الأيام التي لن تعود)، فقد وُلِد الصبي في أحضانها، ودرج بين بيوتها، وسرح في حقولها، وهبط وديانها، وتسلّق جبالها، فأحبّ ناسَها وتعلّق بأرضها. . . وفي مدرستها الأولى تتلمذَ على معلمه المهيب سليم أبي رزق حيث برز انجذابُهُ للّغة العربيّة وآدابها وشغفُه بالمطالعة، لينتقلَ - في الثالثةَ عشْرَةَ من عمره - إلى «مدرسة الحكمة» في بيروت التي كما قال «ضمّتْنا تحتَ جناحيها ضمّةَ الأمّ الرؤوم وعلّمتْنا ما اشتهرتْ به من أدبٍ وعلمٍ ولغةٍ، وكانت مرحلةُ الدراسة الثانوية خصبةً في التحصيل والمطالعة، «فلم نكن نكتفي بما كان يُلقي علينا المعلم في اللغتين العربية والفرنسية بل كنا بالإضافة إلى ذلك نقرأ المجلاتِ الأدبيةَ والصحفَ والمنشورات والدراساتِ وما نتوصّلُ إليه في المكتبات، ويكفيني فخراً أنني تتلمذتُ على الأستاذيْن حسيب عبد الساتر وبطرس البستاني اللذيْن قادا خطواتي ورعيا مسيرتي وكان لهما الأثرُ العظيمُ في تكويني الأدبي».

ومن كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية التي تسجّل فيها انتقل الشاب الطموح إلى الجامعة السورية ليدرسَ الحقوق، ويُدِّرس اللغة العربية لطلاب البكالوريا الموحَّدة في إحدى مدارس دمشق الثانوية وكان العديد من طلابه أكبرَ منه سناً. . . وبين نجاحٍ في التعليم والتدريس ونجاحٍ في التعلُّم والتحصيل، مَرَّتْ سنواتٌ ثلاثٌ على المعلم الثانوي والطالب الجامعي ليتخرجَ حقوقياً ويعودَ إلى لبنان وينتسب إلى نقابة المحامين في بيروت مزوَّداً بتجربةٍ غنية.

لكن تجربةَ أديبنا مع المحاماة لم تتجاوزْ مدّتُها سبعَ سنوات، كانتْ كفيلةً باستخلاصِ دروسٍ تتناولُ المهنةَ والمتقاضين والقضاة، ولا مراء أن هذه المهنة لا تقوم إلا على الصدق والعمل بجدية واحترام، لا على الكذب والمماطلة والمراوغة كما يعتقدُ البعض، وأن في لبنان رجالَ قانون وقضاةً شرفاء، وإذا كان هناك بعضُ الخلل في الجسم القضائي فعائدٌ إلى إلزام رجاله الخضوع إلى ما يسمى رجال السياسة الذين غدوا أوصياءَ عند التعيين أو الترفيع أو النقل من مكان إلى آخر، ولن يستقيمَ الوضعُ إلا إذا رَفَعَتِ السلطةُ التنفيذيّةُ يدها. ومع مطلع العام 1960، دخل المحامي أديب القنطار عالمَ الوظيفة في وزارة الخارجية والمغتربين، وفي عهد اللواء فؤاد شهاب، دون منّة من أحدٍ وبلا واسطةٍ من زعيم وعملَ مع الدكتور فؤاد عمّون أمين عام الوزارة ومع الأديبين السفيرين توفيق يوسف عوّاد وخليل تقي الدين، ليُعيَّن لاحقاً عام 1962 كأول قنصلٍ في السفارة اللبنانية في دولة شاطىء العاج التي استَقَلَّتْ حديثاً... وتدرَّج خلال عمله الوظيفيّ الذي امتد عقوداً عدة في السفارات اللبنانية في أفريقيا وأوروبا والإدارة المركزية والأمم المتحدة، ومثّل وطنَهُ في مؤتمرات عديدة... فبين دول شاطىء العاج وألمانيا الغربية والسنغال والجزائر كان للقنصل والمستشار والسفير أديب صداقة مع رؤساء الدول التي اعْتُمِدَ لديها، ومع أفراد الجالية اللبنانية الذين استقبلهم فاتحاً لهم أبواب السفارة وأشعرهم بكرامتهم ونظم شؤونهم وعمل على توحيد صفوفهم وإجابة طلباتهم وتمتين روابطهم للبلد الذي يقيمون فيه أو المساهمة في بنائه وعمرانه...

وفي هذه الميادين كان أديب القنطار الديبلوماسي اللائق والسفير الحاذق والمثقف الواعي الذي عرف كيف يوسع نطاق صداقاته، ويمتّن دائرةَ علاقاته مع زملائه المعتمدين في أي دولة أقام فيها، وأن يستأثرَ بصلاتٍ حميمةٍ مع الرؤساء تَنِمُّ عن الاحترام الذي فرضه لنفسه ـ بكفايته وموهبته ليصبح صديقاً مقرباً من الرئيس السنغالي الشاعر المثقف وعضو الأكاديمية الفرنسية ليوبولد سنغور، ثم عميداً للسلك الديبلوماسي في داكار لسنواتٍ طويلة مع ما يستتبع ذلك من امتيازات برتوكولية ـ وتقديرٍ معنوي ـ تجعلُهُ الثالث أو الرابع في الدولة المضيفة، بالإضافة إلى تقدّمِهِ على جميع السفراء في الاحتفالات الرسمية. . .

◆ ◆ ◆

وأنت تبحرُ مع أديب القنطار في كتابه ـ الغني بأحداثه ووقائعه ـ ينشرحُ صدرُك ويحلو سفرُك، وتدركُ أنك أمام شخصية مميزة، جاذبة، مرهفة الأحاسيس، إنسانيّة التطلعات، وتتيقَّنُ أن المركز الكبير الذي شغله أديب القنطار كَبُرَ معه ولم يكبرْ هو به، وأن الثقافة التي حصّلها، والقلم الذي توهّج بيده باكراً زادهما الاغترابُ شفافيةً وحلاوةَ صياغة، فتعمقَتْ نظرتُه إلى الحياة، واقتحم أبواب الحكمة. . . حتى لكأن خطاً تصاعدياً ما زال يربط تلميذَ المتين الصغير بطالب «الحكمة» اليافع ـ مراسل ميخائيل نعيمة ـ بالمعلّم في مدرسة سليم اليازجي في دمشق بالطالب في كلية الحقوق في الجامعة السورية بالمحامي والقنصل ـ صديق توفيق يوسف عوّاد وخليل تقي الدين ـ بالسفير وعميد السفراء صديق الرئيس ليوبولد سنغور وصولاً

إلى الكاتب الملهم والأديب الحكيم صاحب القلم الذهبي والعبارة الأنيقة والبيان المشرق.

الشكر الجزيل للأخ السفير الأديب الذي آنسني في رحلتي وأنساني تَعَبَ السفر وزوّدني من حكمته، وعرَّفني إلى إنسانٍ مرهفٍ غنيٍّ بالثقافة.

كلُّ المحبة والتقدير لصاحب العقل المنفتح والفكر المتنوِّر والعبارةِ الرشيقة... ويكفيني أنني ربحت صديقاً اغتنيتُ من أدبه وخُلُقه وحلوِ شمائله.

رسائل إلى الأحبة والرفاق

كالزهر فوْحك*

لا أنتَ سئمتَ التسعينَ... ولا نحنُ شبعْنا منكَ ولا ارتويْنا.. كلانا طمعَ وطلبَ المزيدَ وخافَ حتى من تصوُّرِ الوداع... لغيركَ أن يسأمَ ويشكوَ ثمانينه ومتاعبَ عمرِهِ المديد... ولكَ ولنا يطيبُ أن نستزيدَ سنواتٍ رخيّةً لا تعرفُ سأماً ولا مللاً،

هو خريف العمر... يفيضُ حكمةً، ويَمورُ أنساً ويَشِفُّ حناناً، ويندى ألقاً!!

اللّهَ..! ما أحلاهُ خريفاً ثرياً حبيباً... يتجدّدُ ويتوالدُ منه كلَّ يوم ربيعٌ بهيج..

ربّنا شكرناه نحنُ وأنت... أعطاكها تسعيناً من السنوات وحباكَ قوةَ البنيةِ وصفاءَ الفكرِ وحكمةَ العقل... وحبانا وافرَ نعمته والصحةَ والأمان... وأجنحةً (خفيفةً) من نداوةِ الرحمة، وعرفاناً حَيِيّاً وتقديراً سنيّاً، وامتثالاً رضيّاً لقولٍ كريم..!

(*) في ذكرى أسبوع الوالد الأحد في 21 أيار 2000.

كالزهرِ فَوْحُكِ كالعبيرِ، يهّلُ في دنيا العطاءِ
أبتاهُ - ناديْتُ الحنانَ - فغامَ في ألمي ندائي
أتُرى تغيبُ عن الوجودِ وأنتَ تحيا في دمائي
وتطلُّ من قلبي ومن آهي، وحتى من رجائي!!

* * *

أبتاهُ وأرتدَّ النداءُ مضمَّخاً ألَماً شجيّا
أبتاه نوَّرْتَ الشموعَ لنا وأعْدَدْتَ المطيّا
بالأمسِ أنْبَتَّ القوادمَ والسنى في جانحيّا
ورأيتَ أنَّكَ خالدٌ كالخيرِ كالإيمان فيّا

* * *

بيني وبينك يا أبي ارتباطٌ حميم، فريدٌ من نوعه، يتعدَّى ما بينك وبين إخوتي... بيني وبينك التصاقٌ يمتَدُّ إلى الأعماق. فأنا بِكْرُكَ، طفلُك الأولُ.. أنت عندما أسمَيْتَني كنتَ كَمَنْ يتخلّى - من فرط فرحه - عن اسمه ولَقبِه... لقد كُنِّيْتَ بي، وأصبحتَ منذ ذلك اليوم أبا إحسان... لم تعُدْ عبد الأمير ولا (الأمّورة)... ميَّزْتَني عن إخوتي الذين تحبُّهم مثلما تحبُّني، خَصَصْتني بعلاقةٍ فريدة، حمَلْتني معك كنيةً، وحملتُك معي تعريفاً، حملتَني معك أنّى ارتحلتَ، وحيثُما أقمتَ، وحملتُك معي والتصقْتُ بك.

... حملتُك في كياني شَبَهاً تعدّى الخَلْق إلى الخُلق، حملتُكَ

حباً وحناناً... وفاءً وأماناً، حتى غدوتَ فيَّ القلبَ الذي يرتعشُ، والعينَ التي تضيء والعقلَ الذي يعي...

يا أبا إحسان

... أنا منكَ امتدادُ الحياة عبْرَ الزمن... وأنتَ فيَّ ارتباطُ الذات بجذورها وأصولها على مدى الأيام - أنا استمرارُك عَبْرَ الحياة وأنتَ مبعثُ وجودي رغم الممات... أنا امتدادُ ظلِّك، ونَغَمُ صوتك، ونداءُ روحك، وأنتَ الماضي الذي سافرَ وما زال مضارعاً... أنتَ الذي سبقتَني ليُهَيِّءَ لي هناك مكاناً أنعمُ بجوارهِ بعد حين.

يا أبا إحسان

لطالما حمَلْتَني بين يديكَ، وأنا طفلٌ صغير، لطالما داعبْتَني، ضمَمْتني إلى صدركِ، غنّيتَ لي.. ولطالما طربْتَ فرحاً حتى البكاء ووضعتَني فوق كتفيْك لعبةً، هدْهَدْتَني فغفوتُ آمناً على نَغَمك الشجيّ...

ها أنا كبرتُ يا والدي أصبحتُ والداً وجدّاً ولمّا أزَلْ ولَدَك الصغير ما زلتُ أشتاقُ أن أغفوَ على حنوِّ حُدائك، وترانيم أشعارِك ورخيمِ صوتِك، ما زلتُ يا والدي أحفظُها وأردِّدُها، وأشتاقُ أن أسمعها منك...

صدقْني أنني رغم بياضِ شعري وتجاعيد وجهي واهتزازِ يدي ما زلتُ أمامك ولداً صغيراً، أرتاحُ لندائك، ليدِكَ تمرِّرُها فوقَ وجهي،

لأصابعك تلاعبُ ما تبقّى من شعري... أرتاحُ وأشتاقُ أن ألتصقَ بك في جلسةٍ حميمةٍ، أن أتحدثَ معك وأتبادلَ الشّجَنَ وحُلْوَ الحكايات...

يَوْمَ وقفتُ أمام سريركَ ورأيتُك مغمضَ العينين، أَصْفَرَ الوجه واليدين، غامَ نظري، وغَشِيَتْ عينيَّ دموعٌ لم أقوَ على حَبْسِها، وَجَفَ قلبي وأَخَذَني دوارٌ كسواد الليل، وأدركتُ وأنا في ارتحالٍ حزين أنني كبرْتُ وهرمْتُ وفقدْتُ الأبَ والرفيقَ والصديق وردّدت مع شاعر الأندلس:

ما لعيني غَشِيَتْ بالنظرِ

أنْكَرَتْ بعدَك ضوءَ القمرِ

وإذا ما شئت فاسمعْ خبري

غشيَتْ عيناي من طولِ البكا

وبكى بعضي على بعضي معي

أيها الأخوة:

أبي الذي سافَرَ كان مثلَ آبائكم، إنساناً طيباً.. لم يكنْ زعيماً ولا معلماً ولا أديباً كان تاجراً بسيطاً.. وبالنسبة لنا كان أباً مثلَ آبائكم...

كان مِثْلَ كلِّ الناسِ يَفْرحُ ويحزَنُ.. يحبُ ويكرهُ.. يصادقُ ويخاصمُ، يتقربُ ويبتعدُ، يعاتبُ ويسامح، يصوم ويفطر، يتعبّد ويؤجّل، يخطىء ويصيب..

كان مثلَ آبائكم، مثلَ كلِّ الآباء، يشتاقُ إن غِبْنا، يقلقُ إن مرضْنا، يفرحُ إذا شُفينا، يُسَرّ إن حضرْنا، ويفتقدُ أخانا البعيد، ولَكَمْ كان يَبْتَهجُ إذا ما اتّصلَ به واطمأنّ لأخبارهِ، كان يشعرُ أننا دنياه ومبعثُ سعادته وهنائه...

وأنا عندما أصبحتُ أباً شعرتُ أنني بتُّ أكثرَ قرباً منه، فهمتُه، وعيْتُ بعمقٍ كيفَ تَمْشي أكبادُنا على الأرض، أدركْتُ سرَّ التواصل بين الوالد والولد.. عرفتُ ودُهشتُ وتعجّبتُ مما تختزنُ مُهَجُ الوالدين من الحنانِ والرقّةِ والرهافةِ والطهارةِ والإيثارِ والضعفِ والقوّة... كان أبي إنساناً مثلَ كل الناس لا يختلف عن الآخرين.. كان في أسرته محباً.. فيه حزمٌ ولين، رقةٌ وجفاء، حنانٌ وقساوة... كان يُدْنينا منه فنكادُ نشعر أننا تماهيْنا معه وذبْنا فيه... وكان يخيفُنا عندما يغضبُ أو يصرخُ فنستكين وننزوي ونشعرُ أن عاصفةً سوف تجتاحُنا وأن قصاصاً سوف ينزل بنا... كانت ترتعدُ فرائصُنا وتتسارعُ نبضاتُ قلوبنا وتنهمرُ منّا الدموع..

... كان إنساناً مثلَ كلّ الآباء يرعانا.. يسعى جاهداً أن يجعَلَنا أولاداً صالحين كان يطمحُ أن يرانا ناجحين... حسني السيرة، مهذبينَ نحترم الناس ونبتعدُ عن المشاكل.. كان يأملُ أن يرانا مستقيمين «أوادمَ» بينَ الناس ونأملُ نحن ونرجو أن نكونَ كما أراد وأحبّ.

يا أبا إحسان... ورغم تسعينك

قلْ لي بربك لمَ تعجّلتَ، فالموعدُ قريب، هي أيام طالما صلّيْنا لها، وأحرقْنا لمقدمها ضوءَ العيون، كم عشتَ أنتَ على انتظارها.. أتُراك تعبْتَ، وبرّحَكَ الشوقُ إلى ديارك أتُرى ملَّ منكَ ومنّا الصّبر؟... نحن كلُّنا نَنْزِفُ شوقاً إلى تلك المرابع؟! هي البعيدةُ القريبةُ، المقفلةُ معابرُها والمسمَّرةُ على صليب الأحزان... كلٌّ منْ فيها وما فيها موجَع... حتى الترابُ هناك موجَع، إنّه يغبطُ ويغارُ، ومن حقِّهِ أن يتألمَ ويتوجَّع رغْمَ جميلِ العُذْرِ ورغمَ قدسيّةِ جوارِ المُقام[1] حيثُ سيدةُ كربلاء، الغريبةُ البعيدةُ عن ديارها التي شَدَّتْ إليها الغرباءَ البعيدين عن ديارهم وآنَسَتْ وحشتَهم وخفَّفَتْ أشجانَهم واستراحوا بضيافتها على الأمل الموعود...

يا أبا إحسان

أتعلمُ وأنتَ على فراشك بين اليقظة المُتْعَبة والنوم الثقيل، بين الوعي واللاوعي أنك طالما ردَّدْت أسماء مَنْ تحبُّ من الأهل والخلان.. وما تحبّ من الأمكنة والمواقع وأرشدْتنا إلى مخبأ المفاتيح، مفاتيح البيت...

عزيزةٌ هي الديارُ يا والدي، مقفلةٌ هناك على أشجانِها وذكرياتِها، متقلبةٌ على لظاها، حالمةٌ أن تُفتحَ وتُشرّعَ أبوابُها على مصاريعها لعودة الأهل الهازجين.

... وجعُ التهجير والهجرة اسألونا عنه، نحن أبناءَ الشريط،

(1) دفن الوالد قرب مقام السيدة زينب.

وتحديداً أبناء بنت جبيل، البلدةِ الصابرةِ الحزينةِ المحتسبةِ التي تَوزَّعَ أبناؤها في مختلف أصقاع الأرض، بنت جبيل هذه تَعبتْ من الأسى، نخرتْها الآلام، استوطنَتْها الكآبة وأقامتْ في دوائر خلاياها؛ وما زالتْ تحيا على أمل العودة واللقاء..

تمنيتُ يا والدي أنا الحزينُ حتّى الموت أن نعودَ (سوياً) إلى بنت جبيل أن تراها كما انتظرت وحلمت... أن تراها ولو ساعةً أو دقيقةً، أن تَرْقُدَ فيها وقد أَطْبَقْتَ أجفانَك على صورتها واستَوْدَعَتْ رِئتاكَ بعضَ هوائها وشَمَمْتَ عبيرَ التراب الذي أحببت...

يا والدي سلام عليك في عليائك حيث تقيم.. ستبقى معنا في الخفقة والخلجة وسنردد مع نزار ما قال يوم رحل أبوه:

أمات أبوك؟ ضلالٌ. أنا لا يموت أبي... ففي البيت منه
روائحُ ربّ وذكرى نبي
هنا ركنُهُ تلك أشياؤه... تفتّق عن ألف غصنٍ صبي
جريدتُه، تبغُه، متكاه.. كأن أبي بعدُ لم يذهبِ
وصحنُ الرماد وفنجانُه على حاله بعدُ لم يُشربِ
ونظّارتاه أَيَسْلُو الزجاجُ عيوناً أشفَّ من المغربِ؟!
أجولُ الزوايا عليه، فحيثُ مررتُ أمرُّ على مُعْشبِ
أشدُّ يديْهِ أميلُ عليه أصلّي على صدره المتعبِ
أبي لم يزل بيننا والحديثُ حديثُ الكؤوس على المشربِ
يسامرُنا فالدوالي الحبالى تَوَالَدُ من ثغرهِ الطيّب

أبي يا أبي إنّ تاريخَ طيبٍ وراءك يمشي فلا تعتبِ
على اسمك نمضي فمن طيّبٍ، شهيّ المجاني إلى أطيبِ
فَتَحْنا لتموزَ أبوابنا ففي الصيف لا بدَّ يأتي أبي

الأحد 21 أيار 2000

إلى السيد جعفر شرف الدين...
يا أبا محمد.. سلام عليك*

حدث ذلك في أحد أيام خريف 1949... أنا لا أزال أذكرُ التفاصيلَ بوعيٍ محبَّبٍ رغم صِغَرِ سنّي... يومئذٍ كانتْ مدرستُنا في بنت جبيل مدرسةً ابتدائية، تحتضنُ أبناء البلدة وأبناءَ القرى المجاورة، وتؤمّنُ إيصالَ الناجحين منهم إلى صف الشهادة (مع ال التعريف طبعاً)... ولم يكن عددُ الصف النهائي (السرتفيكا) يبلغ العشرين تلميذاً في أحسن الحالات... حتى إذا تقدّمنا، ونجح من نجح، كان على أهله إذا استطاعوا أن يبحثوا له عن مقعد في مدرسة تكميلية، في صيدا أو صور أو النبطية أو دير مشموشة أو خارج الجنوب في بيروت.

يومئذ لم يكن في كل الجنوب ـ ما عدا حواضره ـ مدرسةٌ واحدة تصل صفوفها إلى الشهادة الابتدائية.. كان التعليم في تلك الفترة رفاهاً فوق طاقة الاحتمال، واحتكاراً للنافذين الميسورين... وكان جبل عامل بمعظمه من دون ماءٍ ومن دون كهرباءٍ وطرقاتٍ معبَّدة...

(*) نشرت في السفير 30 تموز 2001.

نحن جيل تلك الأيام نذكر جيداً ذلك الواقع، وتلك المعاناة. . .
وهكذا في أحد أيام خريف سنة 1949 اصطحبني خالي - نزولاً عند إصرار والدتي - إلى صور لأكملَ دراستي التكميلية في الكلية الجعفرية. . .

كانت صور المتراميةُ بدلال على الشاطىء الأزرق، عاصمةُ الجوار، مدينةً تختصرُ كلَّ ما حولها، يرتاحُ فيها التاريخ، وتُشرق شمسُها على كلِّ جديد، وكان مبنى الكلية الجعفرية العتيقُ يطلُّ على البحر، ويتكىء على مخزونٍ ثريٍ من مخلّفاتِ الغابرين وعبقرياتهم. . .

دخلتُ مع خالي على شاب وسيم، كثُّ الشعر والشاربين، عريض المنكبين، باسم المحيا، ضاحكِ العينيْن، يشدكَ إليه حديثُه، ويؤنسُك لُطْفُهُ. . . ففارَقَني خجلي، وذَهَبَ عني ارتباكي. . . وعَرَضَ له خالي وضْعَنا الماديَّ وصعوبةَ تغطية القسط المدرسي ولوازم الدراسة. . . نظر إليَّ بحنانٍ غامر، ولفتةٍ كريمة وقال: أنت ضيْفُنا. . . تنامُ مع التلامذة (الداخليين) في الكليّة دون مقابل، وتدفع نصفَ قسط مدرسي لا غير. . !!

صدّقوني أنني عرفت في هذا الموقف كيف يَبْكي الفرحون، وكيفَ تشفُّ الروحُ جذْلى من السعادة. . . وكيفَ يخرسُ الإنسانُ بدل أن يصرُخَ طرباً. . . ودَدْتُ لو أضمُّه امتناناً. . . أقبّلُ يديه كيدي أبي اعترافاً بشهامته وتقديراً لكرمه. . . ورأيتُني في هذه اللحظة خُلقت من جديد. . . ها هو مستقبلي أمامي، وهذا السيد جعفر يُمسك بيدي، يحضُنُني، يَرْعاني، يفتحُ الأبوابَ المغلقةَ والآفاقَ المسدودة. . . ها هو في منارته الصّورية يأخذُنا إليه، يسدّد خطانا، ينمّي طموحاتِنا،

ويزرعُ كلَّ واحد منا في محيطه، يوزّعُ عَبْرَنا نورَهُ، وعطاءاته، والأدبَ وخَيْرَهُ العميم...

أتعلمون أن الكلية الجعفرية ـ هذه المنارة الصّورية ـ كانتْ منذ نصفِ قرن أو يزيد أمَّ المدارس على مساحة جبل عامل..؟!... في تلك الأيام الصعبة كان جنوبُنا على هامش الوطن... وكانَ سكانُهُ خارجَ دائرة الاهتمام، بعيدين عن مراكز القرار، وغريبين عن ساحة الحركة... من الصعب أن يُدْرِكَ أبناؤنا ما كان عليه آباؤهم... وَحْدَهُ جيلُنا يعي بعمقٍ وتَفَهُّمٍ ما عانى من الجهل والحرمان والتسلّط والوجع والقهر.. وكان للكلّيةِ الجعفرية ومؤسّسها ومديرها وأهلها الريادةُ والنضالُ والجهادُ والكفاحُ على مساحة وامتداد الوطن ساحلاً وجبلاً وشمالاً وجنوباً وبقاعاً...

يا أبا محمد، يا ابنَ الأكرمين... أيُّها العالمُ المتواضعُ البعيدُ عن حبِّ المظاهر... لمثلِكَ تُحنى الرؤوس، وتُقرع الأجراس... بالله عليكَ أطلَّ علينا من عليائك.. فهذا بلدُكَ قد ملأتْهُ آلاف المدارس ومئاتُ الكليّات وعشراتُ الجامعات... ها قد نَعمَتْ أقاصيه بالماءِ والكهرباءِ وواسعِ الطرقات... ها هم شبابُهُ يتوزّعون على صنوف العلوم والآداب والاختصاصات... لكننا أنّى كنا، وإلى أين وصلنا... سنبقى نذكر بامتنانٍ وفخارٍ وعرفانٍ أن هذه السوامقَ من البنيان والمعارف ما قامتْ إلا على الأساسِ الذي بنيْتَ، والركنِ الذي شيّدْتَ أنت والطيبون من أهلك... فسلام عليك حيث أنت في رحاب الرب الكريم!

إلى معلمي
جميل جابر بزّي رسالة وفاء*

... «وأنـا الـذي أحـيـا الـوفـاءَ لـعـاجـزٌ
عـنْ أنْ أفـيـكَ الـواجـبَ الـمـسـؤولا

يـا هـاديَ الـنـشءِ الـجـديـدِ ومـنْ غـدا
نـجـمـاً هـدى لـلـتـائـهـيـنَ سـبـيـلا

يـا مـنْ بـهِ شـوقـي يـقـولُ مـرنّـمـاً
كـاد الـمـعـلـمُ أن يـكـونَ رسـولا...!!

أنا بعضُ الزرعِ الذي غَرَسْتَ، نما في كرْمكَ المتماوجِ خيراً وعلماً، وعبَّ من وفير غلالك بركةً وحُبا...

أنا منْ فَيْضِ معينِكَ نهلتُ، ومنْ دَفْق كرَمِكَ اكتَسبْت... أولستَ من فَتَحَ عينيَّ على نورِ الحرفِ، وضياء الكلمة، وملأَ نفسيَ معرفةً ويقينا...

(*) ألقيت في ذكرى أسبوعه في نادي بنت جبيل في حارة حريك.

حنانيْكَ أيّها البعيدُ القريب!!... قلْ لي بربكَ كيفَ علّمتَني أن أطلبَ مزيداً فلا أشبَعُ، وأنْشُدَ رِيّاً فلا أقنع... ويبقى أبداً يشدُّني شوقٌ جامح إلى عطاياك!!

أيها الحاذقُ الماهرُ تعالجُ لينَ النفوسِ وخبايا المواهب، تفتّشُ عن الومْضةِ اللاّمعة، تَبْحثُ عن الطاقةِ الكامنةِ لتكتشفَ الإنسانَ في هذا الصغير وأنتَ تُقَوْلِبُهُ بين يديْكَ اللتيْن أخذتا عن ربِّهما سرّ التكوين!!!

لقد جئتُكَ بالأمس طفلاً صغيراً.!! أتُراكَ تذكرُ ذلك اليومَ أم تُراه عَبَرَ في بالك دون تَثاقُلٍ كما تمرُّ الأيام؟!

أمسِ هذا، كان لخمسين عاماً خَلَتْ... أخذَ الطفلَ أبوه إلى المدرسة... كان صغيراً، حالماً، خائفاً يُحمَلُ إلى عالم مجهول... وكلُّه أملٌ أن «يجمعَ الحرف» ويتعلّمَ القراءة والكتابة...

والمدرسةُ يومئذٍ كانتْ الوحيدةَ في البلدة، وأكبرَ مدرسةٍ في الجوار، فيها أعلى مراحل الدراسة صفُّ الشهادة... الصفُّ الخامس ابتدائي... ولم يكنْ يُنافسُها إلا بعضُ كتاتيبَ لتعليم القرآن. وكان مبناها القائمُ حالياً والهرِمُ يتألف من أربعِ غرف يفصلُ بينها ممرٌّ عريض...

سأحاول أيها السادة أن أصوِّر لكم مدرستَنا في الأربعينيّات، وأنقلَكُم إلى محيطِها الجغرافيِّ وجوِّها الاجتماعيِّ، وإطارِها الزمنيّ...

في تلك الأيام (في مطلع الاستقلال)، كانتْ بنت جبيل تموجُ بحركةِ الحياة، وهي التي ناضلتْ طويلاً من أجله، وتحمّلتْ وعانتْ ودفعتْ من دمِ أبنائها في سبيله، وعَرَفَ قادتُها السجونَ والمعتقلات...

كانت يومَها بلا ماءٍ ولا كهرباءٍ على هامش الوطن... تعيشُ بكرامتها على حافّة الحاجة... كانت تعيشُ على الزراعة وبعضِ المهن البدائيّة ولم يكنْ بين أبنائها طبيبٌ واحد ولا محامٍ ولا مهندسٌ ولا موظفٌ كبير... كانتْ خارج اهتمام الدولة، وخارج دورة الحياة...

والعلمُ يومئذ كان تَرَفاً اجتماعياً... محصوراً بفئةٍ معينة أو طبقةٍ معيّنة... كان أمنيةً كالسّراب وحُلماً لا يُدرَكُ وفي مطلق الأحوال، بعيداً عن بنت جبيل... حيث كان الأهل بحاجة لمعونة أولادهم ولو كانوا - صغاراً - كانت (الصنعة)[1] مدرسةَ الفقراء ومصدرَ الشَّبَع للأهثين وراء الرّزق الحلال...

بنت جبيل في مطلع الأربعينيّات كانت غيرَ ما هي عليه اليوم...

كانت رغم الفقر والغربة عن الوطن تغفو وادعةً، تنام مطمئنةً، وتستيقظُ آمنةً حالمة... فهي تتكىءُ على كتفِ فلسطين، وتتنشّقُ عبيرَ الجولان، وتشمُّ رائحة التّبغ في جبل عامل، وزهرَ الليمون المنبعث من سهل صيدا وصور... كانت حياتُها رخيةً هانئةً كأحلام العروس...

---

(1) الكندرجيّة.

وكنا في المدرسة لا نتجاوز المئة تلميذ، من البلدة وكلِّ الجوار، يأتي التلاميذ سيراً على الأقدام من بيوتهم وقراهم حاملين كتبهم وزادَهم ويعودون مساءً مثقلين بالآمال والتطلّعات والعَرَق والتّعب اللذيذ... والطفلُ الصغير كان يومئذ في السنة الثانية الابتدائية... كان يتمنّى أن يتعلّم، ويكبُرَ ويحلمَ أن يصبح معلماً... كان المعلمُ غايةَ المنى، وأقصى ما يصل إليه خيالُ طفلٍ من تطلعات...

وكان المتعلمون (علماً عصرياً) نادرين... ولذلك كان المعلم في نظر الجميع قيمةً لا تُقدَّر... كان كنزاً مرصوداً... وحلماً موعوداً... كان احترامُه يسبِقُهُ عند الناس... وإذا ما دخل الصف كانت عيوننا تَتَسلَّقُه، وتتعلقُ بالحركةِ والخلجةِ تصدران عنه... كنا نحلم بالتفاتةٍ منه، نغتني ببسمةٍ يخصُّ بها أحدَنا، نطيرُ فرحاً إذا قرّبنا منه، نسعَدُ إذا عيَّنَنا (وكيل صف) ويزهو أحدُنا على رفاقه إذا كان أثيراً لديه، أو قريباً له أو مقرّباً منه... ونرتعدُ خوفاً إذا هدَّدنا أهلُنا به...

كان المعلم طمأنينةَ السكينةِ إذا وادع، ورعبَ القلقِ إذا غضب... كان مثلاً أعلى في عالمٍ مسحور، ووعداً أين منه أحلام المحبين!!

هكذا أطلّ علينا في أحد الأيام معلِّمُنا الجديد... شابٌ أجعدُ الشعر، وسيمُ الوجه، حلوُ القسمات، أنيقُ المظهر، ثابتُ الخطى... لم نكنْ بحاجةٍ لنهدأ؛ كان اسمُ المعلم يُخيف (حتى ولو كان جميلاً)... كان له احترامٌ وتقديرٌ ومهابة...

معلمُنا الجديدُ كان لا يفارقُنا... كلَّ يوم نبدأُ معه ونبقى معه

ونتهي معه، هو معلم كلّ المواد: اللغةِ العربية والفرنسيةِ والحسابِ ودروسِ الأشياء والتربية الوطنية والخطّ والرياضةِ والأشغالِ اليدوية... هو النبعُ الدافق يروي ظمأنا، والكتابُ الناطق يُنير أيامنا.

بيننا وبينه تواصلٌ وتفاعلٌ وتناغم، كان يفتحُ قلبه ويُغدقُ منه علماً وحناناً وحبّاً، كان يذيبُ نَفْسَهُ ليَهَبَنا أدباً ومعرفةً وثقافة... كانتْ عيونُنا ترعاه، وأهدابُنا تحتضنُه ونحنُ نحاولُ أن نلتقطَ ما يعطينا ونجهدَ أنْ نتمثَّلَهُ ونحفَظَهُ ونترنّمَ به..

كان معلماً وأباً وصديقاً... يعطي بلا منّة، يحاول أن يسكبَ ذاته في ذواتنا... أكادُ اليوم - رغم نصفِ قرنٍ انقضى - أسمعُ رناتِ صوته ووقعَ خطاهُ وهو يتنقّلُ بين طاولات الصف، أكادُ ألمحُ خطَّه المميَّزَ على اللوح الأسودِ أو على دفاترِ الصف أو دفترِ المناوبة... أكاد أحسُّ أنفاسَهُ وهو يتحرقُ ليفهمَنا قاعدةً أو ليوضحَ مسألة...

خمسُ سنوات وأنا مسافر معك يا معلمي... بقيتَ معنا ونحن نُرفَّع من صفوفنا حتى صف الشهادة... كان حقاً سَفَراً حُلواً، مريحاً، غنيّاً، واعداً... جميلاً... صوتُك لا يزال يتماوجُ في خاطري... واصلاً طفولتي بأيامي هذه وقد فصل بينهما أكثرُ من نصفِ قرن من الزمن... لقد سقط الشعر الأحمر وابيضَّ تماماً ما تبقّى منه وأصبحَ الطفلُ الصغيرُ وأترابُهُ ورفاقُهُ كبارَ السن... وما زال وما زالوا جميعُهم يحفظونَ لكَ وعنْك أجملَ الذكريات. فها أنتَ معي وأنا أقرأُ أو أصغي أو أُنشدُ أو أتأمّل... تُطلُّ عبْرَ الحروف ومن المعاني... تُطلّ من كلِّ أداءٍ جميل...

أنا مدينٌ لكَ يا معلمي بنورِ المعرفة لأنّكَ أولُ من أضاءَ الكلماتِ أمام عينيّ، وفتحَ بصيرتي على هذْيِ العلمِ وفضيلةِ الخُلُق القويم.

صدّقوني أيها الأخوة أن هذا الطرازَ من المعلمين أصبح نادراً... كان معلمُّنا في الأربعينيّات قيمةً تتحركُ وثقافةً تمشي... كان دنياً من المعرفة والاطلاع...

أنا أحنّ إلى الماضي... إلى المعلم الذي ثقّفتْه الحياةُ، وغذّاه التراثُ وهداهُ القرآن وهذّبَه الحديث، وأمدّتْه كتبُ السّلف بكل غالٍ ونفيس... أحنّ إلى المعلم الذي طالَعَ وحصَّلَ واستوعبَ وبقيتْ له شخصيتُه وأصالتُه فلم يقعْ أسيرَ التّقليد الأعمى والتبعيةِ البغيضةِ... أنحني أمام هذا المعلم الذي لم يتهجّنْ، ولم تأخُذْهُ صرْعاتُ التغريب... في أيامنا هذه ازداد انتشارُ العلم **وقلَّ المثقفون. كَثُرَتِ** الشهاداتُ **ونَدَرَ العلماء...** انتشرنا **بكثافة على السطح** ولم نعدْ نغوصُ في أعماق المعرفة والثقافة والتحصيل...

ويا أيها الراحلُ الكبير

ها نحنُ من هنا نسافر بخيالنا إلى حيث تقيم... إن حواجزَ وموانعَ تفصلُنا عنكَ... أتَرَى معي أن الوجَعَ يلفُّ حياتنا... وأنَّ الغربةَ تُلْهبنا بحرقتها...

... البلدُ الذي درجْنا فوقَ ترابه يئنُّ من ألمِ المعاناة...

... مرابعُه، كلُّ مرابِعِهِ... تشتاقُ حركةَ الشباب، وطمأنينةَ

الإقامة، وحريَّة التنقّل... والناسُ... كلُّ الناس، المهاجِرون والمهجَّرون قسراً أو رضاء... يحلَمون بالعودة مع ذكرياتهم وأحلامهم وآلامهم وآمالهم...

صدِّقْني أن الأرضَ تَشْتاقُ لأهلها... وأن البعيدينَ برَّحهمُ الشوقُ وأضناهُمُ الفراق...

لقد أنهَكَنا البِعاد... وحرَّقَنا هذا الحزنُ المقيم... لكأنَّ كربلاء سكنتْ أوصالنا، وسويداءَ قلوبنا، حتى نسينا كيفَ نفرح... ولم نعدْ بالتالي نَسْتَوْعِبُ كيفَ يفرحُ الآخرون!!!

يكفيك يا أبا سامي أنك عُدْتَ إلى بلدك...

ها أنت اليوم تنامُ في إغفاءةٍ طويلة... يلفُّكَ الترابُ الذي أحببتَ... أترى معي أن للترابِ هناك رائحةً عُلويةً فيها عبقُ الأرض وعنفوانُ الكرامة وهُيام الشوقِ... إنه ينادينا من البعيد... ونحن نحلم ونتمنى أن نعانقه كما عانَقْتَهُ في غفوةٍ هانئةٍ كما جنان عدْن!

11 تموز 1993

بشر جابر سلام عليك*

حدث ذلك منذ ثلاثين عاماً. كنا لا نزال في ريعان الصبا، نحملُ ما لا طاقة لنا به من الآمال والأحلام والتّطلعات. كنا رفاقاً ملتزمين، تجمعنا المثل العليا، تشدُّنا أهدافٌ نظنّ أنها قريبةُ المنال. كنا في ربيع أعمارنا، شبّاناً طامحين حالمين، مؤمنين ببناء غد واعد يجهدُ كلٌّ منا أن يخطَّ لنفسه مستقبلاً ويبنيَ موقعاً ويؤمِّنَ كفايةً تقيه حاجةَ الآخرين.

في ذلك الوقت ـ منذ ثلاثين عاماً ـ كان التعليم الجامعي لا يزال حكراً على الطبقة الميسورة ومواقع النفوذ بحيث يصعب أو يستحيل أن يتوصّلَ متوسطو الحال، أو الفقراء، إلى الجامعات واقتحام ميادين التخصّص العلمي. يومئذ كان على المتفوّقين المحتاجين أن يخضعوا للواقع الأليم، ان يستسلموا للحرمان، أن يدفنوا مواهبهم التي لم يُكتب لها أن تتحقّق. كان عليهم أن يغيروا وجهةَ سيْرِهم، ونمطَ حياتهم وينقموا ويثوروا ويتمرّدوا على كلّ شيء.

(*) نشرت في جريدة النهار 12 حزيران 1999 ص20، في الذكرى السنوية الأولى لغيابه.

في ذلك الوقت، منذ ثلاثين عاماً، نجح طالبٌ متفوقٌ من هذه الشريحة الاجتماعية في امتحان الرياضيات. نجح رمّال رمال، كان الأولَ بتفوّقٍ بين أقرانه، استُدعي إلى وزارة التربية. وُعدَ بمنحةٍ للتخصّص في أيّ جامعة أو أيّ فرعٍ علمي يختاره. جَمَعَ أغراضَهُ المتواضعة وحقيبته استعداداً للسفر إلى فرنسا. وانتظر. انتظر طويلاً. وراجع الواعدين وقابلهم. وابتدأتِ السنة الدراسية. وتبخّرَ الوعد، وتراجع الواعدون!!!

وكان رمّال رمّال - هذا الذي أصبح لاحقاً العالم الكبير - يتحرّق ويتوجعُ، ومعه كان كثيرون - فضلاً عن أهله - من الذين عاشوا مأساته يعانون ويتألمون. وتنادى بعضُ الرفاق ليأخذوا على عاتقهم إكمال دراسته. واقتطعوا مما اقتصدوه وأرسلوا «رمّالاً» إلى فرنسا ليصبح لاحقاً العالم الفيزيائي النووي النابه والنابغة.

يومئذٍ عَبْر هذه المعاناة وُلدتِ الجمعيةُ الإسلاميةُ للتخصص والتوجيه العلمي، لتأخذَ على عاتقها المتفوقين المحتاجين، لتتفرَّغَ لهؤلاء الموجعين وتطلَّ بهم ومعهم على رحاب المعرفة وميادينِ التحصيل حيثُ العلم كالهواءِ مباحٌ لكل الناس لا حكراً على أصحاب الحظوظ والنفوذ.

في ذلك الوقت - منذ ثلاثين عاماً - قدم من دنيا الاغتراب بشر جابر - شابٌ في مقتبل العمر، جميلُ الطلعة، حَسَنُ الخَلق والخُلق، حُلْوُ المعشر. جاءنا بقلب مفتوح، ونفسٍ كريمة. جاءَ ينضمُّ إلى الرفاق الأوائل - وكان أخوه المحامي أسامة واحداً منا - جاء يضع

إمكاناته الماديّةَ الكبيرةَ في تصرّف الجمعية. كان معنا كريماً حتى الإسراف، وكان خلوقاً حتى التسامح كما كان محباً حتى الإيثار.

بشر جابر كان طرازاً فريداً من الرجال. أحببناه كلُّنا. حملناهُ إلى رئاسة الجمعية التي غَدَتْ همَّهُ وطموحَه ومعقِدَ آماله، وهاجِسَهُ وجزءاً من بيته وأسرته. وبقي بشر جابر الرئيسَ الأولَ ـ بتقديرٍ من الجمعية ـ ولعدّةِ سنوات. وكان بيتُه في بيروت وبرمّانا مقراً لها كما كان كذلك مكانَ اجتماعاتِنا ولقاءاتنا... ويوم كانت الجمعية حديثةَ العهد، طريةَ العود، كان رئيسُها ـ شأن كلِّ الأعضاء ـ يسهرُ على سيْرها؛ يعطيها من نَفْسِهِ وماله وجُهده، ويشعرُ بسعادة غامرةٍ وهو يراها تخطُّ طريقَها. وتبني لنفسها مكاناً وتستحوذُ على ثقة الناس.

وسافر بشر جابر رئيسُ الجمعية، عندما عصفتْ بالوطن أحداثٌ ومؤامراتٌ، وانتشر جنونُ التّدمير العبَثي. سافرَ بعيداً من جديد، وحمل معه أحلامَ الجمعية كما حَمَلَ أوجاعَه وأوجاعَ الوطن المحترق. وكان خلال فترةِ بِعادِهِ التي طالت يتابعُ أخبارَ الجمعية التي أحبَّ، ويتابع مسيرتَها الرائدةَ بعد أن أعطاها تعباً وعرقاً وحباً، كما بادَلَتْهُ تقديراً وعرفاناً ووفاء.

وفي مثل هذه الأيام من السنة المنصرمة وفي دنيا الاغتراب، سافر بشر جابر الرئيسُ الأولُ للجمعية، إلى غيْرِ رجعة، إلى دارٍ أخرى فيها الحقُّ والعدالةُ والإحسانُ والوفاءُ؛ ترجّل الفارسُ الأشقرُ باكراً قبل فواتِ الأوان. سافرَ وخلَّفَ لأسرته ومحبّيهِ وجعاً وأسىً وحسرات.

يا أبا نزار. أيها الأخُ الحبيبُ، لكَ شوقُنا وحبُّنا... لكَ منّا تحيةُ عرفانٍ ووفاء. وسلامٌ عليك حيث ترقد وقد حضنَك الترابُ الذي أحببت.

للدكتور محمد مهنّا تحية وفاء*

أكثرُ ما يوجعنا في رحلة العمر رحيلُ عزيزٍ أو قريبٍ أو صديقٍ يخطفُهُ الموتُ من بين أيدينا ويتركُنا مقهورين أمام الحدثِ المؤلم... ومع هذا الغياب الحزين نشعرُ أنه أخذ معه كذلك بعضاً من ذواتنا، وردحاً من عمرنا، وخلّف لنا ذكرياتٍ تثير الأشجانَ وتُشعلُ غليان الداخل.

مع غياب الدكتور محمد مهنّا، الصديقِ الأثير، نَفْتَقِدُ الطبيبَ الواثقَ من نفسه، ومن علمه، والإنسانَ المنفتح على النّاس، كلِّ الناس، بُسَطائهم وفقرائهم، موجعيهم ومحروميهم، مثقّفيهم وميسوريهم... بنت جبيل تَذْكُرُهُ منذ منتصف خمسينيّات القرن المنصرم، طبيباً دَخَلَ معظمَ بيوتها، وعالجَ الكثيرَ الكثيرَ من مرضاها، وأشرفَ على ولادة أجيالٍ من أبنائها، وتابعَ رعايتَهم وتطبيبَهم؛ وطالما اعتَّزَ وفاخر أنه يعتبرُ نَفْسَهُ فرداً من كلِّ أسرة، كما يعتبرُهُ كلُّ بيتٍ في بنت جبيل ابناً باراً من أبنائه، وهذه لعمري مأثرةٌ تميَّز بها

(*) نشرت في جريدة السفير في حينه.

الراحلُ الكبير الذي استمرّ يشاركُهم أفراحَهم وأتراحَهم وكلَّ مناسباتهم الاجتماعيّة.

الدكتور محمد مهنّا، رفيقُ الصباحات الباكرة على كورنيش البحر، صاحبُ الإطلالة الحلوة، الغنيُّ بعلمه وكريمِ خُلُقه ووفرةِ أصدقائه وكثرةِ محبّيه، سنفتقدكَ مع طلوع الفجر، ومشوار الرياضة، ورفقة الأوفياء، والحديث الراقي، والسّهر على تخفيف أوجاع المتعبين.

الدكتور محمد مهنّا

فاجأني غيابك، أوجعني وخلّف في نفسي سوادَ الأحزان... لك منّي ولإخوتك الذين أقدّر ولأسرتك ـ وقد باعَدَتْ بيننا المسافات كلُّ المحبّة والوفاء.

بوسطن ـ 24 كانون الأول 2006

رفيقنا في الوحشة
وليالي الرعب حين كانت*

إلى الصديق الأخ رياض شرارة

أيها المسافر على عجلٍ... رَحماك... تمهَّلْ قليلاً... فما آن وقتُ الرحيل.

ها نحن على موعدِك الأخضرِ كما عَوّدْتَنا في كلّ لقاء قريب.

ينتظرُكَ قَبْلَنا صغارُنا ـ أطفالُنا والأولاد ـ حفظوك.. حضنوك في مُقَلِ العيون.

سيّجوا حَوْلَكَ بأهدابِهم، وجعلوا مُهَجَهُمْ لكَ مرتعاً نديّاً.

ها صوتُك الحبيبُ يملأ بيوتنا، يتجاوبُ في أعماقنا. اعتَدْناهُ وألفْنَاهُ، كما التراتيلُ والابتهالاتُ في طهارة المعابد.

هذا وجهُكَ الصبيحُ مطبوعٌ أبداً في سواد عيوننا، وإطلالتُك

(*) نشرت في جريدة النهار في حينه بهذا العنوان.

المحبَّبَة مرسومةٌ في مرايا نفوسنا، وأحاديثُكَ الشجيَّةُ يَرِنُّ رَجْعُها في ذواتنا، حتى لكأنَّكَ عنوانُ السَهَرِ، وهَمْسُ السمرِ، ونجاوى الليل.

أيها القادمُ علينا عَبْرَ أحلى المواعيد بلا استئذانٍ، يا رفيقنا في الوحشةِ وليالي الرّعبِ وأيامِ القصف. يا مؤنساً وحْدَتنَا، ومؤاسياً وَجعنا، ومُبَلْسِماً آلامنا، أيها العابرُ فوق الحواجز، الواصلُ بين المتباعدين، الموحِّدُ بين المتخاصمين. يا حاملاً بَيْن جوانحه حُبَّ الناس، جميعِ الناس، «يا بائعَ الضّحك» وموزِّعَ الفرح وناثرَ أحلى النّكات. قلْ لي بربك كَيْفَ توصَّلْتَ أن تكونَ ابناً في كلِّ أُسرة، وفَرْداً في كلِّ بيت، والأحبَّ الأحبَّ بين الأهل؟!

يا أخي الراحل على عجل...

بقدر ما أحبَّكَ الناسُ بكَوْا دماً لفراقك. أعطَيْتَهُمْ حتى الأمس القريب الابتسامةَ والفرحَ والهناءَ. وأخذتَ منهم يومَ رحيلك الوجعَ والحرقةَ وعصيَّ الدمع.

دخلت على حياةِ كلِّ أسرةٍ ولداً منها. وَودَّعَتْ لَدُنْ فَقَدَتْكَ بعضاً من قلبِها وأُنسِها. فأنت الذي كنتَ بخفَّةِ ظِلِّك ورشاقةِ روحكَ، تُثَقِّفُ الناسَ وأنتَ تداعبُهم، تعلّمُهم وأنتَ تلاعِبُهم، وتسكبُ في حياتهم الفرحَ والألَق والابتسامَ.

يا رفيقَ كلِّ الناس أيامَ المِحنِ والشدائد، يا مسافراً بهم في آفاقِ المعرفة، هلْ تعلمُ أن الكثيرينَ - من الذين يعرفونك ولا تَعْرِفُهم - ذابوا وجداً عليكَ وَتَمَلَّكَهُمْ حزنٌ مقيمٌ غائرٌ في أعماقهمْ وهم ذاهلونَ

لا يصدّقون أن القلبَ الفَرِحَ تَوَقَّفَ. وأنهم بعد الأحدِ الحزينِ لن يَرَوْكَ لأن مشغرةَ الحزينةَ غامَ بَدْرُها لَدُنْ انطفأتْ شرارتُها المتألِّقة.

يا أنيسَ المجالس... وحبيبَ كلٍّ الناس.

مِثْلُكَ لا يتكرّرُ بسهولة، تركتَ لنا بعد سفرِكَ الباكرِ وجعاً مقيماً لا يعادلُهُ إلا الحبُّ الذي حملْناه لكَ في أعماق قلوبنا.

في رثاءِ الصديق خليل صادر*

أيها الأخوة

كان بيني وبين خليل صادر صداقةٌ ومودّة.

والصداقةُ نابعةٌ من الصدق، الفضيلةِ التي لا تعرِفُ المصلحةَ والأنانيةَ والانتهازيةَ، وتربِطُ بين الإنسان وأخيه بعرىً لا تنفصمُ وبمحبةٍ تترسخُ مع الأيام.

وإذا كانتِ الأخوّةُ قَدَراً موروثاً مفروضاً، وصلةَ دم (تتحكّم) بعلاقاتِ أبناء الأسرة الواحدة؛ فإن الصداقةَ تختلفُ عنها بأنها انتقاءٌ عاقلٌ واختيارٌ واعٍ، مَثَلُها مثلُ الحبّ، في كلّ منهما تتوحدُ الأمزجةُ وتتناغَمُ الأفكار وتلتقي الخياراتُ، فتتهامَسُ المشاعرُ وتتشاركُ الأحاسيسُ وتُزهِرُ الآمال.

أنا أزعمُ أن روابطَ الصداقةِ المنتقاةِ قد تتجاوزُ أحياناً روابطَ الأخوَّةِ المفروضة، لأنها قيمةٌ إنسانيةٌ وكنزٌ أخلاقيٌ لا يُدرِكُ أبعادَهما وغناهما إلا القليلون الذين يحملون شيئاً من أسرار طهارة القدّيسين،

(*) ألقيت في ذكرى أسبوعه بتاريخ 30/ 10/ 2005.

الصفوةِ من عباد الله! ومن هذا المنظور اعتقدَ العرب أن الخِلَّ الوفيَّ أي الصديقَ الصادق، أحدُ المستحيلات الثلاثةِ إلى جانب الغول والعنقاء!!

ومن باب الصداقة سأحاول أن أطلَّ على خليل صادر الإنسانِ الطيبِ النظيف.

يا أخي خليل

في خاطري ضَوْعٌ من عَبَقِ شذاك، وفي عينيَّ إطلالةٌ من ألَقِ رؤاك، وفي مسمعي أصداءٌ من شجيّ حديثِك لدى لقياك، وفي فؤادي كآبةٌ من وجَعِ ذكراك، وأنا أمامكَ في دُوارٍ حائرٍ وارتحالٍ أليم! فبالله عليكَ أيها الحبيبُ الخليلُ قلْ لي من أيِّ زاويةٍ أدخلُ عليك وأنتَ في وجدانِ الخاطر ونورِ العين وشَجنِ السمع ومهجةِ القلب.

يا أخي خليل

هي المرةُ الأولى التي آتي إليك فيها ولا ألقاك!... يا مسافراً على عجل، رُويدَك قليلاً فما آن زمنُ الرحيلِ ولا دنا موعدُ الفراق!! أتُراك أتْعَبَكَ الدربُ وأضناكَ المسير، فأردْتَ أن تنعُمَ بإغفاءةٍ يسيرةٍ حتى إذا أطبَقْتَ جفنيْك، وآنستَ بعضَ الراحة، سَرَقَتْك الإغفاءةُ وأخذتْك إلى نومٍ طويل، وما دَرَتْ أننا وإياك على موعد، وأننا ما زلْنا على أمل اللقاء!.

أيها الأخوات والأخوة

صدّقوني أنني لا أذكرُ كيفَ تعرّفتُ على خليل، لكنني أذكر جيداً

أنني في ذلك اليوم شعرتُ أنني عثرتُ على صديقٍ عندما الْتَقَيْتُه، وربما كانت مصادفةً نادرةً أن الشاب كان اسماً على مسمّى، كان بالفعل خليلاً يتسلّلُ إلى القلبِ، وترتاحُ له النفس، وتأنسُ به المجالس...

أحسستُ يومئذٍ ومن اللقاء الأولِ أنني أعرفُهُ منذُ زمن بعيد... فهو إنسانٌ طيّبُ القلب، حلوُ المعشر، دافىءُ اللسان، نظيفُ الطويّة، لا يعرفُ الحقدَ والبغضاءَ، متواضعٌ، فيه مروءةُ البسطاء، وطهارةُ المتعبين، وتطلّعاتُ الحالمين!! ووجدتُني أقولُ فيه كما قال المحامي الأديب سليم باسيلا في صديقه جان سالمه: «ويشاءُ زمانُك أن تعرفَ خليلاً وتتعرَّفَهُ، فيتعصبَ لك تعصّبَ صديقٍ لصديقه، ويرتاحَ إليك بأُنسِهِ، وترتاحَ إليه بأنسك، وتسكنَ إليه ويسكنَ إليك حتى إذا تأكّدَتْ بينكما أسبابُ المودّة، آثَرَكَ بحبّه، وآزَرَكَ بخُلُقه، واتّفقتْ بينكما أيامٌ طوالٌ ملاح»... لكن أيامنا يا صديقي رَغم طولها لم تكن ملاحاً، كانت بمعظمها أياماً سوداً عَصَفَتْ بالوطن وكادَتْ تمزّقُ أوصالَهُ وترهِقُ أبناءَهُ وتُفقِدُه توازُناتِه!!.

وكان تواصلُنا، رغم المِحن والأحداث، ينمو ويتسامق، وراحتْ ندواتُنا حولَ سماور الشّاي وفي جلْساتِ السَّمَرِ تتوزعُ بين بيوتنا وقرانا المنداحةِ على الثرى العامليّ كشرايينِ القلب، المتجاورةِ كمسامّ الجسد، المتعانقةِ كأنفاس المحبين في تجلّيات وَجْدِها، وهي تسبّحُ الخالقَ على إيقاعِ أصواتِ النواقيسِ المتجاوبةِ مع تكبيراتِ المآذن في وحدة الوجود!!.

كانتْ صداقتُنا تتجذّرُ وتتعمقُ مع الأيام، كانتْ صداقةَ العقل المنفتحِ والفكرِ المتنوّر والروحِ المسالمة، كانتْ صداقةَ الحوار وقبولِ الاختلاف واحترامِ الرأي الآخر، بعيداً عن العصبيّةِ والتشنّجِ والرفض!!! كانتْ آراؤنا متحررةً من معاقل الغريزة والعنف والبغضاء، كانتْ هذه الصداقةُ نمطاً من التواصل الحميم، أو كما أسماه الدكتور منوال يونس نوعاً من التداخل النادر بين النفوس، حيث تتناغمُ الأرواحُ وتتهامسُ المشاعِرُ حتى لكأنها نبتةٌ نادرةٌ لا تنمو إلا في مناخ الفضيلة.. كانت صداقةً تتجاوزُ الصلةَ بين قلبين وبين عقلينْ، لأنها بالواقع خروجٌ من عزلة الذات إلى ذوات الآخرين لتنفتحَ على العالم الأوسع... الصداقةُ هذه تكافؤٌ وثقةٌ متبادلةٌ بين الرفاق تشيعُ في النفوس الطمأنينةَ والسلامَ والشعورَ بالاختلاف الذّاتي، إنها قيمةٌ روحيةٌ تقتاتُ من ذاتها، كما رآها الدكتور منوال يونس، ولا تسعى إلى خارج معطياتها، إنها الكنزُ الثمينُ الذي لا يَعْرِفُ قَدْرَهُ إلا صانعوه، لأنها فيضٌ من سخاء روحي، ومصدرٌ للخير والمشاعرِ النبيلة.

خليل صادر كنا نختلفُ معه ونتفقُ معه في كثير من الآراء، كنّا نتحاورُ ويَقْبَلُ كلٌّ منا رأيَ الآخر، كنا نتناقشُ ونعرضُ أفكارَنا ووجهةَ نظرنا، ولكنّنا كنّا جميعُنا نبحثُ عن الحقيقةِ؛ والحقيقةُ هذه ليْست حكراً على أيّ إنسان ولا أيّ فئة، الحقيقةُ نتاجٌ يأخذُ من كل الآراء، وفي كل منها نسبةٌ من الحقيقة، ثم يفرض نَفْسَهُ بعدَ الحوارِ بالعقلِ والبرهان!!.

والحقيقة لا تظهرُ ولا تتكرّسُ إلا في مناخِ الحرية التي توفّرُ وَحْدَهَا مساحاتٍ للحوار وتقبَلُ الرأيَ والرأيَ الآخر وتتسعُ لكل شرائحِ المجتمع وتحولُ دون القهر والتسلط والاستفراد.

يا أخي خليل، أيها الصديق والحبيب

هل كنتَ تعلم أنكَ عندما أغْمَضْتَ عينيْك وسرقَتْك الإغفاءةُ إلى نومٍ طويل، أنك أخذْتَ مَعَكَ جزءاً من ذواتنا - نحن أصدقاءك ومحبيك - وزاهياتٍ من ذكرياتنا، وألقاً من أيام قضيْناها سوياً بحلوِها ومرِّها، وخلَّفْتَ غياباً حزيناً ووجعاً مقيماً؟!

أنا أمام هذا الغياب المحرق، يصعبُ عليَّ أن أتصورَ أنك لم تَعُدْ بيننا! وأننا لن نزورَكَ في بيتك، ولن نلتقيَ بك في عين إبل أو بنت جبيل أو بيروت، تأكّدْ أنك، في ذكرياتك أو ذكرياتنا معك، تعيشُ معنا في الخاطر، ونسترجعُكَ في جلساتنا ولقاءاتنا ونكادُ نسمع رنّة صوتك، وآسرَ حديثك، ونتصورُك تطلُّ علينا وتشارِكُنا حديثَنا ونتلمّسُ صدقَ طويّتك ونستعيدُك كلّما افْتقدْنا وفاءً وإخلاصاً وتواضعاً وخُلقاً دمثاً.

أيها الأخوة

أشدُّ الأوجاع إيلاماً رحيلٌ باكرٌ لعزيزٍ على غير انتظار، وسفرٌ طويلٌ لصديق لمّا يَحِنْ أوانُه، أو لم يقدَّرْ له أن يَنْعَمَ بأسرته ويَسْعَدَ بها بعد تعبٍ طويلٍ وكفاحٍ مريرٍ في مغالبةِ الأيام.

هذا السفر يأخذُكَ أنتَ معه لأنه العزيز الراحل الذي يأخذُ معه

من قلبك ونفسك وكثيراً من حبِّكَ وذكرياتكِ لتغدوَ أنتَ الفاقدَ والفقيدَ، المودِّع والمسافر، وتبكيَ نفسك عندما تبكيه...!!

أهكذا وبهذه السرعة ينطفىء القلبُ وتُغْمَضُ العينان وتَهْرُبُ الكلمات وتذوي البسمةُ وتغيبُ الإطلالة وترحلُ الذكريات؟!

نحن شركاء أسرتك وأخوانك وأبناء عين إبل في وجع الغياب فسلام عليك حيث ترقد على رجاء القيامة في اليوم الموعود.

إلى شيخ الصامدين*

بقي الأخ محمد علي شرارة طيلة الثلاثة والثلاثين يوماً التي شكلت حرب تموز في بيته إلى جانب امرأته وابنته، عاشها بالثواني والدقائق والساعات، حاصره الموت والقصف والدمار والرعب ولم يتصور أحد أنه بقي حياً، والحقيقة أنّ الموت استنزفه وأنهكه وتركه ليبقى الشهيد الحي.

عندما تتحدّثُ عن «أبي جمال» ـ محمد علي شرارة ـ فأنتَ يقيناً تفتحُ قلبَك وتغرفُ من مهجتك أصدقَ المشاعر وتستثيرُ في وجدانك أنيقَ الذكريات وزاهياتِ الصور.

فأبو جمال طرازٌ فريدٌ من الرجال، مسكونٌ بنقاء المحبة، وسموّ الأخلاق ورهافة التواصل، عابقٌ بنداوة الإيمان وحلاوة المعشر، مميَّزٌ بدفء العاطفة ونماء الخير، مشاركٌ في الأفراح وتقاسم الأحزان بعفويّة الصادقين وتلقائيّة المحبين.

وأبو جمال سليل أولئك الأتقياء، الزاهدين، والنماذجِ الفريدة التي يُتحدَّثُ عن تُقاها وورعها وتعبّدها وكراماتها، تلك التي لامستْ

(*) ألقيت في ذكرى أسبوعه ونشرت في جريدة السفير بتاريخ 17/ 10/ 2007.

حدود المعجزات، وغدا احترامُها نوعاً من المقدّسات يحلفُ الناس بها ويقسمون!!

أبو جمال الأخ المَشاعُ بين الناس، الصديقُ والرفيق، نفحةُ الخير والنسمةُ الندية المفعمةُ بالأطياب دخلَ كالنسيم كلَّ الجوانح وخرجَ مسافراً دون وداع من كلّ البيوت.

أنه ذاكرةُ بنت جبيل، ومعلمٌ من معالمها، بنت جبيل التي بقي شاهداً على صمودها ومحاولة محوِها طيلة أيامِ العدوان وسط الخوف والرعب والنار والرماد، وعاش فريسةَ العذاب الرهيب، والقلق المخيف... إنه شهيدُ المعاناة وقتيلُ الوجع وضحيةُ الحريق الملتهب المتوالد في الداخل الذي افترسَ جسدَهُ ونهشَ أعصابَه وأتلفَ أحاسيسَه وأرهقَ نبضَ الفؤاد.

ويا أبا جمال، صدّقني أننا لم نستوعبْ سفرك... ها أنت تطلُّ علينا رغم غيابك... تطلُّ عصرَ كلِّ يوم بأنفاسك، ونحنُ نتذوّق نكهةَ شايك، نأنسُ بعذْب حديثك، وصفاءِ جلْساتك، وأناقةِ مواضيعها ودفءِ أحاديثها... ها أنت ما برحْتَ معنا، نتحلّقُ حولك كالعادة في زاويتك الأثيرة في النادي الحسينيّ في بنت جبيل التي لا تزال تعاني آثار العدوان، العدوان الذي أحال قلبَ مدينتنا ركاماً ودماراً، وحاولَ محوَ ذاكرتنا التي طالما سعدتَ واشْتَقْتَ إلى طرقاتها وزواريبها وأحيائها التي درجنا فوق حجارتها، وأثَرْنا غبارها، والتي شهدت أفراحنا وشيطناتنا وتظاهراتنا عندما كان الحوتُ يسرقُ قمرنا، وصوتُ المؤذّن ينهي صيامنا، ومرورُ المعلم يضعُ حداً لبهلوانيّة ألعابنا... لقد

دمّروا ومزّقوا سجلَّ أيامنا، وسرقوا أحلامَنا لكننا لم نرفعِ العلمَ الأبيضَ بل كتبْنا بالدم، بالأحمر القاني، تاريخَ صمودنا وعزّتنا.

... ها نحن نفتقدُ بغيابك معلماً من معالم بنت جبيل، وركناً دافئاً نتفيّأ ظلالَهُ ونرتاحُ في أفيائه، نفتقدُ كلَّ يومِ جمعة زيارةَ الأرحام، ويفتقدُ كثيرون، تعرفُهم ويعرفونك، نفحاتِ الخير التي تحملها يمناك ولا تدري بها يسراك!!.

تأكّدْ أنك أخذتَ برحيلك جزءاً من ذواتنا، أخذتَ معك ردحاً جميلاً من حياتنا، وزاهياتٍ من ذكرياتٍ تقاسمْناها سوياً، وخلَّفْتَ وجعاً يحفرُ في الأعماق... وأنا متيقّنٌ أنني أرثي نفسي وأرثي بعضَ الرفاق الأتراب عندما أرثيك وأبكيك.. وسلام عليك حيث تقيم يا أعزَّ الرفاق وأندرَ الأصدقاء.

في وداع حبيب كركي*

«يا أخي حبيب

يا مسافراً على عجل... رويدك قليلاً... فما آن زمنُ الرحيل، ولا دنا موعدُ الفراق.. أتُراك أجْهَدْت ذلك القلبَ الكبير، وأتعبْتَهُ فوق الطاقة، وقدرة الاحتمال!!؟

تمهَّل يا أخي، فنحن ما زلْنا على موعدنا الأخضر ننشدُ بعضَ الراحة وقد أنْهَكَتْنا وعورةُ الطريق...

لقد بدأناها معاً لأربعين عاماً خلت، وكنا يومذاك في ربيع العمر نحملُها مُثُلاً علياً، ومبادىء ساميات، وأحلاماً زاهيةً، وآمالاً وِضاء!!

تلكَ الأيامُ الصعبة يا أخي طَبَعَتْ جيلنا، جيلَنا الذي عانى، وناضل، وجاهد وعرق وتعب ووصل ليلَهُ بنهاره بتصميمٍ عنيدٍ وما عَرَفَ السكينةَ ولا الراحةَ أملاً بالغدِ الموعودِ والمواسمِ المرصودة...

أنت يا أخي... تذْكُرُها جيداً تلك الأيام... لا تزال في وسط

(*) نشرت في السفير 23/ 12/ 2000، بمناسبة رحيل الأستاذ حبيب كركي.

دوّامتها، تعطي من مهجة قلبك، وسوادِ عينيك، ووميضِ فكرك، ونُبلِ نفسك، وطهارةِ طويّتك، وخفيفِ ظلّك، وإشراقةِ روحك!!

باالله عليك اسألهم!! اسأل تلاميذك على مدى السنوات الأربعين، وقد أخذوا عنك علماً وافراً، وخلقاً رفيعاً، واستقامةَ سلوك وأثراً خالداً كما أَلَقُ الضياء، وعرفان الوفاء!!

حنانيك أيها الحبيب.. فأنت لمّا تَرْتوِ بعد، ولما تُكحِّلْ ناظريْك بأبنائك فما زالوا يأملون أن تراهم كما حلمت، ولم يُقدِّروا أنك سوف تغادرهم فجأة على غير موعد...

يا أخي حبيب! أتعلم أنك أخذت معك بعضاً من قلوبنا، ونوراً من عيوننا، والأحلى من الذكريات... لن أقول لك وداعاً يا أبا ربيع بانتظار اللقاء الذي طالما كنا أنا وأنت نأنس به ونرتاح.

مرتضى شرارة أتراك اشتقت لتراب بلدك؟!*

مع نهاية الربع الأول من القرن المنصرم، وفي بيتٍ متواضع بسيطٍ مؤسَّسٍ على التقوى ومخافةِ الله وُلد الطفل السادس للشيخ علي شرارة فأسماه «مرتضى» وكان خامسَ إخوتِهِ الذكور.

في ثلاثينيَّات تلكَ الأيام ـ ومرتضى طفلٌ يافع ـ كان يتحلَّق حولَ «سماور» بيتهم ـ الذي لا تُنسى نكهةُ شايه ـ حلقاتٌ أنيسةٌ لجلسات ممتعة، يُتناولُ فيها الفقهُ واللغةُ والبيانُ والصّرْفُ والنّحوُ، ويُتَطارحُ فيها الشعرُ والأدبُ في ندواتٍ عامرةٍ من علماء آل فضل الله وآل الأمين وشمس الدين ومروة والزين وشرارة والكثير الكثير من رجال الدين... وكانت معها أو بالإضافة إليها حلقاتٌ تَشهد عراكَ السياسة، ومبارزاتِ الشعر، وهجاءَ الحكام، وتحجُّرَ التزمّت ونُشدانَ التجدّد.

تلك الشُلّةُ لا تزال تتردد أسماؤها، وقد خرّجت سياسيين وأدباء وشعراء ومؤرخين ووزراء...

(*) نشرت في جريدة السفير بتاريخ 6 كانون الأول 2001.

في مرحلة لاحقة وفي الثلث الثاني من القرن المنصرم توارى نسبياً دور الجيل الأكبر سناً، ليتقدم الشباب ويتصدّوا للنضال الاجتماعي والعراك السياسي، فكانت أحداث سنة 1936 في بنت جبيل، ومجابهةُ التحجّر والتكفير والتسلّط، وكانت قصائد موسى الزين شرارة وعبد الحسين عبد الله ـ وبعض رفاقهما من النادي الأدبي ـ التعبيرَ الصارخَ عن عنف المجابهة، والتي حفظها وردّدها كثيرٌ من الجنوبيين، وما زالوا يترنمون بها ويتوارثونها جيلاً بعد جيل باعتبارها تراثاً ورفضاً وثورة وتحرراً. . .

أما مرتضى الابن الأصغر للشيخ علي شرارة فقد سافر إلى بغداد ليلتحق بأخيه الأكبر محمد وليتابع دراسته ومن هناك، تخرّج محامياً من كلية الحقوق ومارس الكتابة في جريدة الساعة. . . وكان بحكم نشأته شاعراً وأديباً ومثّقفاً. . . لقد وعى الحياة في بيت أخيه الأكبر أبي إبراهيم. . . وأبو إبراهيم شخصيةٌ فريدةٌ تتميّز بغنى الثقافة، واكتنازِ المعرفة. . . هو بدايةً خريّجُ النجف الأشرف، والعالمُ المتبحّرُ الفقيه، العفيف. . . وهو في مرحلة لاحقة الإنسانُ المنفتح، المتنوّر، العنيفُ الذي لا يهادن. . . والرائد الثائر الذي اختطَّ لنفسه درباً ونَمَطاً رأى فيهما طريقةَ حياة وسبيل خلاص. . . ومن أجل ذلك كافح وناضل ولوحقَ وعذّبَ وسُجن. . . فما لان ولا هان ولا استسلم. . . وفي بيته وبين رفاقه الشعراء والأدباء والصحافيين والعلماء والمناضلين وعى مرتضى ورأى بأم العيْن كيف تكون صلابةُ الصّمود ومواقفُ التحدي ومعادنُ الرجال. . . ومن هذا الإرث الفريد حمل الشاب

مرتضى تراثاً إنسانياً رَفدَ ما كان اختزنَهُ في طفولته من نادي بيتهم في بنت جبيل بعد أن أكمله نادي أخيه في بغداد... حتى لكأن هذا البيت ـ عبر جيلَيْن ـ مرصودٌ للثّقافة والانفتاح والحرّيّةِ والتمرّد والثورة!!

في مطلع الخمسينيّات انتقل مرتضى إلى إذاعة الشرق الأدنى في قبرص ليعمل مذيعاً لعدة سنوات... نحن نذكر جيداً تلك الفترة وذلك الصوت المميّز والأداء السليم... ورجع إلى الوطن ليمارس مهنة المحاماة ثم ليدخل سلك الوظيفة كقائمقام في بشري بلدة جبران وجارة الأرز ثم لينتقل بعد سنوات إلى بعلبك والهرمل...

مرتضى شرارة هو ابن ذلك البيت العتيق المنذورُ أفرادُهُ للقلم الرشيق والفكرةِ المجنَّحة والعقيدة الراسخة... هم حفدةُ وأسباطُ وأبناءُ علماءٍ ورجالِ دينٍ مميّزين... تلازمهم الريشة ويصاحبُهم القلمُ ويرتاح في أفيائهم الخيال... الواحد منهم مشروع أديب أو شاعر، يلذُّ لك أن تقرأهم لتلمس نداوة النثر وطلاوة الشعر وجَرْس الترجمات!!

هكذا عرفنا أبا إبراهيم شعراً ونثراً، وأدب سياسة، وسحر حديث، وعرفنا أبا طلال ناقداً ومثقفاً ومعلماً ومؤلفاً... وعرفنا بنهم من معين عبد اللطيف نثراً وشعراً وتراجم ومعارف موسوعيّة... وعلى هذا النمط قرأنا لمرتضى شعراً رقيقاً، ورسائلَ موشاةً منمنمةً، وترجماتٍ كما السحر المذاب... مرتضى كان قارئاً نهماً، وشاعراً مرهفاً، وناثراً رشيق الريشة، ومحدِّثاً لبقاً، خفيف الظل، أنيس

المعشر، نظيف القلب... فلم يعرفْ سواد الحقد، ولا نارَ الحسد، ولا عمى البغض... مرتضى كان طفلاً كبيراً... طفلاً كبيراً عاش منذ طفولته غريباً عن بلده... فمن صور، إلى بغداد، إلى قبرص، إلى بشري، إلى بعلبك، إلى الهرمل، إلى بيروت، إلى المغرب وفرنسا وإيطاليا، أبداً موزَّع القلب بين أسرته وأهله وبلده...

في آخر رسالة لأخيه جواد كتب: لن أقول لك وداعاً سوف ألقاك في آخر أيلول. وكتب لأخته: سوف نلتقي في بنت جبيل التي أشتاق لكل ما فيها حتى للحجارة والغبار... أتصورُها أجملَ بعد التحرير!!

وها هو قد عاد... أو أعادوه في آخر أيلول... عاد وقد أغمض عينيه على أمل اللقاء، وسَكَنَ فيه قلب الطفل الكبير... وغامت البسمةُ عن شفتيْه وأخذَهُ النومُ الموجعُ العميق...

أيها المسافر الغريب... ها قد استعادتْك الأرضُ التي إليها اشتقت... الأرضُ اتي تصوَّرْتَها أجملَ وأنضر... هذا ترابُها المحرَّر من دَنَسٍ، يشدُّك إليه، يضمُّك ويحتضنُك. فسلامٌ عليكَ وعلى الأرضِ التي بادلتْك الشوقَ والحبَّ والحنان؟

حكمت بزي*

بالأمس رحل حكمت بزي، أحدُ كبارِ وجوهِ الجالية اللبنانيّة في ديترويت، رحلَ بعيداً عن بنت جبيل التي حَمَلَها ذكرياتٍ وشوقاً وولعاً، بعدما تركها مكرهاً، وقد تغيّرتِ الدنيا عليه وأجبرتْه الأوضاعُ على أن يبحثَ عن الرّزق بكرامة، ويحافظَ على التراث بكبرياء، ويحفَظَ لنفسه وعائلته وإخوته موقعاً يتناسبُ مع مستوى البيت الكبير.

رَحَلَ حكمت بزي ـ حفيد الحاج محمد سعيد ـ ابنُ البيت المفتوح، وهو يصارعُ الأيام، ويقاومُ صعوباتها، يواجُهها بعزيمةٍ وعناد، تعلّم في الكتّاب، وفي المدرسة الابتدائية التي كانت آخرَ المراحل، وخرجَ إلى معترك الحياة فريداً حاملاً همومَ أسرةٍ كبيرة، اغتربَ معيلُها، ولم يوفرْ لها ما يجنّبُهَا المتاعب، الطفلُ ترتّب عليه أن يصبحَ الرجل، هكذا بدأ حكمت بزي رحلةَ الحياة، بين بنت جبيل وفلسطين وسوريا ولبنان وديترويت، ليبقى طيلة معاناته محافظاً على تراثِ البيت، وكرامةِ العائلة، وفَرْضِ الاحترام، وتصرّفات الكبار.

(*) نشرت في جريدة السفير، بتاريخ 12 آذار 2009 ص7.

الرجلُ الطفلُ، الوجيهُ المقدَّر، توافرَ له ذكاءٌ لافتٌ وإطلالةٌ ومهابةٌ وموهبةٌ شعريةٌ وأدبيةٌ راحتْ تتمرَّدُ على حرمانِ الثقافةِ والتحصيل، وتعملُ بحرقةٍ على اكتسابِ المعرفةِ من تجارب الحياة، وتعوّضُ بالفطرةِ المنفتحة والسليقةِ السليمة والتفكيرِ الناضج عن حرمان الأيام، فإذا الطفلُ الرجلُ شاعرٌ وأديبٌ يكتبُ عن بنت جبيل التي عرفها يومئذ بكل ما فيها ومَنْ فيها، يُحصي صناعاتِها وصانعيها، وسكّانَها ومغتربيها ومختلفَ المهنِ والوظائفِ والعلاقاتِ الاجتماعيةِ والعاداتِ والتقاليد، «حقيبتُه التاريخية» مرجعٌ نعودُ إليه و«أنّات قلبه» خلجاتٌ موجعةٌ عاناها بعد وفاة رفيقةِ دربِهِ التي تَرَكَتْه أسيرَ وحْدَتِهِ مصهوراً بحنينه إليها وإلى بنت جبيل وهو يعاني غربةَ الوطن وغربةَ خريف العمر.

حكمت بزي عاش علاقةَ النّسر بقممِ الجبال، فلمْ يعرفْ يوماً مناخَ السّفوح؛ في زيارتي الأخيرة له منذُ سنوات في ديترويت، رأيتُ أمامي تاريخَ بنت جبيل ورجالاتها، وتأكدتُ أن ابنَ البيت المفتوح، ما زالَ يحملُ مهابةَ الكبار وكبرياءَهم والتصرفاتِ التي تنمُّ عن كرامة المحتد.

حكمت بزي آخرُ سنديانات بنت جبيل التراثيّة التي كنا نتفيأُ ظلالها وننعمُ بتحدّياتها...

أيها الغائب المقيم لك كلُّ التقدير، فنَمْ قريرَ العيْن رغمَ وجعِ الغُرْبَتَيْن.

سهيل بزي، شهيد الوجعين

يا أبا هيثم

أيها المسافر على عجل، دون وداع، يا غريب الديار وشهيد الوجَعَيْن، وجعِ الداء الظاهر ينهش صدرك ويُتْلِفُ مناعته ويُضعف مقاومته، ووجعِ الغربة الكامن يفترسُ أعصابك ويُلهبُ حنينك ويهيج أشواقك.. وأنت ممزّقٌ تصارع وتتآكل وتذوي...

كان قرارُ الطبيب أن تبقى قريباً منه ليشرفَ على علاجك وكانت أمنيتك أن تعود إلى بلدك وبيتك وأسرتك وإخوانِك وأصحابك، كان جسدُكَ في مكان مفروض، وقلبك في مكانٍ آخر أثير، وبينهما أبعادٌ وبحارٌ وموانعُ، تَقْطَعُها كلَّ لحظة، وأنت مُشْتعِل الداخل بخيال الحالم ورقّةِ الحاني، وشوقِ العاشق، وإيمان المتعبّد!!

وسألتَني - عندما زرتُك - عن بنت جبيل، بكلِّ مَنْ فيها وما فيها وما جرى لها، وكنتَ بالتأكيد تعرفُ أكثرَ مني ما تسألُ عنه، وكانت عيناك رغم الضعفِ البادي والألم الغائر، تتفاعلان مع الكلام فرحاً وحزناً واستفهاماً واستفساراً، وأنتَ تحاولُ أن تَسْتَنْشِقَ من حديثي ومن حضوري شيئاً منعشاً من رائحةِ بنت جبيل، من نعيمِ هوائها، وغُبارِ

سوقِ خميسها، ورائحةِ ترابها وحكاياتِ أبطالها وما صُبَّ عليها من نيران وأحقاد... سألتَ عن البلدة ولم تسألْ عن البيت والمحل، ولا عن بيوت الأهل... ففي معركة البقاءِ والكرامة، ولدى النفوس الكبيرة تتوارى كلُّ الشخصانيات لتُفسح في المجال للمواقف العظيمة والتضحيات الجسيمة. وكنتَ فَرِحاً مأخوذاً بهذا الحديث وقد نسيت وجعك وجَهِدْتَ أن تُعْلي صوتك، وتُسمعَ ما يُشجيك ويطربَ نفسك ويُريح قلبك أما أنا فقد تأكّدتُ وتيقّنْتُ أنك مصابٌ بمرضٍ آخر، مرضٍ حميد، محبب مرضِ حب الوطن، ووجعِ التراب ونداءِ الأرض، واستعادةِ ذكريات العمر، التي لم تُنْسِكَ إيَّاها كلُّ مفاتن (دير بورن) ومغرياتها!!!

يا أبا هيثم تمنَّيتَ أن تعود إلى بلدك معافًى قادراً على تحمّل متاعب السفر، وإلاّ أن تُعاد إليها إذا أخذك نعاسٌ طويل وسكن القلب المتعب... أحبَبْتَ أن يحضِنَكَ ثراها ويضمَّكَ تُرابُها وتستعيدَكَ مواقِعُها وساحَتَان عزيزتان عليك: ساحة الديوان. وكان مركزَ قرارٍ ومكانَ زعامة ـ حيثُ ولِدْتَ ودَرَجْتَ ولعِبْتَ وشبَبْتَ وَوَعَيْتَ الحياة، وساحةُ النَّبِيَّة حيث افْتَتَحْتَ محلاً أو بالأحرى مكتباً أو نادياً صغيراً كان ملتقى الشباب، وجامعَ الأصدقاء، ومنتدى الرفاق... وبين هاتين الساحتين يقومُ بيتٌ مميَّزٌ يشرفُ على «حاكورة نصّ الضيعة» ويحاذي الجامع الكبير، بيتٌ يشدُّ إليه الطليعةَ، ويتصدَّرُ مواكبَ المناضلين الناهضين ضدَّ التخلف والجهل والانتداب... حيث كنْتَ مع إخوتِكَ وأترابك وكثيرين من الشباب تعايشون معارِكَ الاستقلال

الدائرة على مساحات الوطن وتعيشونَ تداعياتِها وما رافَقَها من أحداثٍ طاوَلَتْ بلادَ العرب جميعها. وفي أحلك الظروف بقي أبو هيثم في بنت جبيل، لم يبارِحْها سواء حين قُصِفَتْ أو اجتاحَتْها جحافلُ الأعداء ودنسَّتْها أفواجُ العملاء، وأَضْبحَتْ شريطاً حدودياً. كان أبو هيثم كأشجارِها العتيقة ملازماً لترابها، متجذراً في صخورها، متحمّلاً معاناةً لا تُطاقُ، ليشْهَدَ لاحقاً أعراس التّحرير، وقوافل الأبطال الهادرةَ الزاحفةَ تُسطِّرُ أساطيرَ التّضحيات... وعلى غير انتظار، وخلافاً لما عوَّدَنا عليه، سافَرَ أبو هيثم إلى أمريكا مطمئناً، وعلى أمل الرجوع، وأَوْصَدَ أَبْوَابَ المكتب والنادي... كان ذلك حَدَثاً غريباً.. فبَرَدَتْ قهوةُ الصّباح وتَفَرَّقَ الرّفاقُ، وسافر الأُنسُ؛ تغيّرتْ جغرافيةُ المكانِ وخيّمت وحشةُ الفراق...

يا أبا هيثم: ها نحنُ نَسْتَقْبِلُ عودتَك الحزينةَ ونفتقدُ بغيابك أخاً ورفيقاً وصديقاً، نفتقدُ بعضاً من ذاتنا، جزءاً من كياننا، قبساً من روحنا، وبالإضافة إلى ذلك ذكرياتٍ من زاهياتِ أعمارنا، وعبقِ أيامنا ويَجْتَاحُنا وجعٌ يَتَوَالَدُ يهزُّ أعماقَنَا ويُغشّي رُؤانا...

ويا أبا وسيم... أيها الأخ الكبير والصهر العزيز

هو ذا أخوك الرّابع في عدادِ المسافرين من بيتكم، رفيقُ عمرك، وشقيقُ روحِكَ، لقد عاد كما أرادَ ليرتاحَ في ترابِ بَلدِهِ، بَعْدَ أن بَرَّحَهُ الشوقُ وأَضْنَتْهُ آلامُ البعاد وأوجاعٌ لا تحتمل... وكلُّنا أمام مُعْضلة الموتِ نلجأُ إلى الصّبر الجميل، عُدَّة المؤمنينَ في بلواهم ونَضرَعُ إلى الله أن يُعيننا على تحمّل هذا الضَّنْك القاتل... فالموتُ هو القهْرُ

الأكبرُ في رحلةِ الحياة، هو النهاية المحْتومَةُ لسفرنا مهما يَطُلْ، ولولا إيمانُنا وقناعاتُنا ومعتقداتُنا بجميل الصبر، ما جفَّ دمعٌ، ولا سَكَنَ وَجَعٌ ولا هَدَأَ حزنٌ، ولا كَفَّ نُواح!!

يا أخي نزيه، ويا أهلنا آل بزي وأسرة أبي هيثم، ورفيقة دربه وابنيه وبناته وأصهاره، وكلَّ رفاقه ومحبّيه لكم جميلُ العزاء والصبر المرير...

باسم آل الفقيد وعائلته وأصدقائه ومحبيه أشكر حضوركم وكلّ منا فاقدٌ ومعزًّى.

وإنّا لله وإنّا إليه راجعون

بنت جبيل/الأحد 29 نيسان 2007

يا أبا باسم... أنا لا أقول لك وداعاً

مع جواد شرارة في رحلة عمره تستوقفني محطاتٌ أربعٌ، تدور حول البيت الذي وُلد فيه ودرج وشبَّ واكتهل، وهو يحمل منه وهج أنواره، وعبقَ أطيابه.

المحطة الأولى:

أصالةُ هذا البيت... فالوالد الشيخ علي شرارة ابنُ الشيخ أحمد شرارة شقيق الشيخ موسى شرارة تتلمذ على السيد نجيب فضل الله والشيخ موسى مغنيّة وعلى خاليْه السيدين حيدر وجواد مرتضى، والوالدة زينبت كريمة الشيخ موسى شرارة، العلامةِ المجتهد، المؤسِّس لأول مدرسةٍ دينيةٍ في بنت جبيل... الوالد الشيخ علي تعرفه الأجيال السابقة شاعراً ومربياً ومرجعاً دينياً، مارس التعليم في بنت جبيل ويارون وجويا وصولاً إلى بلدة الرفيد في البقاع الغربي ـ وتتلمذ عليه من رعيل العشرينيّات، رفاقُ وأترابُ أبنائه الذين قُدِّر لهم أن يكونوا طليعةً متنوِّرةً، ويلعبوا دوراً مهماً في قيادة مجتمعاتهم ومسيرة حركة التحرر الوطني.

المحطة الثانية: الموقع الاجتماعي والتمايز العلمي لهذا البيت.

.. كان الشيخ علي كما وصفه السيد محسن الأمين في أعيان الشيعة من الفضلاء والمبرِّزين، حاضرَ البديهة، سريع الجواب، لا تغيبُ عنه نكتةٌ، شهدتْه مجالسُ العلم والأدب والمنتديات التي يكثر فيها حديثُ الشعر والعلم وتشتجر فيها العقولُ والقرائح، هادئاً متّزناً ذا ذوقٍ جميلٍ وكان منزلُه منزلَ العلماء، ومنتدى الفقهاء أمثال الشيخ علي مهدي شمس الدين، والشيخ موسى مغنية والشيخ محمد نجيب مروة، حيث تبدأ جلساتهم بطرح قضيةٍ فقهية أو لغوية أو أدبية يجري تحليلها ونقدُها ونقاشُها والحكمُ عليها، وكثيراً ما كان رأي الشيخ علي حاسماً...

كان بيت المعلم الشيخ علي في بنت جبيل امتداداً للمدرسة التي يعلّم فيها، كان نادياً أدبياً، وخليّةً متحركةً يتلاقى في رحابها مجموعةٌ من الشباب الناهضين، تتواصل وتتكامل وتتفاعل في مُناخ فكري منفتحٍ بعيد عن التحجر والانغلاق... فالشيخ لم يكن متزمتاً، ولا ضيّق الأفق، كان بالنسبة للشباب الأبَ والصديقَ والمعلمَ وهم رفاقُ أبنائه وأترابُهم، يجتمعون عصراً حول سماور الشاي يتناقشون ويستمعون إلى محاوراتٍ تشتمل على مختلف المواضيع الأدبية والمطارحات الفقهية أو يستعرضون أحداثاً تاريخيةً وسياسيةً واجتماعية... هذه (الشلّة) أو المجموعة المميَّزةُ من الرّواد انتقلت بنت جبيل بهم ومعهم إلى رحاب العلم والانفتاح والتفاعل مع الحركات السياسية والثقافية التي كان يمور بها الوطنُ وتطاول المنطقة بأسرها، ولا زلنا نذكر باعتزاز بعض الأسماء: موسى الزين شرارة

وحسن فياض شرارة وعلي بزي والحاج علي بيضون بالإضافة إلى أبناء الشيخ علي وهم محمد وحسين وجواد وعبد اللطيف ومرتضى الأصغر سناً، ودون أن ننسى الشيخ علي الزين وحسين مروة وأنيس إيراني...

المحطة الثالثة: وتمتدّ آفاقها بين بنت جبيل وصيدا والنبطية وبيروت ودمشق والنجف.

وقد بدأت ملامحُها في أواخر عشرينيّات القرن المنصرم في بنت جبيل نضالاً ضد السلطة المنتدبة والمتعاونين معها، ودعوةً إلى التحرر والاستقلال، والتنسيق مع المجاهدين العرب في سوريا والعراق وفلسطين التزاماً بوحدة المصير واستنكاراً لمؤامرات التجزئة والتفتيت... يومئذ كان شبابُ بنت جبيل طليعةً نضالية في جبل عامل، تجاوبت مع مواقفهم وتضحياتهم مواقفُ مماثلةٌ في مختلف المدن والأصقاع، من النبطية إلى صيدا إلى بيروت وطرابلس ودمشق وبغداد والنجف ـ كوكبةُ بنت جبيل هذه ـ التي كانت بالأمس شلّة حالمةً تلتقي في بيت الشيخ علي ـ أصبح لها رفاق على مساحة الوطن، وتلاقى هؤلاء في المظاهرات والاجتماعات ونظارات السلطة ومعتقلاتها وسجونها، وأثبتوا بصمودهم وعنادهم أن العين بوسعها أن تقاوم المخرز وأن باستطاعة الضحية أن تنتصرَ على الجلاّد...

كان لعلي بزي وموسى الزين شرارة والحاج علي بيضون رفاقٌ في بيروت وبغداد والنجف، كان أنيس إيراني رئيساً للطلاب في جامعة دمشق يحمل مشعلاً استمدّ وهجه من بنت جبيل وكان عبد

اللطيف شرارة في النبطية ولاحقاً في بيروت في مدرسة الشيخ عباس ودار المعلمين يحمل وجعَ العروبة وخفقانَ روحها، وكانت هناك في المقام المقدس «الشبيبةُ العامليّة النجفيّة الذين نذروا نفوسهم للقضيَّة نفسها، وألّفوا عصبةً عامليةً تدعو للتطوير والحداثة وترفع الصوت عالياً لاستنشاق نسائم الحرية ومواكبة التحرر واعتماد برامج الإصلاح... وصحف ومجلاّت تلك الفترة حافلة بما كتب محمد شرارة وحسين مروة والشيخ محسن شرارة والشيخ علي الزين والشيخ محمد حسين الزين والسيد هاشم الأمين وعبد المطّلب الأمين وجعفر الأمين ومحمد جواد مغنية.

المحطة الرابعة: كان جواد شرارة وسيطاً بين الإخوة الخمسة، تأثر بالبيت والمحيط والأقارب والأب والإخوة والرفاق، وكان للأخ البكر محمد، أبي إبراهيم الأثر الأكبر» فهو العالم المثقّف والشاعر المرهف والكاتب الذي تهدُرُ أفكاره وتتراقص كلماته، وتتعانق تعابيره وتحلو أوصافه وتسكر أحاديثه وقبل كل ذلك هو الخطيب المفوّه صاحبُ الإطلالةِ الآسرة والحضورِ المميَّزِ والذاكرة الفريدة.

وتأثر جواد كذلك بأخيه حسين، بعقله وحكمته وبُعد نظره وتحرّره ورفضه لكثير من التقاليد، وتأثر بأخيه عبد اللطيف الإنسان الواسع الثقافة، والشاعر والأديب والمترجم، وأحبَّ ورافق مرتضى المحامي والشاعر والأديب والصحافي والمترجم.

جواد شرارة جاهد وكافح وتعب وهو يشق طريقه، واحترف مهنة الخياطة يوم صعب على الوالد أن يؤمن للأسرة متطلّبات الحياة

الكريمة، وما لبث أن عُيّن مدرساً في البقاع، في مدرسة العين فنجح في عمله التربوي في البلدة التي انتقى منها شريكة عمره ونُقل لاحقاً إلى بنت جبيل حيث علّم أجيالاً متتالية لا تزال تحفظ له جميل الأداء.

ومن بيت جواد شرارة المستنير، اختار الابنُ عليّ طريق الفداء وقدم نفسه شهيداً على مذبح الحرية والكرامة، مواكباً قافلة مؤمنة من طلائع الأمة استطاعت أن تحقق النصر وتجترح الأعاجيب وكان استشهاده رغم الوجع المقيم - وساماً ومبعث اعتزازٍ للأسرة والعائلة وأصبح جواد شرارة أباً لبطل شهيد، وزوجه أماً لشهيد وأخواه أخوي شهيد.

هذا البيت الميمون قُدِّر له أن يكون محطةَ ثقافة ومنجمَ كفاءات ومستودعَ مواهب يذكرني ببيت عيسى اسكندر المعلوف وأبنائه الشعراء، شفيق ورياض وفوزي المعلوف؛ وهما بيتان أفاء الله عليهما من نعمه وجزيل عطاياه.

يا أبا باسم

نفتقد خفّة روحك، وآسر حديثك، ورنّة صوتك، وسرعةَ غضبك وإرثاً من الذكريات طالما أمتعتنا باسترجاع أحداثها، ونحن كالسكارى نرشف شايك المعتّق الأصلي (حَسْبَ تعبيرك) مسكوباً في (استكانات) تليق بالندامى وتتجانس مع الجلسات المميَّزة تحت ظلال شجرات البطم العتيقة وراء البيت.

أنا لا أقول لك وداعاً - فأنت معنا في البال وفي جميل الذكريات - وإنما أحبّ أن أتلوَ ما كتبه لك أخوك البعيد أبو إبراهيم في رسالته الأخيرة في 16/ 10/ 1977:

«من أروع الأشياء منك هذه الروح الحلوةُ التي تشبه روحَ الفراشة بين الأزهار، وإن كان اللهب من حولها، ومن حول الحقول التي تنمو أزهارُها. وما من شكّ بأن الإنسان في حاجةٍ دائمةٍ إلى مثل هذه الطاقة التي تزوّده بحيويّة الشباب وإن كان يزحف إلى الشيخوخة!

المفاهيم تتغيَّر، والعلاقات تتبدّل، هذا طبيعي، وكان من الجمال أن تتغيَّر إلى الأفضل، فهل كان الأمر كذلك في تغيُّرها عندكم؟ لا أظن ذلك...

ومن المؤسف أن العلاقات في الشرق عامةً، قائمةٌ وراءَ غشاءٍ شفّاف من النّفاق تكاد تمزّقه أبسطُ النسمات، فكيف إذا تحوّلت النسماتُ إلى رياح؟!!

كان بجانبي في الطائرة إلى لندن أحدُ قضاة الشرع في كربلاء - وهو صديق قديم - ولا يعرف كلمةً واحدةً من الإنكليزيّة. فلما وصلنا إلى المطار، بقينا معاً حتى انتهينا من المعاملات. ولما خرجنا إلى قاعة الاستقبال وجدنا بانتظاره بعضَ أقاربه، كما كانت بانتظاري مريم وعندئذٍ سألني أفلا نلتقي؟ قلت لا أدري ثم زوّدني قريبُه برقم التلفون وبعد فترةٍ خابَرْتُه وسألته، كيف رأيت لندن؟ فأجاب:

أتى الزمانَ بنوه في شبيبته
فسرَّهُمْ وأتيناه على الهرم

ثم قال ما رأيك؟ قلت: لقد كان زماننا كلُّه هَرَماً، فلم تمرَّ به طفولةٌ ولا شبيبة!!

أما الناسُ فكلٌّ حياتهم شبيبة فقال (رائع)... والحقيقة أن الحياة في الشرق كلّها هرم، ومن هنا كانت هذه المآسي التي لا تعرف الحدود، فإذا كانت فيهم روحٌ مرحةٌ كروحك كانت زهرةً في الصحراء..

يا أبا باسم سلام عليك وعلى إخوتك وعلى البيت الذي حضنكم في رحلة أعماركم المباركة.

28 آب 2005

يا أبا علي لقد توغّل الحزن في حياتنا حتى العظم*

ها أنتَ بينهُمُ ـ ورَغْمَ الموت ـ تُشرقُ كالصّباحِ
وتُطِلُّ من وجع الجنوبِ وقد تضرَّجَ بالجراحِ
وأراك في الأخوَيْن والأبناء في خُلُقِ السَّماحِ
فابْسُطْ جناحَكَ، إننا نشتاقُ مخضَلَّ الجناحِ

قل لي بربك يا أخي لماذا يسافرُ الأحباءُ على عجل دون سابق إنذار؟ أتُراهُمْ يعلمونَ أن في غيابهم حضوراً لا يعرفُ النسيان؟ أم تُراهم نسُوا مواعيدهم وأخلفوا وعودَهم وتركوا للناسِ عذابَ الانتظار؟!

نحن مع الأحبة حائرون؟! يُضْنينا حبُّنا... يُتْعبُهم معنا.. نحاصرُهم وهم بيننا بأهدابِ العيون ونغمرُهم بدفء القلوب... نجعلُ مهجَنَا لهمْ ملاذاً ومُسْتقراً... حتى إذا غادَرونا قليلاً لا نُطيقُ عنهم

(*) ألقيت بمناسبة وفاة الحاج أحمد إسماعيل والد الصهر الأخ علي إسماعيل، بتاريخ 21/ 5/ 1996.

بُعْداً ولا نتحملُ غياباً... يؤرّقُنا شوقُنا إليهم، تثورُ كوامنُ وجْدِنا... تستَعرُ عواطفُنا... ونحيا على أملِ اللقاء...

هذا الانتظارُ الواعدُ للقاء بهم مجدداً هو أحلى ما في الحياة!!... فيه تمورُ الآمالُ العريضة وتسبحُ الخيالاتُ الساحرةُ والأمنياتُ التي لا تخطرُ ببال البيادر...

... لكنَّ فجيعتَنا عندما يموت أمَلُ اللقاء... فجيعتُنا عندما يسافرُ الأحبةَ إلى غير رجعة، عندما يغادرونَ ولا يعودون!!... ويأخذونَ معهم فرحَنَا والسمر... يأخذونَ أحلى أمانينا، وزهوَ أيامنا... يقتلونَ بغيابهم نديَّ حبنا... تسافرُ معهمْ قلوبُنا... ترحل مواعيدُنا والذكرياتُ...

أترى بوسع قلوبنا الواجفةِ أن تتحمَّلَ هذا السفر المَريع؟!. أتُرى بوسعنا أن نقتاتَ بصمتٍ من ألمنا، ونتغذّى بصبرٍ من وجعنا... نحن لا نكادُ نصدقُ أن الأحبةَ يمكنُ أن يغادرونا دون أملٍ بالرجوع؟!!

... ويا أبا علي... يا جميل السجايا، يا طيِّبَ القلب، يا كريم النفس... إنه لَوَجَعٌ كبيرٌ، وأسًى ثقيلٌ أن يغيبَ كبيرُ القوم... أن ينطفىءَ سراجُ العمر على غير انتظار!

ذلك الصباح... كنت على موعدٍ مع الجنوب... مع الجنوب الذي تكادُ تعرفه شبراً شبراً... تعرفه بناسه وأرضه... تلك التي بوسعنا أن نزورها... أو تلك التي حرمونا نعمةَ الذهاب إليها، الواقعة خلفَ شريطِ الأحزانِ والتي تجذّر حبها في المُهجِ وأحداق العيون.

... حلمتَ يا أبا علي أن تزورَ أرضَ العذاب.. أن تشمَّ الترابَ الطاهر المضّمخَ بدم الشهادة؛ اشتقتَ لغبارِ الأرضِ وعنفوانِ الحجر... اشتقتَ كما اشتقنا لرائحةِ التبغِ والزعتر، لأغصان الزيتونِ المكسورة والبركِ المنداحةِ في وديانِ وقرى جبل عامل... اشتقتَ حتى للسّواد الصّامدِ المنبعث عبرَ القذائف والحرائقِ والدمار... ألا ترى معي أنه أضحى لونَ الجنوب المميَّزَ والموصولَ بسواد كربلاء ومذابح الطفّ...

يا أبا علي... الثورة تولد من رحمِ الأحزان... ونحنُ كما تعلم تآخيْنا من قديم مع الوجع، نَشَأْنا مع الألم... صرْنا وجعاً يتحركُ... ومآسيَ تتوالد... حتى لكأنَّ قدرَنا ألا نعرف كيف نفرحُ... لقد توغّلَ الحزنُ في حياتنا حتى العظم... نسينا كيف نضحك... أصبحنا نحسدُ أو نغبطُ الآخرين ونعجبُ كيف يفرحون!!... نبدأ سنتّنا بعاشوراء... تبكُّر يوم العيد إلى المقابر تقضي الجُمَعَ والآحاد نتآسى، نحتفل بذكرى شهيدٍ أو مُغَيَّبٍ تعبنا من الحزن، أضنانا عذابُه وهو كما نعلم أطولُ عمراً وأعمق تجذُّراً من الفرح: إن حزناً في ساعة الموت أضعاف سرورٍ في ساعة الميلاد.

يا أبا علي... ها أنت تطلُّ علينا من وجع الجنوب... ها أنت - ورغم الموت - نشعر أنك بيننا... نراكَ في الأخويْن والأبناء... نكادُ نسمع النبرةَ أو الحركة... كيفَ يغيبُ من كان حضورُه لافتاً.. كلُّ ما تركتَ يدلُّ عليك وينبىءُ بحضورك... سجادةَ الصلاة، السبّحةَ، فنجانَ الشايَ، ركوةَ القهوة، لائحةَ الصدقةِ المخصصة

لأعمال الخير... إن كلَّ هذه الأشياء فيها بعضٌ من ذاتك... أما أخواك وأبناؤك ففيهم منك شَبَهُ الخَلق والخُلق... حتى النبرةُ والصوتُ والحركات... ها أنت ماثلٌ بهم، مقيم بينهم، كأنك لم تبارحْنا ولم تسافرْ...

يا أهلنا... يا أبا حسين... يا أبا هشام.. يا صهري وأخي علي وإخوانَه...

أبوكم اختاره ربُه إلى جواره... نامَ قريرَ العين بكمْ... خلّف أسرةً صالحةً وأثراً طيباً... رحلَ مع شوقهِ الدافىء إلى الجنوب... أغمض عينه على هذا الحلم المرصود... وسكنَ قلبهُ على أمل العودة...

والقنطرة... القريةُ المعانيةُ على خط الموت والحرائق والدخان ما زالت تنتظر مواكب العائدين... بيوتُها... بقايا بيوتها... ترابُها... أحجارها اشتاقتْ لأهلها... صدقني أن البيوت هناك في شريط الأحزان برّحها الشوق... إنها تتوجع وتعاني وتحس بالغربة كما يقول الشاعر محمود درويش... يا أخي علي قلوبنا معك ومع أهلك نشاطركم الأسى... لكم جميل الصبر وللفقيد الغالي الرحمة.

رفعت شرارة رجل بلا مكان إقامة*

يخيل إليّ وأتصوّر الحاج رفعت شرارة إنساناً ليس له مكان إقامة، فبيته محطة مؤقتة بين رحلتين منتظرتين، أو سفرتين قادمتين. هكذا عرفته القرى والدساكر التي كان يرتادها، وهكذا عرفته الديار المقدسة، والعتبات الشريفة عبر إحدى عشرة حجة ومثلها من الزيارات، وجعلت منه معرِّفاً ودليلاً يقاسم المؤمنين سعادة التَّلْبية والتعبّد، وفرحَ الصفاء الوجداني، ونقاءُ التطهر من الآثام والأدران.

كان الحاج رفعت مسكوناً بوجع الناس، فلكم تهلّل وجهه وبانتْ سعادته عندما راح يتحدث عن مهامه ونشاطاته والتعاون والتنسيق مع المديرية العامة للشباب والرياضة أو مع مصلحة الإنعاش الاجتماعي أو مع جمعية الشابات المسيحية أو مع المجلس الإسلامي، أو عبر نشاطات أخرى لمؤسسات إنسانية تعود نتائجها بالخير على المحتاجين والمحرومين والفقراء.

الحاج رفعت شرارة، المكافح، المعلم، المغترب، القائد

(*) نشرت في جريدة السفير بتاريخ 30 أيار، ص6.

الكشفي، الناشط الاجتماعي، الجائب المسافات، أتعب جسده وأنهك قلبه، وطلب إجازة ـ رغماً عنه ـ بناء على إصرار الطبيب عَلَّهُ يأنس ببعض الراحة، فأخذه النعاس، وسرقَتْهُ الغفوة وهو على موعد مع سفر آخر يوزّع فيه الخير والمعونة على الذين اعتادوا أن ينتظروه، دون أن يتأخر عليهم، وها هم ما زالوا يترقبون قدومه، ويكادون يلمحون خيال ظله، وابتسامته الحانية، ولا يصدّقون أنه لن يعود..

ونحن كذلك يا أبا بلال نغالط أنفسنا ونكاد لا نصدق أنك بارَحْتَنا في سفر طويل تنتظر قدومنا نحن هذه المرة خلافاً لما عودتنا عليه.

عدنان شرارة الفنان المسكون بحلم الوحدة

وقف المحامي الشاعر عبد الله الأخطل يؤبن أباه الأخطل الصغير في قصيدة مطلعها:

لـم يـخـلّـف شـاعـرٌ فـي الأرض شـاعـرْ

عـاقـراتٌ فـي ربـى الـبـحـر الـمـنـائـرْ

والمحامي الابن شاعر ورث ملكة الشعر عن أبيه وبتواضع الكبار حاول أن ينفي هذه النعمة عن نفسه، وينتزع عن تجاور المنارات صفة الهواية، وهي التي وجدت أساساً لتبقى وتستمر مَعْلَماً ثابتاً، ودليلاً قائماً يعتمده المسافرون، والتائهون ويسلكونه في تحديد مساراتهم.

من هذه الزاوية أود أن انتقل بكم ومعكم إلى أوائل القرن المنصرم وحتى نهاية الثلث الأول منه يوم كانت بنت جبيل إحدى منارات جبل عامل، ويوم كان بيت الشيخ علي شرارة نادياً أدبياً، ومنتدىً ثقافياً يتحلّق فيه مع صاحب الدار وأبنائه ثلة من الآدباء والشعراء والمتنوّرين شكلّت في حينه طليعة أدبية وسياسية وثقافية، كان لها دورها المدوّي على مساحة جبل عامل... ومن هذه المدرسة

كان العم حسن شرارة الذي تتلمذ عليه أبناؤه فورثوا وأورثوا وتأثروا وتفاعلوا وتركوا شعراً وفنّاً وذكراً حسناً، وإطلالاتٍ جديرةً بالتقدير..

في هذه المناسبة الحزينة التي سافر فيها ابنُ العم عدنان في رحلة طويلة بلا عودة نستذكر غياباً آخر منذ سنتين وبضعة أشهر بارحنا منها شقيقه الحاج رفعت... وخلال هذين الغيابين رحلت أختاهما كذلك، حتى لكأن شوقاً أُسَرِياً عمل على لقاء المتحابين وأعاد ربط الطفولة والكهولة فجمع بين الأرواح ولو تباعدتْ مواقعُ الأحداث... في هذه المناسبة الحزينة كان من الطبيعي أن يقف مكاني ابن العم تحسين، الأخ الأكبر للراحلين أن يبثّنا من مهجته وجع البعاد، وزفير الفؤاد، وملح الدمع، ويسكبَ من ذهب شعره وذوب أحاسيسه وألم روحه قلائد كربلائية الرنين، متمادية الشجن، متوالدة الأسى، رغم أنه كان حتى الأمس القريب شاعرَ الفرح، والصّبا والصّبايا، ونديمَ جلسات السرور والسمر طِوال الليالي الموصولة بندوات الفجر والعيون الناعسة المتمردة على النوم والانكسار... تحسين الشاعر الغَزِلُ أرهقتْه الأيامُ وهاجَمَهُ النسيان، فأوهن ذاكرته وطمس ذكرياته وأضعف جسده... تحسين الذي عاش عمراً غريباً بين قساوة العسكر ويباس الأوامر وهيبة الوظيفة... طالما أدهشني كيف استطاع أن يوفّق بين الإنسان الشاعر ورجل الأمن؟! بين العيون الساحرة واللفتة والبسمة والغنج والدلال وبين الأوامر الصارمة والوجوه العابسة والملامح القاسية...

صدقوني أن تحسين لم يعرف أنّ أخاه رحل... تحسين اليوم صامت، متوحّد، بلا ذاكرة ولا ذكريات... وقد أفسح لي ابن العم

بلال أن أتقدّم عليه وأقوم بهذا الواجب الصعب في غياب ابن العم عدنان وهو الذي تأثر به صغيراً وزامله كبيراً والنصفَ به ورعاه واحتضنه في آخر أيامه الموجعة... عدنان الذي تقاسمتُ معه الغرفة واللقمة وقرش المنحة في دار المعلمين، وتشاركنا معاً في السهر والسّمر وحفلات الشاي وندوات الفكر وحلقات الطلاب والنشاطات القومية وتوزيع نشرة «الثأر» التي كانت تصدر عن حركة القوميين العرب في الجامعة الأميركية حيث كانت تتردد أسماء جورج حبش وصالح شبل ونايف مهايني وفرحي عبيدو ونبيل اللادقي وأحمد الخطيب.

كان عدنان في تلك المرحلة، شأن الطليعة من جيله مأخوذاً بقدسيّة القضية العربية مسكوناً بحلم الوحدة واسترجاع فلسطين... كان يعيش غلياناً داخلياً يتوالد وَهَجُهُ باستمرار... ويطيب له أن يرسم ويلوّن علم الثورة العربية الذي أصبح لاحقاً علم منظمة التحرير الفلسطينية... أو أن يرسم وردة متفتحة حمراء أو لوحة من الطبيعة أو نبتةً فريدة تختصر حميميّة ارتباط الإنسان بالأرض وتجذّرها بصخرها وترابها وهو يسقيها من تعبه ويتطيّب من رائحتها ويغذّيها من روحه... ومن هذا المنطلق اتخذ عدنان ورقة التبغ شعاراً وعمّمها في كثير من اللوحات التي رسمها.

ابن العم عدنان بين لبنان والكويت وفرنسا قضى ردحاً من عمره يرسم بالريشة الأنيقة وبالألوان المتناسقة، ويسكب من روحه وأحاسيسه وضوء عينيه ووجدانه ومهجة قلبه... كان يعشق موهبته،

ويتفنّن في إخراج لوحاته ويحلم أن يرى العلم العربيّ وحده يرفرف على هضاب القدس وعلى مساحة الوطن العربي الكبير. . .

في هذه المناسبة كذلك نستذكر الحاج رفعت ـ أبا بلال ـ الرجل الذي كان بلا مكان إقامة، والذي كان بيته محطة مؤقتة بين رحلتين منتظرتين أو سفرتيْن قادمتين لإنجاز مهمّة إنسانية أو تقديم مساعدة عاجلة. . . الحاج رفعت كان رجل الخير والمكافح المغترب والقائد الكشفي والناشط الاجتماعي. . . أشد على أيدي أبناء العم وكلنا أصحاب العزاء ونشكر جميعُنا بامتنان كلَّ من شاركنا أحزاننا وقاسمنا أشجاننا.

والسلام عليكم

4 تشرين الاول 2009

السيدة عليّة الخليل السعيدي...
اسمٌ على مسمّى*

ربما تكون من أصحاب الحظوظ عندما يُقدّر لكَ أن تجتمع بأصحاب العقول، حيث تنعم بالحكمة، وتتحصّن بالتجربة وتغتني ببُعد النظر - وأنا أزعم أنني كنت محظوظاً عندما عرفت السيدة أم هاني فنعمت بجيرتها، وتلّمستُ بُعد نظرها، واغتنيتُ من مَعينها الدافق.

من هذا المنطلق أقفُ أمامكم مُتهيِّباً مُقاربةَ الحديث عن هذه السيدة، صاحبة الحضور المُميّز وسليلة البيت الكبير... وفي الوقت نفسه أجدني سعيداً - رغم تهيّبي - وأنا أقلّب الصفحات المُضيئة، وأستعيد ذكرياتٍ زاهيةً تتطاول على النسيان، وتُبرزُ أيَّ نمط من النساء كانت... كانت لروعة المصادفة، اسماً على مُسمّى، عليّةً قويةَ الشخصية، راجحةَ العقل، واثقة النفس، واسعةَ الأفق.

سنة مرّت على سفرها البعيد، وما زالت أنفاسُها تملأ جنبات

(*) الكلمة التي ألقيت بمناسبة مرور سنة على وفاتها في احتفال في الجمعية الإسلامية.

البيت، وما زالت صورتُها ماثلةً في الأذهان، وإطلالتُها مرسومةً في البال ورنّةُ صوتها تتجاوبُ في الأسماع... هي اليوم معنا، طيفُها يحومُ حولنا، نشاركها هذا اللقاء، وتشاطرنا نداوة الحديث، وبهاء الذكرى.

السيدة عليّة، في مطلع رحلة عمرها، عايشت أحداثاً جساماً انعكست تداعياتُها على بلادنا وأهلها، وأحدثَتْ تغييراً عميقاً في مناحي حياتها السياسية والاجتماعية والجغرافية والثقافية، وبات علينا أن نطلّ على البيئة التي ولدت فيها، والزمن الذي أطلّت فيه لِنَقِفَ بالتالي على نشأتها وشخصيتها وطموحاتها وآرائها ودعوتها إلى ارتياد دور العلم، وتحرير المرأة، والثورة على كل أسباب الجهل والتخلّف والحرمان.

تعالوا معي نرافقْ - منذ حوالي القرن إلا قليلاً - الطفلة التي أبصرت النور في صور، يوم كانت بلادنا ضمن السلطنة العثمانية تعيش الفقر والقهر والتسلّط، وإرهاصات الحرب العالمية الأولى وما سبقها وواكبها وتلاها من الملاحقات والاعتقالات والنفي والتشريد، فيتوارى الحاج إسماعيل الخليل عن الأنظار، ويُعتقل كثيرٌ من رفاقه، ويُشنق عدد منهم وفي طليعتهم قريبه الشهيد عبد الكريم الخليل، وتُحكم البلاد بالنار والحديد والظلم المقيم... وتدور في البيت وعلى مدار الساعة أحاديث عن ذلك، وعن سفر برلك والمجاعة والطاعون والغدر والقتل، عن سايكس بيكو، ووعد بلفور ومظالم الجيوش المنتصرة، القادمة باسم التحرير لتقسيم البلاد وإذلال العباد وتنفيذ المؤامرات وتشريد الأحرار.

الطفلة كانت تكبرُ مع الأيام، يتفتحُ وعيُها، ويتعمّق إدراكها، و«ملك الملوك إذا وهب ـ كما يقول الشاعر ـ لا تسألنّ عن السبب». الطفلة الصغيرة تسبق عمرها، تختصر مراحله، لم تلعبْ كأترابها، لم تتشيطنْ كرفيقاتها... تجاوزتْ باكراً عالم الصغار، أنِستْ بعالم الكبار، راحت ـ وهي آخر العنقود في بيتها ـ تجالسُ أباها وأمّها وإخوتها وأخواتها، تسأل وتستفسر، تحاور وتجادل، تحاول أن تفهم ما يحدث، لقد كبرت قبل الأوان وأخذتْها مواضيعُ ونقاشاتٌ كانت تتردّد في جوانب البيت، مواضيعُ قد تستعصي على الكبار، راحت تأنس بها وترتاح، وتغتني، وتزداد وعياً وإدراكاً...

الوالدان وكلّ الأسرة كانوا يستشعرون ملامح الوعي المتفتح، وإمارات الشخصية الواعدة في الطفلة التي تطوي مراحل عمرها، وتجهدُ أن تدمجَ الطفولةَ والصبا والمراهقة، وهي بعدُ الصغيرة المدلّلة، بينما كان أترابها ما زلن قاصرات التفكير، محدودات الوعي، عاديّات الإدراك...

الصبيّة الصغيرة تزوجت في الرابعةَ عشْرةَ من عمرها ـ من السيد كامل السعيدي ـ وسافرت معه إلى باريس وبريطانيا ثم إلى نيجيريا، فتحمّلت معاناة الغربة، وتكيّفت مع الحياة الجديدة، وفتحتْ بيتاً شرّعت أبوابه أمام الضيوف القادمين، وروّادِ الاغتراب من جويا وصور وجبل عامل... والرعيل الأول منهم مدينٌ لبيت كامل السعيدي وأم هاني سيدةِ البيت...

وطوال عقدين بقيت السيدة عليّة التي أصبحت أم هاني وأم

العائلة على تواصل دائم مع الوطن، ومع إخوتها وأهلها ـ عبر زيارات سنوية أو أكثر ـ ولم تُبعدْها مسؤولياتُها البيتيّةُ والزوجيةُ عن مواكبة الأحداث والتفرّغِ لتعليم الأبناء والبنات في أرقى المدارس، في الوطن وخارِجه ـ دون أن يثنيها ذلك عن الاستمرار في متابعة النشاطات المختلفة في الميادين التعليميّة والاجتماعية والثقافية، والتواصلِ مع رجال الدين والصحافة والسياسة والفكر في الوطن والمهجر.

السيدة أم هاني أطلّت على حقول نشاطها من الباب الواسع، فهي بنت بيت عريق، لا تُغلق أبوابه، ولا يُرّدُ قاصدُه... كل العائلة في الصدارة، الأب والأم والإخوة والأخوات والأبناء والأصهار لهم مواقعهم، والزوج ـ رائد الاغتراب الجنوبي، خلوق، كريم، مضياف يُقدّر الزوجة والأهل... والزوجةُ مسكونة بحب الناس، تجد سعادتها في خدمتهم ورعايتهم ومساعدتهم... وكلُّ هذه المعطيات جعلت من أم هاني امرأةً فريدةً مميّزةً، قويّة الحضور أينما حلّت وحيثما أقامت ومن هذه الزاوية قُدّر لي أن أدخل على أم هاني وأتعرف إليها وإلى أسرتها...

كانت المصادفةُ غريبةً، غيرَ منتظرة، محزنةً ومفرحةً في آن معاً.

... في أوائل السبعيّنيات، ونتيجةً لصدام بين الجيش اللبناني والفلسطينيين في محيط المدينة الرياضية أصيب بيتنا مباشرةً بقصف مدفعي، ونجتْ عائلتي الصغيرة المتواجدة فيه بأعجوبة، وانتقلنا من هناك إلى منطقة الظريف، إلى المبنى نفسه الذي تقطنه عائلة المرحوم

كامل السعيدي. . . . كنا يومئذ متعبين مرهقين، نرتّب ما سلم وما بقي من الأثاث والكتب بعد أن لاعبنا الموتُ وداعبنا الرعبُ ولفّنا الغبار بالإضافة إلى إمارات التفجير وبصَمات الشظايا. . وبمبادرة كريمة، جاءت السيدة أم هاني تطمئنّ على القادمين الجدد دون أن يكون لها سابق معرفة بهم. . . تلك الإطلالةُ الرساليّة لن أنساها، وتلك النظراتُ الحانية والكلماتُ النديّة، نزلت على قلبي وقلب زوجتي بلسماً ورحمةً، أما اليدان الرفيقتان فامتدّتا لتحضنا الصغار بمحبةٍ ووداعة وقبلاتٍ خالطَها دمعٌ ساخن. . .

الإطلالة الأولى التي لن أنساها أشعرتني أنني وقعتُ على أم ثانية وأهل وإخوة، وبجوار أم هاني أصبحتُ في دائرة الضوء، وطيب الرعاية، ونداوة المحبة، وأدركتُ بعمق وبعفوية كيف فضّل العربُ الجار القريب على الأخ البعيد وكيف أن النبي أوصى حتى بالجار السابع وأنه من كثرة ما أوصى به وشدّد على الاهتمام به ظنّوا أنه سيورّثه.

بيت السيدة أمي هاني - كما عرفته - كان خليّةً سياسيةً وصحافيةً وفكريّة. وحقلَ نشاطات اجتماعية. . . فعلى سبيل المثال كان يوم الجمعة مخصصاً للرئيس عادل عسيران والدكتور سعد الله الخليل ومحمد قرة علي ولمن يحضر دون أن يطرق الباب المفتوحَ على مصراعيه، وكانت أيام للإمام السيد موسى الصدر وصحبِه من المغتربين، وأيامٌ للأديب لطفي حيدر وللأساتذة الجامعيين من رفاق بناتها وأبنائها. . . وكانت لها صداقةٌ مميّزةٌ مع الشيخ عبد الله العلايلي

والشاعر القروي وجورج صيدح ورئيسات جمعيات الصليب الأحمر ورعاية الطفل والجمعيات النسائية. . . كل ذلك دون أنسى جمعية الإصلاح الاجتماعي التي أسستها في جويّا سنة 1954 وروضة الأطفال التي كان إنشاؤها حدثاً مهماً في ذلك الوقت.

السيدة أم هاني أبرزت لنا بوضوح أهمية الدور الذي يمكن أن تلعبه المرأة في المجتمع عندما تتضافر جهودها مع إمكانات الرجل لرفع شأن المجتمع وتأمين السبل لتقدّمه وانطلاقه، ليطيرَ بجناحيْن بدل أن يبقى كسيحاً عاجزاً متخلّفاً. . . هذا دون أن نغفل الإشارة إلى الدور الهام المساعد الذي وَفَّرَهُ لها أبو هاني الذي كان يثمّن ويقدِّر عالياً شخصية زوجته.

السيد كامل السعيدي المغترب الرائد العتيق في الزمن الصعب، كان طليعةَ المغتربين إلى غرب أفريقيا في مطلع العقد الثالث من القرن المنصرم، بدءاً بالسنغال وانتهاء بنيجيريا. . كان بيتُهُ عنواناً يقصده القادمون الجدد، يستقبلهم، يمدّ لهم يد العون، يرعى خطواتهم، ويسعدُ بهم وهم يحقّقون أولى نجاحاتهم التي راحت تتعاظم مع الأيام. . . كان رجلَ الخير والتواضع وطالما أحبّه الإمام موسى الصدر واحترمه وتواصل مع أسرته، حتى أنه هو الذي صلّى عليه ووسّده التراب وشارك أسرته في وجع الرحيل.

ومع آل السعيدي ومن سبقهم ومن وافاهم أو لحق بهم إلى أفريقيا يصبح لزاماً علينا أن نقارب موضوع الاغتراب الجنوبي. ـ هذا الاغتراب الذي جاء متأخراً عن اغتراب جبل لبنان لعدة عقود. . .

اغتراب المتصرفيّة جاء بعد أحداث أليمة، وشكّل شبه هجرة إلى الأميركتيْن، هجرة اللاعودة،.. رغم أنها لم تنقطع جذورها عن الوطن وأعطت بعد نصف قرن تقريباً. الرابطة القلميّة والعُصْبَةَ الأندلسية، اللتيْن مثّلتَا نهضة أدبية ساهمت في إيقاظ العرب وأغنت التراث الفكري وأنتجت أدباً مهجرياً عزّ نظيره بحداثته وغنائيته ورقّته وشفافية حنينه وبعده القومي.

أما اغتراب العامليين لاحقاً فكان أكثر صعوبةً ومعاناةً في أدغال أفريقيا وأراضيها البكر، وفي المناطق التي كانت أكثر تخلّفاً من الجنوب، جنوب ذلك الوقت، حيث تنعدم أسباب الرفاه والراحةِ وتنتشر الأوبئة والأمراض ـ المغتربون الأوائل عانوا المصاعب ورأوا الأهوال، وذاقوا المرارات لكنهم صبروا، وتكيّفوا وحققوا نجاحات لم تخطر في بال... وحوّلوا أموالهم إلى بلادهم، فشادوا وعمّروا وأقاموا الصروح والقصور، وابتاعوا البنايات والعقارات تماماً كما فعل إخوانٌ لهم اتجهوا إلى الخليج العربي والكويت والإمارات وعُمان والمملكة العربية السعودية وليبيا.

كان هؤلاء على النقيض من مغتربي الأميركتيْن وأستراليا، يعودون إلى بلدهم مع أموالهم ومشاريعهم ومؤسساتهم، وأبنائهم، فلم يخْسرهُم الوطن... هؤلاء المغتربون هم بناةُ الوطن الصامتون، البناةُ الشرفاء؛ هم مبعث غناه، ومصدرُ خيراته.. يعودون مع مالهم الوفير كخلايا النحل مع العسل والرحيق وزكي الأريج، ليعلمونا كيف تبنى الأوطان...

جبل عامل هذه الأيام بفضل مغتربيه خيرُ صورة للنهضة المباركة في مختلف الميادين، إنه الشاهد الأمين على ثورة العمران والتقدم... جويا، بلدة آل السعيدي، البلدة الناهضة ومَنْجَمُ الاغتراب، تأخذ العقول، وتدهش الألباب بروعة مبانيها، وجمال قصورها، وأناقة فيلاتها، وتناسق بيوتها، ومظاهر النعمة التي تعم ديارها وناسها.

هذه الصورة الزاهية تتكرر في أرجاء جبل عامل، من صور إلى النبطية إلى قانا وحاريص ودير انطار وياروب وشقرا وكل الدساكر والقرى.. إنها تمثّل الوجه الآخر للتعب والجهد والمعاناة وعذاب السفر ومصاعب الاغتراب إنها تمثل في الوقت نفسه فرادة اللبناني الناجح، والتحدّي القاسي لكسر الفقر والجهل... إنها تمثّل وَعْياً للّذات واسترداداً للكرامة المسلوبة وإشعاراً بالثقة بالنفس.. جناح الاغتراب بعث القوة في جناح الوطن، رَفَدَهُ وأحياه، وقُدِّر للطائر أن يبارح السفح ويراود مُناخ القمم ويرى ما فيها من جمال وغنى وخيرات...

السيدة أم هاني كان يشجيها الحديث عن معجزة الاغتراب، عن الصفحة المضيئة في بناء الوطن، عن الطامحين الحالمين بغدٍ أفضل... كان يلذّ لها أن تتحدث عن رحلة العبور إلى الطرف الآخر، عن أحداث القصة وأبطالها الذين ينتهون رافعين علامات النصر.

أنا أزعم أن أبناء هذه الأيام يصعب عليهم أن يتصّوروا معاناة

الرّواد السبّاقين الذين وضعوا أصابعهم على الجرح ورأوا بثاقب نظرهم أن السبيل الوحيد للنهضة ينحصر في الثورة على أسباب التخلف والجهل، وارتياد دور العلم وتحرير المرأة وتعليمها أسوةً بالرجل..

في ذلك الوقت، زار نصير المرأة جرجي باز، جبل عامل وشهد التخلف والجهل والمعاناة وكان تعليم المرأة من المحرمات خشية أن تتثقف أو تكتب المكاتيب أو ترتكب الأخطاء أو الخطايا ودعا جرجي باز أولياء أمرها إلى سفورها وخروجها من السجنْين الكبيرين: سجنِ البيت وسجن الأميّة؛ وعلى هذه الدعوة خاطبه الشاعر موسى الزين شرارة:

لو أن غيركَ يا ابن الباز خاطَبنا
بمثلِ ما قلتَ: قلنا ويْحَهُ كفرا

أتيتَ تطلبُ تعليمَ الفتاة وأن
تشدو بمسمعنا من نظمها دررا

ما للفتاة، وما للشعر في بلدٍ
لو أمكنَ البعضُ فيه حجّبوا الذَّكَرَا!!

* * *

كانت السيدة عليّة بنتاً وادعة في طفولتها. وفتاةً جريئة تلفت الأنظار في يفاعتها، وأختاً محبة لأشقائها وشقيقاتها وزوجة وفية

مقدِّرة لزوجها، وأماً حانيةً على أولادها وأحفادها، حاضنةً موجهةً مخططةً تعرف ما تريد؛ وفوق ذلك كانت ملجأ للمعوزات من أصحاب البيوت المستورة، وبالإضافة إلى ذلك كانت السيدةَ المساهمةَ في حركة مجتمعها، المتابعةَ للنشاطات التي ترى أن بإمكانها أن تلعبَ فيها دوراً مساعداً.. وقد نجحتْ أم هاني في كل هذه الميادين، ومَنْ يعرفُها أو كان قريباً منها يدركُ أنها كانت محبَّةً، خلوقةً مميّزة، اجتماعيةً تأنسُ بالناس وتفرحُ بهم وتُكبِرُ العصاميّين منهم.

السيدة أم هاني جاهدت وعملت وتعبت وتألمت لتفتح العيون المغمضة، والقلوب المغلقة، والعقول المتخلفة على نور العلم والتقدم... كانت مسكونة بهذا الهاجس، وكانت في آخر أيامها جَزِعَةً على مصير أمتنا وانقساماتها... كنا نناقشُها، نحاورُها، نختلفُ معها بالرأي والرؤية وندرك أحياناً ومتأخّرين أنها كانت على حق؛ ... كانت السيدة عليّة طرازاً فريداً. كانت سابقةً عَصْرَها، وقد رحلت مثقلةً بأوجاعها وأوجاعِ أمتها.. كانت شعلةَ نور جهدت أن تضيء حولها بدل أن تلعن الظلام.

9 تموز 2009

شهداء طائرة كوتونو*
(أهكذا يقهرنا الموت)!!

(مهداة إلى الأخ المحامي حسن علوية وابن العم علي شرارة)

... تجاوزوا المئة والثلاثين، كانوا يتسابقون لحجز أماكنهم، فالطائرة سوف تقلع، وصاحب الحظّ من يجد له مقعداً في رحلة الشوق إلى الوطن.

هي الأعياد تقترب، والأهل يستعدون، يحلمون بعودة الغائبين، يغالبهم الأمل بزيارة واعدة أو غير منتظرة، يفاجئهم بها عزيز أو حبيب.

والأعياد مواسمُ التلاقي ومناسباتُ الاجتماع الأثيرة، نسترجع ونستعيد في دفء حلقاتها وحنان أجوائها، ونديّ أفيائها، الآتين من الأبعاد على أجنحة الاشتياق وتهاويم الفرح وزاهيات الأماني.. هؤلاء الذين حملوا معهم بالأمس عندما غادروا طموحاً واعداً، وعناداً جارفاً، وعزيمة كالسيف البتّار.

(*) نشرت في جريدة السفير بتاريخ 5 كانون الثاني 2004 عدد 9688.

ها هم يتراكضون إلى الطائرة، يسبقهم الشوق، ويأخذهم الفرح، وتلتمع على وجوههم البسمات، فالوطن في متناول أحلامهم، وأيديهم وصدورهم وعيونهم وأفئدتهم ترتقب ضمّاً ولثماً وحناناً، ترتقب فرحاً يعيشونه ويلمسونه. فالسعادة ترفرف حولهم، والبشائر والآمال تغمرهم، وقد تمنّوا لو استبدلوا أجنحة الطائرة بأشواقهم وأحلامهم التي لا تعرف حدوداً ولا أبعاداً ولكانوا حطّوا الرحال على أرض وطنهم بقفزة واحدة وأسقطوا حواجز الزمان والمكان.

الطائرة تتحرك، والمسافرون مشدودون إلى مقاعدهم يستعجلون بداية الرحلة ويراقبون عبر فتحات النوافذ كيف تزداد السرعة وتتوارى المسافات وكيف سيتحسّسون العجلات ترتفع عن الأرض، والطائرة ترتفع وتعلو مخترقة الفضاء، مندفعة كالشهاب اللامع أو كالنجم الثاقب مزمجرة هادرة مطمئنة.

في هذه اللحظات وفي داخل الطائرة أتخيل فرح الأطفال وهم يغنّون في أحضان أمهاتهم، وسعادة الأمهات الحاملات صغارهن والمتوجهات إلى بلدهن، وأتخيل الشبان والصبايا وهم في رغد العمر يتبادلون التهاني والتحيات ويضربون المواعيد للقاءات حلوة ومشاريع عامرة وسهرات أنيسة في رحاب الوطن... كان كلٌّ منهم ينتظر - بسعادة الملهوف وشوق المغترب - أن يلقى في استقباله عند الوصول أماً حنوناً أو أباً رؤوفاً أو أخاً مشتاقاً أو صديقاً وفياً أو حبيباً والهاً، أو ترباً رفيقاً أو نديماً مؤنساً أو أهلاً وأقرباء... وخلال ثوان... لم يعد بوسعي أن أتخيل ما حدث!

عفوك يا الله... أهكذا تميد الأرض ويأخذها زلزال رهيب؟ أهكذا في لحظات تخرس الحناجر ويموت الفرح وتنطفىء الحياة؟ أهكذا تتبدد الآمال وتسقط الأحلام وتسكت النبضات. أهكذا يصبح الإنسان العامر بالحياة جثماناً جامداً بلا حراك؟ أهكذا يقهرنا الموت ويطوي طموحاتنا وآمالنا وتطلعاتنا ويواري أمانينا وأحلامنا وقوانا ويطفىء فينا شعلة الحياة؟

عفوك يا الله أترانا نستطيع أن نتحمل هذه الصدمة القاتلة؟ أم ترى بوسعنا أن نتصور أن أحبّاءنا سُرقوا منا؟ وأن أصواتهم لا تبارح أسماعنا وأن إطلالتهم لا تفارق عيوننا! وأن وجودهم لا يُمرع وجودنا... وأنهم عندما انطفأت أعمارهم أخذوا معهم نبضات قلوبنا، وضياء عيوننا، وهمسات وجداننا وكلَّ ضجيج أفراحنا، وتركونا أجساداً فارقتْها أرواحها وغدتْ جثامين بلا حراك!!... هكذا نحن اليوم على المقلب الآخر، حيث كنا ننتظر قدومهم النابض بحركة الحياة فقد اجتمعنا مواكب استقبال تلفّها البهجة وتغمرها السعادة للقاء الأحبة الزائرين ولم نتصورْ أن تُمسيَ مواكبَ أحزانٍ خائرة مفجوعة.

أنا يا بنيّ بعدك خيال إنسان يرافقك في طائرة الموت، ويحوط نعشك بقلبه الكسير ويذرف على محيّاك دموعاً نضب ماؤها من الوجع الحارق. أنا أعددْتُك لغدي رجاء، فأصبح غدي بعدك ظلاماً. أنا حلمتُ أن أراكَ عوناً في خريف عمري فأضحى عمري بعدك خريفاً مرعباً، يتوالد وجعه وتتوهّج نيرانه.

كان قلبي يحوّم حولك، وكانت نفسي تقبل جراحك وتلثم عينيك المغمضتين، وكانت روحي تناجيك وتبكيك... تأكد أنك أخذت معك كل الفرح والبهجة وتركت لي سواد الأيام ولهيب الفاجعة... وأنني أحيا بلا أمل، وأنتظر اليوم الذي ألقاك فيه.

بنت جبيل والثنائي الذهبي*

مع رحيل الدكتور إسماعيل عبّاس بعد سنواتٍ على غيابِ أخيه الحاج موسى تفتقدُ بنتُ جبيل الثنائيَّ الذهبيّ، والرجليْن المميَّزين اللّذيْن فتحا لها أبوابَ الخيرْ، ومساربَ العطاء، وأسّسا كيانَ أوقافها، وبَنَيا المدارسَ والملاعبَ والنوادي، ومدَّا يد المساعدة للمحتاجين، وللعديدِ من البيوتِ المستورةِ ولكلٍّ من طَرَقَ أبوابَهما سرّاً أو علانيةً دفعاً لضيقٍ، أو رغبةً في سؤال.

بنتُ جبيل ـ بكلِّ أهلها ومرتاديها ـ مدينةٌ للأخوين عبّاس ماديّاً ومعنوياً، منذ أنْجَداها يومَ عزَّ الطلب، يومَ لَمْ يكن فيها إلاّ مدرسةٌ متواضعةٌ لا تتناسَبُ مع حاجتها وحاجةِ المنطقة. ويشاءُ القَدرُ أن يُهَيِّئَهُما للقيامِ بهذا الدّورِ الرّيادي، ويُفسحَ لهما أن يذلّلا المصاعب وينجحا في محاربةِ الحرمان، ومجاهدةِ العَوَزِ، وتلبيةِ الحاجات؛ وعَرَفَتْ بنت جبيل معهما كيفَ تُبنى المدارسُ، وتُنظَّمُ الملاعبُ، وتُعمَّرُ الساحاتُ، وتغتني الأوقافُ وتُشادُ المساكنُ الشعبيّة، وتتراصَفُ المكاتبُ وتعلو المباني حاضنةً المؤسساتِ الثقافيةَ والتجاريةَ والاجتماعيةَ والرسميةَ.

(*) نشرت في جريدة النهار بتاريخ 1/ 7/ 2009، عدد 23742، ص8.

الأَخَوان عبَّاس كانا مسكونيْن بهاجسِ إعمار بنت جبيل، وتأمينِ سُبُلِ التقدّمِ والرفاه، منْذُ كانا في سيراليون. . .، في تلك الفترة من خمسينيّات القرنِ المنصرم، تَرَكَ الدكتور إسماعيل عيادتَهُ وطافَ على المغترباتِ التي تيقَّنَ أنها سوف تلبّي بعضَ طموحه، فعملَ على تأمينِ تبرّعاتِ أهلِ الخيرِ من الأقاربِ والأصدقاءِ وحوَّلَها إلى الوطنِ، وانطلقَ في خُطُواته الأولى يَتَدارَكُ النواقصَ ويُعْلي صروحَ العلم في بلده، يرسُمُ ويخطِّطُ ويُنفِّذُ على مراحلَ بتصميمٍ وعنادٍ وهمَّةٍ لا تعرفُ التردّدَ أو تثْنيها الصعاب.

الثنائيُّ الذهبيُّ من آل عبّاس مثَّلَ حالةً نادرةً ليس لها شبيهٌ في بلادِنا، ميزتُها أنها ثابتةُ الخُطى، متواصلةُ السعي في دروب الخير المجرَّد والعطاءِ الصافي، هي مسيرةُ التواضع والإيثار التي لا تبتغي الشهرةَ الفارغةَ ولا المظاهرَ الخادعة. . . الأَخَوان عباس في هذه المسيرة نذرا نفسيْهما بصدقٍ وعفّةٍ للرسالة التي آمنا بها، بعد أن هذّبَهُمَا الدّينُ، وطهَّرهما الإيمانُ، وزانَتْهما الاستقامةُ، فخرجا ـ عن اقتناع ـ من سلطانِ المال، وهوى النفس، وشهواتِ الدنيا، وغَدَوا لكلٍّ من عرفَهما عنواناً مُضيئاً، ومثالاً فريداً، للنّقاء والتّقوى والتّواضع. .

في أحد الأيام فكّر بعضُ أبناء البلدة في تكريم الأَخَويْن، والسعي لمنحهما وساماً رسمياً عرفاناً وتقديراً وامتناناً لما قاما به، وعندما فوتح الدكتورُ بالأمر رَفَضَ بإصرارٍ جازم، وعنادٍ لا يتزحزح. . كانَ يكفيهما أنهما أرضيا رَبَّهما وضميرَهما، كان يكفيهما إيمانٌ عميقٌ

ملأ نفسيْهما وفاضَ، إيمانٌ عميقٌ أوْصَلَهُما إلى الزّهد والتقوى والقناعةِ وراحةِ الضمير ورضى النفس؛ وكان رِضى الإله أقصى ما ينشدانه وكلّ ما عداه عَرَضٌ يحتقرُهُ المؤمنُ ويبتعدُ عنه.

لمثلِ هذا الطرز الفريد من الرجال تُطَأْطَأُ الرؤوسُ وتُحنى القامات، لأن فيها نفحةً رسوليةً وسراً أوْدَعَهُ اللّهُ حيث شاء.

بنتُ جبيل تذكر د. إسماعيل باستمرارٍ وبالتّحديد عندما يلتقي أبناؤها في ثانويّتها العامة، في القاعة التي تحملُ اسمه والتي عَقَدَ فيها المجلسُ النيابيُّ جلْسَتَهُ التاريخيَّةَ غداةَ التحرير، والتي تستقبلُ على الدّوام، الأعراسَ الثقافيةَ والنشاطاتِ الاجتماعيةَ والأدبيةَ.

وتذكُرُ بنت جبيل الحاج موسى باستمرارٍ، وبالتّحديد في النادي الحسيني الكبير الذي اشترى أرضه ومَوَّلَهُ وشادَهُ وجَّهزهُ، والذي لا يكاد يفرغُ من إقامةِ المناسباتِ الدينيةَ طيلةَ أيام الأسبوع وعلى مدار السنة.. كما تذكر جهودَهما ومساهماتِ الخيّرين - وخاصةً الحاج غسّان داغر - في تشييد المستشفى الكبير وتأهيل مساحة الأرض الشاسعة التابعة له.

... بنت جبيل الفخورة بالثنائيّ الذهبيّ من آل عباس حزينةٌ لرحيلهما لكنَّ ما يريحُها أنَّ ترابَها يحتَضِنُهما بحنوٍ وعرفان..

للدكتور إسماعيل عباس وأخيه الحاج موسى كلُّ الوفاء والتقدير من المحبين، من كلِّ الناس.

رسائل تقدير

أخي عبد العزيز لك التحية*

سماحة السيد المرجع، راعي هذا الحفل

أصحاب الدولة والمعالي والسعادة

أصحاب السماحة والفضيلة والسيادة

أيها الأهل الأعزاء، رفيق العمر أبا شوقي

مساء الخير

حي على خير العمل

.. ونحن مسافرون في رحلة الحياة، يلهو بنا الزمن، يطوينا، يبتلعُ أيامَنا ولا يتركُ لنا منها إلا الذكريات!!... ولو قُدِّر لنا أن نُطلَّ على أيامنا الخوالي لألفيْناها سجلّاً حافلاً من ذكرياتٍ أمْسَتْ بقايا من عناوينِ الشريط السّريع الذي أرَّخ أحداثاً تستعصي على النسيان، حتى لكأننا مأخوذون في دُوار مرصود، نلاعبُ أحلامَنا ونواعدُ مطامحَنا، ونستعيدُ ملامحَ ووقائعَ العمر الهارب.

(*) ألقيت في (ياطر) بتاريخ 29 حزيران 2006 بمناسبة افتتاح النادي الذي شيّده الأخ عبد العزيز سويدان وأبناؤه وابنته وقدّموه إلى أوقاف بلدتهم، وبحضور ورعاية سماحة السيد محمد حسين فضل الله.

من شريط الذكريات هذا يطيب لي أن أسترجعَ صورتيْن لا تزالان تعبقان في خاطري وقد وُشِّيَتا بزاهياتِ الألوان!

الصورةَ الأولى: تؤرخ لنهايات مرحلة الطفولة وكانت كليةُ المقاصد الإسلامية في صيدا مسرحَها.

في أوائل 1949، كنت في السنة الأولى التكميلية... وقد دُعِيَتْ جميعُ الصفوف التكميلية والثانوية بمختلف شُعَبها إلى مباراة خِطابية وحُشدتْ في قاعة كبيرة تصدَّرَها المديرُ المرحوم شفيق النقاش والأساتذةُ ومندوبُ الأزهر الشريف والناظرُ العام الشهيدُ المرحوم معروف سعد واختيرت منهم لجنةٌ مشرفة، كان أستاذُنا في اللغة العربية رمضان لاوند أحدَ أعضائها، وأُلْقِيَتْ قصائدُ وخطبٌ لطلابٍ من مختلف الصفوف.. كلَّ ما أذكره أن طالباً أنيقَ المظهر، جميلَ المحيا لافتَ الإلقاء، كان يتقدَّمُنا عمراً وتحصيلاً، انتزَعَ حماسَ الطلاب وتقديرَ اللجنة، وكان المجلّي بين الخطباء واسمه عبد العزيز سويدان...

أذكر أنني فرحتُ بهذه النتيجة، كما أذكرُ أن فرحي ازداد عندما علمت أنه مثلي - ومثلُ رفاقي - آتٍ من أقصى الجنوب، الجنوبِ الذين توافَدنا منه إلى صيدا لإكمال دراستنا، يوم كان التّعليمُ المتوسّط والثانويُّ على مساحة جبل عامل وقفاً على مدارسَ لا تتعدى أصابع اليد الواحدة.. كنتُ لا أعرف هذا الطالب الفائز، وقد علمت فيما بعد أنه من بيتٍ عريق، من بيتٍ ريادِيٍ من البيوتات النادرة التي أهَّلها وضعُها الماديُ واستشرافُ الوالد أن يجعلَه طليعةً في محيطه - في

ثلاثينيّات وأربعينيات القرن المنصرم - عندما نجح الابنُ الأكبرُ المرحوم الدكتور علي سويدان في شهادة البكالوريا اللبنانية عام 1936، وأقام له شباب بنت جبيل المتنورون (علي بزي وموسى الزين شرارة ورفاقهما) حفلة تكريم وتقدير، في زمن كان فيه الحصول على الشهادة الابتدائية أمراً مهماً وحدثاً غيرَ عادي، فكيف بشهادة عالية المستوى، رفيعة التحصيل. . . !

منذ ذلك الوقت رسخ اسمُ عبد العزيز سويدان في ذاكرتي، كما انطبعتْ صورتُه في وجداني خطيباً وفارسَ منبر، لنعود ونلتقيَ أنا وعبد العزيز في الجامعة في بيروت، ونحن نَشُقُّ طريقَنا بتعبٍ وعصاميةٍ وتصميمٍ وعنادٍ ونصبحَ أخويْن تترسّخُ وتتعمّقُ علاقاتُنا مع الأيام.

الصورةَ الثانية: أستعيدها من بنت جبيل في منتصف خمسينيات القرن المنصرم ونحن في أَلَقِ الصِّبا وعنفوان الشباب. . .

يومها قدم إلى بنت جبيل شابٌ معمَّمٌ من النجف الأشرف، مع أسرته الكبيرة مع والد علاّمة، جليلٍ متواضعٍ طالما قدّرْناهُ واحترمناه.

الشاب المعمم فتح بيننا آفاقَ تواصلٍ كنا نفتقدُهُ مع رجال الدّين. . . كنّا نحن نتصوّرُ أن لكلٌ منا نهجَه الخاصَّ وأن مسافاتٍ كانتْ تفصلُنا في مقاربة الكثير من الأمور القوميّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة والسياسيّة!!

هذا الشاب المعمم استطاع بثقافته وخُلقِهِ وأدبِهِ أن يَكْسِرَ الحواجزَ ويجذبَنا إليه، استطاعَ أن يحقِّقَ لنفسه مكاناً أثيراً في نفوسنا،

فلم نعدْ معه متزمّتين احتراماً لجديّة المجلس، ولا صامتين خَشيةَ نقاشٍ يُبْرِزُ الاختلاف، ولا يُفضي إلى توافق، ولا مُحرجين من الاستماع إلى مواضيعَ لا نستسيغُ إثارتَها بحضوره...

كان الشابُّ المعمَّمُ نمطاً جديداً من رجال الدين، ملمّاً بتعقيداتِ العلاقات الاجتماعية، متطورَ النظرة في سُبل معالجاتها، قريباً من الناس، يَقْبَلُهم كما هم ويحاولُ أن يحظى بثقتهم ليرتفعَ بهم إلى فضائلِ الدِّين ومكارمِ الأخلاق!!

الشاب المعمم أصبح صديقَنا الأثير، الشاعرَ المُلْهَمَ الذي نُصغي إليه - في المنتديات أو جلسات الشاي - وهو يذوبُ مشاعرَ وأحاسيسَ في قصائدَ صوفيّةٍ، أو في مرثيّات الأئمة وشهداءِ الفواجع التي يحفَلُ بها التاريخ، أو في قصائدَ وجدانيةٍ شفّافة، أو في غَزَليّات رقيقةٍ عذريةٍ أو مطارحاتٍ أدبيّة.

الشاب المعمم حبّب إلينا صورةَ رجل الدين، قرّبَنا منه واقترب منا، فتدانَيْنا بلا حواجزَ، وتصافحْنا بلا كفوف، وتحاوَرْنا بلا أقنعة، وتعمّقْنا بلا تحرّج، وتناقَشْنا بلا مواربات، وتصارحْنا بلا كتمان، وفتحنا قلوبَنا بصفاء، وتبيَّنَ لنا وقد استشرفْنا مواهبَهُ وعقلَهُ ووعيَهُ وتحصيلهُ وجرأتَهُ وبُعدَ نظره أيَّ رجل سوف يكون وأيَّ مكانةٍ سوف يتبوّأ.. وقد صحَّ توقُّعنا وتيقنَّا أنه يحق لنا أن نعتزَّ به ونفخرَ بأن هذا الشاب المعمم سماحة السيد محمد حسين فضل الله أصبح رفيقاً وصديقاً وأخاً لكل واحد منا.

صاحب السماحة... أيها الأخوة

تشاءُ الصدف أن أُلملِمَ الصورةَ الأولى من ذكريات الطفولة في كلية المقاصد الإسلامية في صيدا مع الأخ عبد العزيز سويدان، وأن أسترجعَ بفخارٍ الصورةَ الثانيةَ من ذكريات فترة الشباب التي رافقنا فيها وسعدْنا بسماحة السيد محمد حسين فضل الله ويطيبُ لي، ونحن في المقلب الآخر ـ وقد اشتعل الرأس شيباً ـ أن أجمع صورةً مركبّةً تَضُمُّ الصديقيْنِ صاحبيِّ المناسبة وقد ازدادَ كلٌّ منهما تألقاً والتماعاً.

لقد أتيح لنا أن نواكبَ صعودَ صاحبَ السماحة وتميُّزَه بشمولِ المعرفة، وعمقِ الاطلاع، وتفردَهُ بالمواقفِ الجريئةِ وبُعد النظر، وبريادةٍ مسؤولة أهّلَتْه أن يكون الموجِّه الحكيمَ والمرجعَ في الدين والوطنيّة والأخلاق وبانيَ وراعيَ مؤسسات، تفوقُ طموحات القادرين، مؤسساتٍ على مساحات الوطن تبلسمُ جراحَ الموجعين، وتسدُّ عَوزَ المحتاجين، وتخفّفُ آلام المرضى والمتعبين. وتحضنُ الأيتامَ والمعدمين وتفتحُ عيونَ الأجيال على نور الحرف وآفاق المعرفة، وتواكبُ العصرَ وتجهدُ في تأمين ميادين العمل، وتقيمُ صروحَ المعابد والمعاهد والمبرّاتِ والمستشفياتِ والحوزات!!

وها نحن اليوم ـ وبرعايتك يا صاحب السماحة ـ نُكبِر المبادرةَ السامية للأخ عبد العزيز وأبنائه، ونقيّم هذه الفرادةَ النبيلة بتأسيس وتشييد وإقامة معلم ثقافي (نادي الإمام الحسين) ليكونَ مقراً ثقافياً وصرحاً فكرياً، موقوفاً للأجيال، حاملاً رسالة الفضيلة والنور مؤسَّساً على التقوى، منذوراً للهداية... معْلَماً يحمل وهج ثورة الحسين،

وإرثاً عريضاً وراية لمّا تَزَلْ تخفُقُ في الأبعاد يتسلّمُها ويسلّمُها أطهارٌ جديرون بحمل الرسالة على مثال العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله...

ألا بوركت الرعايةُ المستمدَّةُ من فضل اللَّهِ المتواصلةُ عبر الأجيال مع الحسين السبط الشهيد المتوجةُ بالرسول الأعظم خاتمِ الأنبياء.

أيها الأخوة...

تأمّلوا معي هذه المصادفة الرائعة كيف يجري تكرارُها من جديد... بالأمس القريب تولى الشاب علي بزي مع رفاق له تكريم ريادة لافتة انطلقتْ من بيت موسى سويدان تعلن حدثاً مهماً في حياة العامليين.

واليوم يتولى ابنُ أخت الوزير والنائب والسفير علي بزي سماحةُ العلامة المرجع السيد محمد حسين فضل الله إكمالَ التكريم ويرعى حدثاً مهماً يعلنُ تواصل الرِّيادة في بيت المرحوم موسى سويدان.

يا أخي عبد العزيز..

لك النّعمى وكلُّ الخيرات وبورِكَ عملُك وعملُ أبنائك الصالح: الصدقةُ الجارية التي سوف تستمرّ منارةَ إشعاع ومَعْلَمَ هداية.

ويا صاحب السماحة..

أيها المجتهد الإسلامي التوحيدي المرجعُ الكبير، أيها العلاّمة المميَّز الداعي إلى وحدة الأمّة ونبذِ عواملِ الفُرقة ومآسي الانقسام،

أيها المسكونُ بهاجس وحدةِ المسلمين... أيها المتوَّجُ تبحرّاً واحتراماً ومهابةً وأصالةً... يا مَنْ يتزاحم على بابه كبارُ القوم والعلماءُ والفقهاءُ والصحافيّون والجامعيّون وطالبو التعمّق في الدراسات الإسلامية، يتباركون من طُهرك، وينهلونَ من مَعينك، ويَسْتقونَ من حكمتِك وبُعْدِ نظرك لتفتحَ عقولَهم على الحقّ وتفتحَ عيونَهم على العدل... وتلك لعمري فضيلةٌ فريدةٌ نادرةٌ في هذا الزمن كما في كل الأزمان...

أطال الله عمرك وأيّدك بنور منه.

ياطر 2006/6/29

حسن عواضة... يكفيك هذا الوسام*

يوم الخميس، العاشر من آذار، وفي تظاهرةٍ لافتةٍ مميَّزة، كَرَّمتِ الحركةُ الثقافيةُ في أنطلياس المحامي الدكتور حسن عواضة، الأستاذَ الجامعي والقاضيَ السابق وأولَ مفتش عام مالي عند إنشاء التفتيش المركزي وسواه من المؤسسات العامة الهادفة إلى إصلاح الإدارة وتحديثها في مطلع عهد الرئيس الأمير فؤاد شهاب.

يومئذ ـ وفي فترة مشرقة ـ رُفعت أيدي السياسيين عن الإدارة، واختير على رأس أجهزة الرقابة المستحدثة موظفون أكفاء، حميدو السيرة، عطرو السمعة، نظيفو الأكف، مستقيمو السلوك، أحرار، نزيهون، لم يسبق لأي منهم أن طرقَ بابَ زعيم يطلبُ مركزاً، أو رَهَنَ نفسه لمسؤول يُبوِّئُهُ موقعاً، أو حمَّل ضميرَهُ وِزْرَ تصرّفٍ فيه شبهة!!

في تلك الفترة المشرقة جرت محاولةُ بناءِ دولة المؤسسات، ولمعتْ أسماء كثيرةٌ توحي ـ بمجرّد ذكرها ـ الثقةَ، وتبعثُ

(*) نشرت في جريدة السفير بتاريخ 14/ 3/ 2005.

الاطمئنان... ولمَسَ المواطنون في ذلك الحين وتأكّدوا أن الكفاءةَ باتتْ معيار الوظيفة، وأن الاستقامةَ سبيلُ الترفيع، وأن الأبوابَ التي كانت موصدةً أمام الناس أُشْرِعَتْ واسعاً بعدَ أن سَقَطتِ الوساطات والمحسوبيات.

نحن ـ أبناءَ تلك الفترة ـ نذكرُ بتقديرٍ تلك القاماتِ الشامخةَ التي شَغَلَتْ مراكز القرار... يومَها كان الاسم وحْدَهُ يوحي الاحترام ويبعثُ الثقة ـ وكان الموظفُ المرؤوس لهذه النخبة يقدِّرُ شخصَ الرئيس وأخلاقيتَه وسلوكَه واستقامتَه وعلمَه، يحترمُهُ لا بسبب التراتبية وحدَها ولا خوفاً من عقاب أو طمعاً في ثواب، بل لأنّ هذا الرئيس جديرٌ بالاحترام، وأهلٌ لأن يشْغَلَ موقَعه، ويملأَ مكانَه، ويفيضَ عليه حضوراً ومهابةً ووقاراً وفهماً وأداء... كان شخصُ الرئيس يعطي الوظيفة قَدْرَها وقيمتَها، ويُسبغُ عليها مهابةً وجلالاً... كانتِ القيمةُ مستمدةً ممن يجلسُ على الكرسي، وليس من حجم الكرسي الذي يغرق فيه مَنْ لا يستحقُّه.

يومئذ ـ في العصر الذهبيّ لمحاولات الإصلاح ـ بَرَزَ من بين الأسماء الكبيرة اسم الدكتور حسن عواضة كعلَمٍ من أعلام الإدارة، ورائدٍ مجلٍ في صفوفها الأمامية... جاءها من القضاء العدلي والمالي، جاءها يحمل تجربةً وصدقيةً ووعياً وبُعْدَ نظر، وتصميماً عنيداً على محاربة الفساد... جاءها مع صديقه وزميله القاضي الياس سركيس ـ الرئيس اللاحق للجمهورية ـ ومع كوكبةٍ من الرّفاق الذين شكلّوا فريقَ عملٍ متجانساً وعملوا على إعدادِ النّصوصِ وتهيئة الأجواء

وملءِ المراكز الحسّاسة لمتابعة مسيرةِ التّحديث التي قادها الرئيس اللواء فؤاد شهاب.

في تلك الفترة الذهبيّة كان كلُّ ما يجري في الوزارات لافتاً، يومَها دخل مؤسساتِ الدولة موظفون أوصلَتْهم كفاءاتُهم إلى مراكزِهم بعد مبارياتٍ أجراها مجلسُ الخدمة المدنية وتفوّقوا ونجحوا فيها... وبذلك وصل عامّةُ الناس، أبناءُ الطبقاتِ الدنيا، الفقيرةِ والمتوسطة، إلى مفاصلِ الإدارات، والمواقعِ العليا التي كانتْ فيما مضى وقفاً على فئةٍ معينةٍ يزكّيها الزعماءُ والسياسيون ويحشرون فيها اتباعَهم ومحازبيهم..!!.

وشهدتِ البلاد - تبعاً لذلك - نهضةً علميةً وعمرانيةً وازدهاراً وتقدماً، فقد فُتحت المدارس والكليات، وشُقت الطرقات، ومُدت شبكات المياه والكهرباء إلى معظم المناطق البعيدة فتواصلَ الناس وازدادتْ فُرَصُ العمل وارتفَعَ مستوى المعيشةِ وقلَّتِ الفوارق بينَ الطبقات.

هذه التجربةُ الشهابيّةُ التي فجّرتْ رتابة الحياة وقلّصَتْ مواقعَ الحرمان لم تَرُقْ للطبقةِ السياسية التي اهتزّت مواقعُها، فعملتْ على معارضتها، وانقلبتْ عليها وتوصّلتْ إلى تجميدها وإسقاطها، وبذلك انتصرتِ الطوائفُ على الدولة وأُجْهِضَتْ محاولةُ تحديثها... وراحتْ تحاصر رموزَها وتشدّدُ الخناقَ على حركة مؤسساتها...

في هذه الفترة رأى الدكتور حسن عواضة أنه أصبح في المكان

«الغلط»... رفض أن يبقى شاهد زور، وآثر أن يبتعدَ، فقدم استقالتَهُ وخرج إلى فضاء العمل الحر... خرج مرفوعَ الرأس بقامته العالية وخلّف وراءه سجلاً ذهبياً من الصيت الحَسَن والذكرِ العَطرِ والكفِّ النظيف والخُلق السامي والعلم الزاخر والتجربةِ الغنيّة والنزاهة المأثورة... خرج وقد تَرَكَ جيشاً من الجامعيين الذين توزعوا على مختلف الإدارات، الجامعيين الذين رعاهم وعلّمهم في الجامعات والمعاهد العليا طيلةَ عقود من السنين، وكان لهم باستمرار المثلَ والمثال...

وتابع الدكتور حسن التدريسَ في الجامعات بالإضافة إلى إدارة مكتبه في المحاماة، فما توكّل إلا عن مظلوم، ولا ترافع إلا عن حقّ مهدور، ولا طالبَ إلا برفع تعدٍ أو إزالة عدوان... واستمرتْ مسيرتُه على استقامتها في عمله الجديد، فلم يَجْرِ وراءَ كسبٍ مشبوهٍ، ولم يُسخِّر ضميرَهُ في قضية مُلْتبِسة، وظلَّ على الدوام كما بدأ الرجلَ العالي الجبين الرافعَ الرأس، النظيفَ، الشريفَ الذي لم يتَلَوَّثْ يوماً بشبهةٍ أو يتلطَّخْ بخطيئة!!

الدكتور حسن عواضة القاضي النزيه، والموظف العفيف، والأستاذ الجامعي، والمرجع المتبحّر، والمفكّر المتنوّر علَّمَنا الكثير... كان مثَلنا الأعلى... علَّمنا كيف تكونُ العصامية، وكيفَ يُحترم الإنسانُ ويفرضُ احترامَه على الآخرين، وكيف يكونُ السلوك تجسيداً لفضائلِ الأخلاق السامية... أنه طرازٌ فذٌّ من الرجال، مثالٌ يُحتذى، وقدوةٌ فريدة!!!

الذين يعرفونه ويقدرونه حق قدرة كرّموه بالأمس، مَحَضوهُ حبَّهم وقلّدوه وساماً رفيعاً... وساماً أثمنَ وأنفسَ وأغلى من أوسمةٍ رسميةٍ أضاعَتْ طريقَها وعُلِّقَتْ على صدورٍ لا أدري إذا كانتْ جديرةً بها.

الدكتور حسن عواضة يكفيكَ الوسام الذي قُلِّدْتَهُ بالأمس... إنه وسامُ الوفاء من محبّيك الصادقين!.

طلال سلمان... أدْمَنّاكَ وأحْبَبْناك*

طلال سلمان، بينَنا في بَلدة بنت جبيل، يستقبلُنا، يرحِّب بنا، وقد جئنا نحنُ لهذه البشارة مهلّلين!!

... هو لقاءٌ أَرَدْنَهُ مع صفاء الصّحوِ، ومواسم الغلال، وانتظرناهُ مع أحلام القطافِ ووعود البيادر... إلى بلدكَ قَدِمْتَ، وبين أهلِك حَلَلْت، وما كنتَ يوماً بالغريب ولا البعيد... كان نَفَسُكَ معنا، كان وَهْجُكَ يُدفئُنا، كانَ قلمُك ينطقُ باسمنا... كانتْ روحُكَ تحوِّمُ حولنا... و«السفير» كانت سفارتكَ وسفيرتَنا... كانتْ صوتَ المناضلين الشرفاء، وصوتَ المتعبينَ الموجعينَ الحالمين!!!..

طلال سلمان... رفيقُ صباحاتنا مع فنجان القهوة، وأنيسُ وحدتنا وخلواتنا في ساعات النهار، ونديمُ جلساتِ الشاي حول «سماورِ» ما بَعْدَ الظهر، وسميرُ أمسياتنا ولياليْنا، والشريكُ الحاضرُ الدائمُ في نقاشاتِ السياسة وسجالاتِ الأدب ومطارحاتِ الهوى ونجاوى المحبّين!!

(*) بمناسبة زيارة الأستاذ طلال سلمان لبنت جبيل بتاريخ 19/ 7/ 2003 لإلقاء محاضرة.

يا أبا أحمد... أيها المُتَسَلِّل إلى أفئدتنا ونحنُ نقرؤك عَبْر ضوء عيوننا، ونبضات قلوبنا، وتراقصِ أحلامنا، وتهاويمِ نجاوانا، وانفتاحِ عقولنا... أيها المؤاسي انكسارَ آمالنا، ووجعَ حاضرنا وسوادَ أيامنا وتعثُّرَ مسارنا...

لقد أدْمنّاك، نَهَلْنا من أدبِكَ السياسي، تزوَّدْنا من نقاء خطِّك، رأينا بك ومعكَ وضوحَ السبيل، وبُعْدَ الهدف، والتصميم العنيد، ووعورةَ الدرب، والعقباتِ الكأداءَ، ولَمَسْنا وتحسَّسْنا وأكْبَرْنا ذلكَ الإيمان الذي لا يَعْرِف مساومةً ولا استسلاماً...

طلال سلمان... لقد أدمَنّاك وأحَببْناك... إنساناً مُرْهَفاً، شفّافاً، وعاشقاً مُدْنَفاً منذوراً للحبّ. مرصوداً للهُيام، مأخوذاً بدُوارِ الوَجْد على جناحِ «نسمة» في نشوةِ الصّبا المِغْناج ونفحةِ العطر الخلاّب!!!

طلال سلمان... طالما غَبَطْتُكَ على مُراهَقَةِ العِشق، أو على اكتماله... لا فرقَ... أنتظرُ يوم الجمعة فأعيشُ معك النبضة والخلجةَ والفكرةَ والصورةَ... أنتَ يا أخي مسكونٌ بهذا الداءِ الحميد، بحركةِ الحياةِ تموجُ وتمورُ وتشرئبُّ وتتمرّد... فأُرافقُكَ بفرحٍ... أسْعَدُ معكَ وأنت تسكبُ أحاسيسكَ في الكلمات، تملأُها وهْجاً، تهبُها نبْضاً، تُعطيها حياةً، تربُطُها بأوْصالِك وتذيبُ نَفْسَكَ فيها لتُطلَّ علينا أميرَ عشقٍ، ملكَ حبٍّ، نستعيدُ معه الصِّبا المُسافر، والأحلام الملوّنةَ، وأساطيرَ الهوى، وحكايا الغرام!!!..

نحن يطيبُ لنا أن نسْمَعَكَ ونَطْرَبَ لحديثك... تودُّ آذانُنا أن تسكر، وتودُّ عيونُنا أن ترتاحَ وتسعدَ، أن تحوطَكَ على المنبر، على الرغم أنها لمّا تتْعَبْ من ارتشافِ حروفك عَبْرَ سفارتك في السفير... كلتاهما، الأذنان والعينان، مأخوذتان بفرح غامر، وأنسٍ مرصود...

أخي أبا أحمد... أهلاً بك في بلدك، تستقبلنا، ترحِّبُ بنا، تزوِّدُنا - كعادتك - من معينكَ الثّرّ الشافي!!... هنيئاً لك... أنت مواطنُ شرفٍ في كلِّ زاويةٍ ترتادُها، في كلِّ مكانٍ تحلُّ فيه... الهواءُ النظيفُ يعرفُ أنفاسَكَ، والترابُ الطاهرُ يتيهُ بِوَقْعِ خُطُواتك، والروابي والقممُ والدروبُ تعرفُ المناضلين والشرفاء... أنتَ اليوم هنا، في بنت جبيل، كما كنت بالأمس - في الأيام الصعبة ومصادرةِ الأنفاس - عَبْر جريدتك ومنارتك، جريدتِنا ومنارتنا، التي أَرَدْتها يوماً صوتَ الذين لا صوتَ لهم، والتي أَصْبَحَتْ مع الأيام الصوتَ الصارخَ المدوّي الصامدَ الشريف، صوتَ المقاومين الصامدين الذين لم يَبْقَ صوتٌ سوى صوتِهم في زمنِ الرِّدَّة والهوان...

السفير في عيدها العشرين

أخي طلال

صدّقني أنني منذ عدتُ بالأمس من احتفال عيدك العشرين وأنا أكثرُ خوفاً عليك وتقديراً لك ولمواقفك الوطنية، كان العيدُ يا أبا أحمد استفتاءً شعبياً ومؤتمراً وطنياً ولقاءً نحتاج إليه ونرتاحُ له بعد طول غياب... البلدُ كلُّهُ كانَ يشاركُكَ فرحَكَ ومعاناتك فأنت الذي حملت باستمرار آلامَهُ وأحلامهُ ووجعهُ الكبير...

أن تكون صوت الذين لا صوت لهم في الزمن الرديء تعني البحثَ عن المتاعب والسيرَ بين الألغام والخطر المقيم.

أن تكون الأكثرية الصامتة تعني تحدي أمراء الإقطاع والتخلّف والجهالة ومصادرة حركة الحياة ونَفَس الحرية...

يا أخي طلال...

ألم تكنْ بالأمس القريب الزاويةَ المضيئةَ في ظلام عصبيّة المذاهب وأمراء الطوائف والزواريبِ، يومَ شوّهوا وجه الأميرة بيروت وأذلّوا الضاحية النّوارة وصادروا قرار الوطن...

فالساحة العريضة التي اتّخذتَها ميداناً طالما ضاقتْ بأحلامك وأمانيك، والميدان الكبير الذي خُضْتَ غَمَراتِه ولا تزال، كبا فيه كثيرون...

أيها الباحث أبداً عن المتاعب، والحالمُ بالغد العربي المضيء أرى فيك صوتاً رسولياً يعرفُهُ الفقراءُ المثْقلون بهموم الحياة... يتعشَّقُهُ الكادحون المحاصَرون بذلّ الحاجة وهوان الحرمان، أيّها المقتحمُ علينا بيوتَنا، لتشاركَنا رشفةَ القهوة، ورحيقَ الشاي، ونحن نتلو بعشق. سلاسةَ كلماتك ونستعيدُ بلذّةٍ فُرادة تعابيرك...

في أدبك السياسي غزلٌ جميل، ونظمٌ أنيق، وفي تحاليلك ترانيمُ وأضواءٌ، نكادُ نحفظ الكثيرَ منها، ونعلّمُهُ أولادَنا ليتأدبّوا عليه، فأنت دائماً مسكونٌ بأحلام الوحدة والحريةِ والعيشِ الكريم، سفيرُ العرب في لبنان وسفيرُ لبنان في دنيا العرب، والجنوبُ ما كان يوماً إلا همَّكَ المقيم، والوجعَ الذي ينخرُ العظامَ وينهشُ الأعصاب...

أما فلسطينُ فهي القضية المركزيةُ المقدّسةُ وقِبْلَةُ التوجُّهِ الصحيح، هي الآلامُ والمآسي والآمالُ والأحلام..

يا أبا أحمد: الوطن على اتساعه مليءٌ بالأوجاع... كلُّها تتناسَلُ وتتوالد... واحدةٌ منها تكفي، مالَكَ تحمِلُها كلَّها، تقارِعُ وتحاربُ، تفضَحُ وتقتحمُ... تعارِكُ ولا تهدأ؟؟ ألا رِفقاً بنفسك... أخافُ عليك في هذا العصرِ في زمن الرّدة... كما خِفْتُ عليكَ أمس في عيدك الوطني الكبير...

أشدُّ على يدِكَ مهنئاً وأدعو الله أن يحفَظَك ويسدّدَ خطاك.

1993

مع جميل حبيب بزي
في «موكب الطيب»

مُقَدِّمة لديوانه الزجلي...

ولكم أسعدني أن أرافقه في موكب الطيب..

على مقاعد الدراسة الأولى كنا رفيقَيْن، وفي أحضانِ بنت جبيل دَرَجْنا طفلَيْن، وعلى مُنْحناياتها وهضابها وحركةِ ناسها تفتّقَتْ بواكيرُ وَعْينا وأخَذَتْنا لاحقاً دورةُ الحياة.

كانَ علينا أن نخرجَ من بلدتنا إلى مدارس صور وصيدا وبيروت لنَشُقَّ طريقنا، ونحقّقَ طموحَنا ونَبْنِيَ مستقبلَنا، فَتَفَرَّقْنا وتوزَّعْنا حيث شاءَتْ لنا الأقدارُ أن نكافحَ داخلَ الوطن أو في دنيا الاغتراب.

ومرَّتِ الأيام بحلاوتها ومرارتها، وعُنْفِ جنونِ الحربِ الأهليّة، ومأساة الاقتتال الداخلي، فكدْنا نَفْقُدُ ذاكرتَنا، وننسى عديداً من الأهل والرفاق، ونُضَيِّع كثيراً من العناوين.

وفي زيارة لديترويت 2003 تَسَقَّطْتُ أخبارَ رفيقِ الطفولةِ جميل حبيب بزي، وتكرّم ابنُ الخال الحاج حكمتْ بزي بتأمين اللقاء معه

بعد سنوات طويلة من البعاد، وَوَجَدْتُني وإيّاه في حلاوة هذا اللقاء وأنسه، أعود طفلاً إلى شوارع بنت جبيل وزواريبها وسوقِ خميسها ومدرستها وليالي رمضان وصوت (الأخرس) وإيقاع ضرباته على (لوحة التنك) ليوقظنا على السحور، وذكريات تَجمُّعِنا «ومُظاهراتنا» عند خسوف القمر، أو مغامرات السطو على الكروم بعيداً عن عيون النواطير... ثم لأكتشف وأفاجأ أن رفيقي تفتّحت مواهبُهُ على الشعر. ويهديني ديوانه (حنين) مشفوعاً بهذين البيتين:

راسي دارْ، وفكري اختار شو بِهْدي أغلى حْبَابي؟!
بقدِّملو قلبي تذكار!! وَلاَّ بقدِّملو كْتابي؟!

واللاّفتُ أنني وجدتُ في الديوان وأنا أقرأهُ بشغف، أن رفيقي قد أهداني كذلك قلبه، الذي اسْتَوْدَعَهُ في الديوان، وسَكَبَ فيه بالإضافة إليه، أحاسيسه حروفاً على وَرَقِهِ، وصاغَها بكلماتٍ مُنَمَّقةٍ راحت تتناغَمُ وتَتَهامَسُ وتغنّي وتُشيعُ جواً دافئاً معطَّراً، يختال فيه الصِّبا ويموج الدلال، ويتهادى الحبّ المطلُّ من القامةِ الهيفاء، والعيون النجلاء، وفتون الكحل:

بَيْنْ عيونك والكِحْلي قلبي محتارْ
لمّا الكحلي، بتِشْتَحْلي عيونكْ بِتْغارْ!؟

وافترقنا من جديد - عندما انتهت رحلتي القصيرة إلى الولايات المتحدة - وعُدْتُ إلى الوطن، عُدْتُ سعيداً وأنا أصطحبُ رفيقي - جميل حبيب بزي - وقد أَوْدَعَ نفسه بين دفّتيْ كتاب، وسَكَبَ ذاته غزلاً رقيقاً، وحنيناً دافقاً، وحُباً دافئاً، وكلماتٍ أنيقةً، ولَفْتاتٍ شعرية،

جميلة اللّمحات، متراقِصَة الرُّؤى، مسحورةَ الألوان... وتابعتُ من جديد مسيرةَ الأخ جميل مع الشعر الزجلي، وتأكّدْتُ من عطاءاتٍ تصدرُ عن توهّجِ موهبةٍ تتدفّقُ مع مرور الأيام، وأنّ (موكب الطّيب) القادم بعد (حنين) أطَلَّ يحملُ معه نداوةَ الياسمين، وعبيرَ الخُزامى، وعطرَ الورود، وأحلامَ العاشقين، وأحاديثَ الهوى، وأساطيرَ المحبّين:

غـنّـيْـتِـك أحـلـى غـنـانـي كـتـبْـتِـك أشـعـار
رَسَـمْـتِـك صُـوره بـوجـداني وغـار الـعِـنَّـابْ!!

الشعر الزجلي النابع من اللّغةِ المحكيّةِ لا يقل شأناً في إيحاءاته وصياغته وروائع معانيه، وبراعة سَبْكه، وموسيقاه، وأبعاد خيالاته عن الشعر الفصيح، كلاهما يصوّر الأحاسيس والعواطف مسكوبةً في قالب موسيقي، مَجَنّحةً بخيال ملوّن، ونابعةً من نفسٍ شفّافةٍ وقلبٍ مرهف.

شِـفْـتْ الـدّني من جـديـدْ ضـحـكـتْـلي
ومـبـروكْ كـلّ الـنـاسْ قـالـتـلـي
لـمّـا كـنـاري الـحـبّ غـنّـالـي
قَـدّيْـشْ عـاحـالـي شِـفْـتْ حـالـي
ما قـشِـعْـتْ عـاقـدّي حـدا، ومـثـلـي!!!
وطِـلْـعـتْ حـتّـى حَـوْشِ الـنّـجْـمـاتْ

مـــالْـقِـيــتْ إلاّ شُـــويّــةْ بْـــنَــيَّـــاتْ
ولـمّـا وْصِـلْـتْ لَـنِـجْـمَـةِ الأسْـحـارْ
قـالـتْ: لَـوَيـنْ، لَـوَيْـنْ هـا الـمُـشْـوارْ
مـا عـاذْ غـيـري بـالـسّـمـا صـاحـي!!
... لـعـنـدِكْ خـديـنـي تـا بْـظِـلّـكْ بَـاتْ!!

يكاد الإنسان يهتزّ طرباً، وتأخذه نشوةٌ عارمة عندما يقع على اللَّمْحةِ الشعرية، والتعبير الأنيق، ويجدُ الصورةَ الحلوةَ مسكوبةً في الإطار الجميل.

يا أخي جميل

هنيئاً لك هذه النفسُ الشفّافة، وهذا القلبُ الدافقُ غزلاً وحنيناً، وحباً يفيض الطيب على مواكبه.

أشدّ على يدك وأتمنى لك دوام الصحة والعطاء وأترك للقارىء أن يشاركني متعة السفر معك.

2005

إلى الأخ كاظم الخليل بمناسبة تقاعده*

يقول المثل الفرنسي:

أن تصل متأخراً خيرٌ من ألاّ تصل...

... وإذا كنتُ تأخرتُ أو تأخرْنا عن قولِ كلمةِ حقٍ بمناسبة تركك لنا، فلأني أو لأننا لا نكادُ نصدّقُ أو نستوعبُ أن مديريتَنا ليس فيها كاظم الخليل.

فنحن معاً منذ أكثر من عقديْن، أكثرَ من عشرين سنةً هي على الأقل نصفُ عمرنا في الوظيفة... فكيفَ إذا كانتْ فترةً، حرجةً، صعبةً، حزينةً... باعدَتْ بين مناطقنا... حالتْ دون تواصلنا... لم تسمحْ لنا أن نتلاقى، أو نتحادثَ، أو نتبادلَ أوجاعَ المعاناة، وآلام وضعِ اليد، والبعادَ المفروض عَبْرَ الحواجزِ و(الغيتووات)!!...

تلك الأيام سرقتِ الفرح من عيوننا، اغتالتِ الهناءَ في وجداننا قسَّمَتْنا شِيَعاً وقبائلَ وطوائفَ ومذاهبَ وزعاماتٍ حتى على الأحياء والزواريب...

(*) ألقيت في احتفال تكريمه في برمانا، وكان كاظم الخليل يشغل وظيفة رئيس الديوان في مديرية الشؤون العقارية.

يومَها وصلَ التهجيرُ إلى أماكنِ عملنا، امتدتِ النارُ إلى مكاتبنا... توزعَ كلٌّ منا حيثما شاء سيّدُ الساحة...

في تلك الأيام انتقلتْ مديريتُنا من الصيفي إلى العدلية، إلى بعبدا إلى بيت المدير، ورجعتْ إلى مقرها المؤقت ثم هاجرتْ أو تهجَّرَتْ ولم تشعرْ يوماً باستقرار أو راحةٍ... وفي كلٌ هذه المراحل والعذابات كان كاظم الخليل عيناً ساهرةً، وقلباً محبّاً، وهمةً عاليةً لا تعرفُ الكَلَلَ أو المخاطر... كانَ الديوانَ والمحاسبةَ والقلمَ، كان المديرَ وظلَّ المدير... كانتْ في رواتبنا رائحةُ عَرَقِهِ وتَعَبِهِ، وكانَ في التكاليف والتعاميمِ والقرارات كثيرٌ من نَفَسه، كما كانتْ في مراسيمنا كلِّنا نكهةٌ من ذاته... حتى بِتْنا كلُّنا نعرفُ أسلوبَهُ وخطَّهُ ولَوْنَ حِبْرِهِ، والتوقيعَ الصغيرَ المتكىءَ بجانب توقيع المدير...

نعرف كلَّ ذلك كما نعرفُ وجهَهُ وبياضَ شَعْرِهِ ولونَ عينيه...

... كان كاظم الخليل مع المديرين الثلاثة الذين عايَشَهُمْ الصّديقَ الصّدوق، والرفيقَ المخلص... كان صريحاً لا يهادن، وفياً لا يماري، وباستمرار أبيضَ القلب، طاهر السجايا...

يا أخي يا أبا سليم

أَتَيْتَنا منذ أكثر من عقدين من الزمن من مجلس الخدمة المدنية... الذي كان منجم الكفاءات، وأملَ الطامحينَ، الذين لا يعرفون أن يتزلّفوا أو يَحْمِلوا المباخرَ فدخلوا ـ عَبْرَهُ ـ دنيا الوظيفة من بابها الواسع الكبير...

واليوم ها أنت تغادر عملك وقد تغيّر كلُّ شيءٍ مع الأحداث... ها أنت تتركُنا وفي نفسِكَ كما في نفوسِنا وجعٌ دفينٌ... وإحباطٌ مؤلمٌ، وهياجٌ صارخٌ في أعماقنا نحاذِرُ أن يسمَعَهُ أحدٌ سوانا فالشكوى لغير الله ذلّ، والصبرُ على الحق المهدور خيرٌ من الاستزلام الرخيص والانبطاحِ على العتبات...

نحن... تأبى نفوسُنا أن نتزلَّفَ، ترفُضُ ذواتُنا أن تُهدر كراماتُنا لنطلبَ مراكزَ هي أقلُّ حقوقنا... لقد أصبَحَتِ المراكزُ العليا في الوظائف حكراً على المقرّبين، ومكافأةً للمتزلفين، وللبطانةِ الملتصقةِ بأصحاب النفوذ التي تسبّحُ بحمدهم صباحَ مساءَ...

نحن... يكفينا أننا وصلْنا بجهدنا، نجحنا بكفاءتنا، وارتقيْنا بتعبنا، وحفظْنا ماءَ وجهنا...

صُنّا كرامتنا ونحن نعمل، نعملُ لإرضاء ربّنا وضمائرنا وأنفسنا، ولا نبغي من أحد جزاءً ولا شكوراً...

يا أبا سليم

لا أدري من منّا سيفتقدُ الآخر... ربّما يفتقدُ كلانا صاحبَهُ...

لكنْ تأكّد يا أخي، أننا لا نستوعبُ إحالةً أو كتاباً ليس فيه خطُّك أو توقيعُك، نَفَسُك أو نبضٌ منك...

هل تردّد معي يا أبا سليم قول شاعرنا المتنبي وهو يودّع بألمٍ وعتبٍ سيفَ الدولة وقد رأى أنهما سيفترقان... وأن الواحدَ منهما أخذ بعضاً من الآخر معه... حمله في ذاته، في سويداءِ القلب

وأعماق الذات... حَمَل ذكرياتٍ لا تُنسى ولا يطمِسُها البعاد.

إذا تـرحّـلْـتَ عـن قـومٍ وقـد قَـدَروا
ألاّ تـفـارِقَـهُـمْ... فـالـراحـلـون هُـمُ...

صدّقْني أنني لن أستوعبَ مديريةً ليست فيها إطلالةُ أخي أبي سليم...

أول أيلول 1994

إنه المتن الشمالي القضاء المميَّز*

... ها نحن يا معالي الوزير نرحّب بك في المقرّ الجديد لأمانة السجل العقاري في المتن، نرحّب بك في هذا القضاء النابض بالمحبّة، الغامر بالعطاء، المنفتحِ على الفكر، الحاملِ مشعلَ الثقافة، والناشرِ أشرعتَها في الآفاق، نرحّب بك في هذا القضاء المميَّز الذي ترتاح السماء على قمته، ويغفو البحر على رماله.

عن المتن الشمالي، عن هذا القضاء الفريد سلِ الفنّ والنثر والشعر، سلِ الأدبَ والموسيقى، سلِ الفكرَ والسياسةَ، وسلْ سَيْلَ العطاءات في الوطن وخارج الوطن، سلِ الريادةَ التي لا مثيل لها ولا شبيهَ في الدنيا الواسعة التي تجاوزتْ حُدُودَها طموحاتُ المتنيين الذين دمغوها ببصماتهم، ولوَّنوها بزاهي مواهبهم.

هذه انطلياس لا تزال تتعالى في جنباتها أصواتُ العاميّة، وتتجاوبُ نداءاتُ أولِ تحرّكٍ شعبيٍ يعلن الثورةَ على الظلم والاستبداد. وتلك المحيدثُة تهدي العربَ صنّاجَتهم وشاعرَهم إيليا أبو

(*) بمناسبة زيارة معالي وزير المالية فؤاد السنيورة أمانة المتن مع كبار موظفيه وبحضور معظم رؤساء البلديات أُلقِيَتْ هذه الكلمة المجتزأة.

ماضي، وذاك صنين بصخوره الدهرية البيضاء وقَرْنَيْهِ الشاهقين يحضُنُ عرزالَ ميخائيل نعيمه وأنفاسه، ويطرب لأهازيجِ رشيد أيوب وحنينه إلى الثلج؛ هي بسكنتا نفسُها التي تفاخر بتعاليم عبد الله غانم وأشعاره وفرادةِ أبنائه؛ وهذه ساقية المسك وبحر صاف تفوح منها روائحُ توفيق يوسف عوّاد برغيفه وقميص صوفه وطواحينه البيروتية، وعلى مقربة منها بعبداتُ وفيها عَبَقُ أشعارِ صلاح لبكي ونباهَةُ آل لحود - محامين وضباطاً ورؤساء وقضاة وإداريين - وتلك بكفّيا بلدة المحامي الكبير يوسف السودا وحاضنة آل الجميل وقد أعطت للوطن وللعرب زعماء ورؤساء وصحافيين وفنانين ما بخلوا يوماً - بدمائهم، وبرائع أدبهم، وفنهم - على وطنهم، وإلى جوار بكفيا تميس بيت شباب بنواقيسها ورجالاتها ومحاميها وأدبائها وشعرائها من آل بجاني والأشقر وفاخوري، وتلك الفريكة تزدهي بأمينها وبالسلسلة الريحانية التي تواصل المسيرة، وتواكبها قرنة شهوان وزبّوغا مع أنطوان غندور وريمون جبارة وأنطوان كرباج وتتعانق معهما عينطورة فخورة بشاعرها المحامي ريمون عازار أما روابي كفرعقاب فلا تزال تنتشي بعطاءات آل المعلوف - متنيين وزحليين - من الأب عيسى اسكندر المعلوف وأبنائه الشعراء فوزي ورياض وشفيق والمحامي الأديب الخطيب نصري وسفيرنا إلى الفرنكوفونية المؤرخ والروائي والصحافي أمين المعلوف.

ومن هذا المتن الشمالي ونحن في ذرى جباله تطل علينا أفكار الزعيم الشهيد أنطون سعادة، متكاملاً مع عرين ديك المحدي وأسد الأشقر، نزيل سجن القلعة والذي كتب باسم سبع بولس حميدان.

وفي ساحل المتن الشمالي بين البوشرية وبرج حمود يطلّ علينا

أمير الشعراء بشارة الخوري الأخطل الصغير شاعر الصّبا والجمال والهوى والشباب، والكأس والندامى ومغني العرب في أفراحهم وأتراحهم. أما سن الفيل فسل عنها الدماء الزكية الطاهرة، دماء التضحية في سبيل الوطن، دماء الخوري الشهيد الحويك.

هذا هو المتن - يا معالي الوزير - الذي أعطى قياداتٍ سياسيّةً عريقةً كآل المر والأشقر وأبو جودة ومخيبر وسواهم وسواهم، وأنا إذا بدأت بالتعداد أجدني عاجزاً عن الوصول إلى النهاية.

هذا المتن المميَّز - وبالإضافة إلى ما ذكرت - أغنى لبنان والعرب بالرحابنة وفيروز - سفيرتنا إلى النجوم - الذين رفعوا اسم وطنهم وأمتهم إلى مراتب الخلود ونشروا الفرح والطرب والغناء في القلوب والنفوس وفي أنحاء المعمورة.. هؤلاء الموهوبون جيلاً بعد جيل هم فخرُ لبنان وعزتُه ورفعتُه، هم السفراءُ الدائمون المعتمدون على مساحة العالم، سفراءُ لبنان والعرب، حاملو الشعلة المتوهجة، داخل أوطانهم أو في ديار الاغتراب.

هذا هو المتن يا معالي الوزير، الذي نعمتُ فيه سنواتٍ عديدةً بين أهلي وأحبائي، أحسُّه في دمي، أشعرُ أنني منه وإليه، يعيش معي أنّى كنت وحيث أقمت، أحب ناسه وأرضه واتساع أفقه، وهو مفطور أن يسع كلَّ الناس، وكلَّ المعتقدات وكلَّ الاتجاهات السياسية، إنه المتن الذي لا يعرف الانعزال ولا التقوقع وينطبق عليه قول الشاعر:

ما دمت محترماً حقي فأنت أخي آمنت بالله أم آمنت بالحجر

1997

صدِّقْ عينيك...
فأنت بين أهلك في ديترويت*

لا ما أنتَ بالحالم ولا الناعس ولا السكران ـ وأنت بحمد الله لم تعرفْ يوماً هذا الدُّوار ـ تحسَّسْ جسدَك... ها أنتَ بكاملِ وعيِكَ في المقلبِ الآخر من الأرض، بين أهلكَ ورفاقكَ وأبناءِ وطنك... ها أنت تَتَرنَّمُ بلغتك ـ الغريبة مثلِك عن هذه الديار ـ يؤنُسك جَرْسُها، ويطربُك إيقاعُها، ويشجيك أَدَبُها... تسمع وتستمع... فالمجلسُ حميمٌ والمنتدون سفراءُ وطنِكَ في أقاصي الأرض، يعاركون الزمنَ ويذلّلون المصاعب، وهمْ يقرعون أبوابَ المجد ويغالبونه بطموحٍ لا يعرف تراجُعاً أو نَصَباً!!

ها أنتَ وراء البحار، عَبْر المحيطات، في عالمٍ جديد، كان مجهولاً، محجوباً بقصيّ المسافات، وأهوال ارتيادِ اللجج الثائرة... صدّق عينيك... أنت في نادي بلدتك، تأملْ إشعاع اسمها، ولمعانَ هذه الحروف... لقد حمَلوهُ في مُهجَ قلوبهم، وسَيَّجوهُ بأهدابِ

(*) الكلمة التي ألقيت في نادي بنت جبيل بمناسبة توقيع كتاب: موسى الزين شرارة الشاعر الثائر في محيطه العاملي في 28 أيلول 2003.

عيونهم... نَقَشوه في أعماق الوجدان، وجاؤوا به تعويذةً تحرسُهُم، وتميمةً تُبلْسِمُ غربَتهم، ووديعةً تؤنسُ وحْشَتَهم، وطيباً يعطّرُ أنفاسَهم، ويدغدغُ أشواقَهم، ويُلقي في أفئدتهم سكينةَ الاطمئنان وهَدْأةَ الإيمان!!

صدّقْ عينيك، فأنتَ بكاملِ إدراكِكَ وعميقِ وعْيك... صدّق وتأكّدْ أن الإنسانَ يمكنُ أن يحملَّ معه الوطن ويحتضِنَهُ ذكرياتٍ تتراكمُ وأحلاماً تزهرُ وعبقاً يتوالدُ... ليعيدَ في داخله - ترتيبَها وتكوينَها ويسترجِعَها وينتقلَ ولو بالخيال في دنياها، وبين معالمها... هي مسيرةُ عمره، وحكايا أيامه، وأحداثُ ماضيه... على هذا الشكل تسكُنُنا بلدتُنا، بنت جبيل، وكلُّ بلدةٍ أو قريةٍ نزحْنا عنها، وحملْناها حباً ووحياً وحنيناً... نعيشُ عليه، نأنسُ به ونرتاح... هكذا نرتادُ بخيالاتنا الحلوةِ طريقَ العين وساحةَ السرايا وحاكورةَ نصف الضيعة وشلعبون وخلّة عيسى (وتحت اللكس) والوادي، وكلَّ الحنايا والدروب والساحات، ونُسْبغُ عليها حركةَ الناس وضجيجَ الدبكة (وتمشاية) الشباب وغُنج الصبايا الحاملاتِ جرارَهن وصراخ التلاميذ في ملعبِ المدرسة متناغماً مع نداء الباعةِ في سوق الخميس...

... وأنتم هنا، تشكلّون - واقعاً - قفيرَ النحل الوليد، وقد خرج من رَحِم أمّه وأصبح طلْعَها الجديد... ذلك القفيرُ الذي طار من حِضْنِها، وحملَ فئة دمها، ونوعَ خلاياها ونَفَسَ ألوانها، وسجلاً طويلاً حافلاً من تاريخها... هو وجْهُهَا الجديدُ وجيلُها الجديدُ، لكنْ في المكان القصيّ البعيد... أنتمْ هنا رسُلُها الموصولون بها بحبل

السرة الذي لم ينقطعْ والذي تجْهَدون أن يبقى ملتصقاً بها يُمدُّكم كما تُمدّونه، بدفءِ الدم ومنعشِ الأنفاسِ ونكهةِ الترابِ وسكينةِ الحنين!!

أنتم هنا تمثّلون حركة الحياة في تجذّرها وتجدّدها... خرجتمْ من حضنها كما خرجَتِ الفتاةُ أوربًا وقرطاجةُ من صور... وكما خرجتْ إشبيليةُ وقرطبةُ وغرناطةُ من دمشق وتدمر وحلب، وكما خرجتِ الرَّصافَةُ إلى الأندلس مع صقر قريش عبد الرحمٰن الداخل لتضارع رصافتَه الحبيبةَ في العراق... كما خرجتْ صحافةُ لبنانَ إلى وادي النيل مع جرجي زيدان وآل تقلا وصرّوف والجميّل لتساهمَ عميقاً في نهضة مصر التي جاوَزَتْها إلى بلاد العرب...

أنتمْ هنا استمرارُ السّيرةِ العظيمةِ التي بدأتْ مع مطلع القرن المنصرم عِندما راحتِ الأميركتان تموران بأفواجِ اللبنانيّين وبعضِ السوريّين الطامحين، الذين رفعوا راية النهضةِ والتجديدِ والتحديثِ في مناحي الأدب والحياة، والذين شكّلوا في نيويوك بالإضافة إلى أعمالهم الرابطة القَلَميَّةَ مع جبران ونعيمة والريحاني وإيليا أبي ماضي وشكّل رفاقٌ لهم في الجنوب العصبةَ الأندلسيّة مع الأخوةِ فوزي ورياض وشفيق المعلوف ومع جورج صيدح والشاعر القروي والياس فرحات وسواهم وسواهم...

يومئذ لم نكنْ نتصوّرُ أن هؤلاء يُمكنُ أن يوقظوا الشرق العربي من سباته ويَبْعثوا فيه روحَ العصر ويضيئوا الزوايا المظلمةَ الراسفةَ في آسن التخلّف والجهل... هؤلاء مع غيرهم عبّدوا لنا الطريقَ ونوّروا الدروب... نحن ننحني بعرفانٍ وتقديرٍ واحترامٍ أمامَ معاناتهم

وصبرِهم وجهادِهم... كما ننحني أمامَ ذكرى رفاقٍ لهم، روّادِ الهجرة إلى الأميركيتين والذين هربوا من ظلمِ الأتراك وثقلِ الحاجة وذلِّ العوز فغامروا ووصلوا إلى هذه الديار يحملونَ طموحهم وتصميمَهم وعنادَهم وصبرَهم لينتشلوا أهْلَهم من الضياعِ والفقرِ والمرضِ والتخلّف.

... في تلك الأيام لم يَدُرْ في خَلَدِهم ولم يتصوّروا وهمْ يجوبون هذه البلاد أنهم كانوا يؤسّسون لكم، ولوطنهم معكم، مستقبلاً زاهراً ويفتحون واسعاً الآفاقَ الجديدة مدارجَ طموحٍ وملاعبَ فروسيّةٍ... هكذا نذكرُ باعتزازٍ وعرفانٍ هذا الرعيل الأول من آل طرفة وفرج وبزي وبيضون وحمّود ودباجة والشامي وهيدوس ونستحضر على أرواحهم شآبيب الرحمة.

كما نذكر كذلك وفي تلك الأيام أبناءً من وطننا شرّقوا وغرّبوا وهاجروا وارتادوا دياراً نائية ومناطقَ بعيدةً في مجاهل البرازيل والأرجنتين انقطعتْ أخبارهم بينما كان رفاقٌ لهم في مجاهل أفريقيا يؤسّسون ويعملون في ظروف بدائية صعبةٍ ويحققون نجاحاتٍ لا تخطر ببال... ونذكرُ آخرين في أستراليا والخليج تحملوا لهيب البوادي وشمس الصحراء الحامية يوم لم تكنْ متوفرةً وسائلُ الانتقال ولا الاختراعاتُ التي سهّلت سُبُلَ العيش...

... ها أنت الآن بين أهلك وأبناء وطنك، لستَ بالحالم ولا الناعس ولا السابح في وهم الخيال... صدّقْ عينيكَ، أنت في نادي بنت جبيل في المقلب الآخر من الأرض ترى أهلَكَ ورفاقَك، تحدِّقُ في وجوههم، تسمعُ أصواتَهم، تُصغي لأحاديثهم، وقد أَخَذَكَ فرحٌ

غامرٌ وسعادةٌ رضيّةٌ وتكاد تشمُّ عَبْرَهُمْ - رغم بُعد المسافات - رائحةَ تراب تلك الأرض الطاهرة وتلتقطُ أذناك مع الفجر المنبلج زقزقةَ عصافيرها وأصواتَ مؤذنيها وتكبيراتِ مؤمنيها تتجاوبُ مع إيقاعات النواقيس تتردد في الأودية السحيقة وبين منعطفات الجبال.

... وفي الغربة مهما تَطُلْ يَبْقَ وطنُنا في البال، حتى لو كنا في جنة الخلد:

وطني لو شغلتُ بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي!!

وأختم مردداً:

وطني وأنت بخافقي الحاني ترانيمُ الصلاةِ
أهفو لقريتكَ الجميلةِ وهي تزْخرُ بالحياةِ
للّحن من شبّابةٍ نشوى تهيمُ مع الرّعاةِ
للأوفِ للموّالِ يا وطني يُغنّى في أناةِ
ولكل زاويةٍ بأرضك رُوِّيت بِدمِ الأباةِ

شكراً لكم، شكراً لنادي بنت جبيل، مؤسسين، وهيئةً إدارية، وهيئةً عامة وأرجو أن يبقى المكانَ الجامعَ ومنتدى الجاليةِ ويستمرَّ في مسيرةِ الخير والعطاءِ وأن يَبْقى سفارةَ بنت جبيل ورافدَها والعينَ الساهرةَ على حاجاتها ومتطلباتها.

28 أيلول 2003

مع السياسيين الكبار

الرئيس الشهيد.. سلام عليك*

.. من قصيدة لبدوي الجبل في رثاء الرئيس رياض الصلح أستعير هذين البيتين:

- هتف الهاتفون أين (رفيق) فانتخى في الثرى حُسامٌ صَقيلُ

- وبَكَتْ امّةٌ وأَجْهَشَ تاريخٌ وناحَ القرآنُ والإنجيلُ

يا حبيبَ الناس، يا أبا الفقراء، وكافلَ الأيتام ومساعدَ المحرومين ومُغيثَ الملهوفين، ومُبَلْسِمَ آلامِ الموجَعين..

يا صاحبَ القلبِ الكبيرِ والنفسِ الحانية، يا نسمةَ الخير ونفحةَ العطاء..

بالله عليك تمهَّلْ قليلاً، فما عوَّدْتَنا أن تبارِحَنا وتَتْركَنا مذهولين وقد أضَعْنَا الطريق..

حنانيْك، فنحنُ ما زلْنا أفواجاً تتوالى بحاجة إلى رعايتك، وقد

(*) نشرت في السفير واللواء والشراع وفي الكتاب الخاص عن الرئيس الشهيد (ص157).

فَتَحْتَ لها الأبواب الموصدة، وشرَّعْتَ أمامها النوافذَ المطلّةَ على واسعِ الآفاق، وواعدِ العطاءات، وزاهياتِ الأماني..

أتعلمُ أنك أنتَ وحدَكَ الذي جَعْلتَها تشْعرُ بمعنى حياتها، فلوّنْتَ آمالَها وعلّمْتَها أنَّ من حقِّها أن تحلمَ وتطمحَ ولا تبقى أسيرةَ الفقر والحرمان؟!

أنتَ وحْدَكَ الذي نَوَّر دنياها، وأغنى عقولَها، وأعلى مواقعَها، ورَفَعَ شأنَها وتعهّدَ تَثْقِيفَها، ونَشَرَ مواكبَها بعشراتِ الآلاف على مختلفِ حقولِ المعرفةِ في أشْهرِ الجامعات..!!

أنتَ وحدَكَ الذي أخذَ هذه المواكب.. أخَذْتَهُمْ بيدِكَ ورعَيْتَهم وحلمْتَ أن تحقّق أحلامَك فيهمْ وتوصِلَهم إلى حيثُ يطمحون..!! وكنت أكثرَ سعادةً وفرحاً كلّما راحَ عدَدُهُمْ يزدادُ ونجاحاتُهم تتحقق..!!

يا صاحبَ القلب الكبير، أيّها الواهبُ دونَ مِنَّة، والمغيثُ بلا تبجُّح، والمساعدُ بلا مقابل!! يا دَفْقَةَ الخيرِ على النفوس المتعبة.. بالله عليكَ ألقِ نظرةً على هذه الأفواجِ التي تَتالَتْ عَبْرَ سنواتِ عطائك، وعلى المواكبِ المتلاحقةِ باستمرار، وتأكّدْ أنها بكَ ومَعَكَ طَرَحَتْ وراءَها الحاجةَ والعوزَ، وراحتْ تَقْرَعُ أبوابَ المجدِ وتحلمُ - كما أَرَدْتَ لها - بمستقبلٍ زاهرٍ وغدٍ وادع..!!

يا أبا الفقراء.. أيها العاملُ بصمتِ القديسين، وتواضعِ الأنبياء، يا صاحبَ الأيدي السّمحاء تمنحُ البركةَ وتوزِّعُ الخيرَ على الأُسَرِ المستورةِ والعائلاتِ المحتاجةِ دونَ أن تدريَ يُمناكَ ما تفعلُ يُسراكَ

وهما ما اعتادتا يوماً إلا فيضَ العطاء، ووافرَ الهباتِ حتى لكأنّهما جدولان يتدفّقان رحمةً ونداوة. .

يا كافلَ الأيتام وقد فُقدِ الوالدُ وعزَّ الحاضِنُ وغابَ المربّي وتوارى العطوف!!

يا مُكَفْكِفَ دموعَ الأمهاتِ في سوادِ الليلِ البهيمِ، يا ماسحَ العبراتِ الساخنةَ عن أوجهِ الأطفال الباكين، يا مُهدهد آهاتِهم، ومُسكِّنَ تنهُّداتِهم. . أيها الباسطُ يديْك بحنانٍ على مساحة الوطن. . !! هؤلاء معك لم يعودوا أيتاماً، إنهم في مدارسكَ ومؤسساتكَ يتعلّمونَ ويبنون أنفُسَهم. . لَهُمُ النُّعمى والبركاتُ وقد حضَنْتَهُمْ ومَنَحْتَهُمْ الدفءَ والرفقَ والسكينة!!

يا رائدَ المستقبل، ورجلَ البناء والعمران. .

أمسِ صَعُبَ عليكَ أن ترى بيروت - أمَّ العواصم وستَّ الدنيا - مهشّمةً، منهوبةً، يعيثُ فيها قراصنةُ النهار ولصوصُ الليل، وقد حرّقوا وجْهَها، وبقروا بطنَها، وشوّهوا جمالَها، وسمّموا هواءَها، وبعثروا تراثَها وسرقوا خيراتِها. . فصمَّمْتَ أن ترفعَ عنها هذا العدوان، وتعيدَ لها بهاءها وسحرَها والْتماعَ أَلَقِها، وصفاءَ سمائها، وزرقةَ شاطئِها، وفرحَ أطفالها، والأحلامَ الورديّةَ لصباياها وشبابها، والأمانَ والسكينةَ لناسها، وللذين يتنشّقونَ العافيةَ وهم يودّعون الليلَ المعطَّر، ويستقبلونَ ولادةَ الفجرِ البهيِّ على «كورنيش» منارتها. . !!

. . وأضْنَيْت نفسك، وأتعبْتَ جَسَدكَ، وسهرتَ طويلاً وأنتَ

تحلمُ ببيروتَ الناهضةِ من بينِ الرّكامِ والحرائقِ والسّواد.. وتعذَّبْتَ وعانيْتَ وتحمَّلتَ... تحمَّلْتَ بصبرِ المؤمنين، وخطَّطْتَ وأخذْتَ على عاتقكَ التنفيذَ، المهمةَ المستحيلةَ.. وكانتْ قامتُك السامقةُ العملاقةُ وراءَ الولادة الجديدة، فإذا بيروتُ، طائرُ الفينيق، الذي بُعث من الرّماد.. بيروتُ النوّارةُ، التي لبِسَتْ ثوبَ عُرسها، واستعادتْ نضارَتَها وازْدَهَتْ بأبنيتِها الفخمةِ وأضوائِها المشعَّةِ وشوارعِها الفسيحة، ومقاهيها المُغرية، ومطاعِمها الغنيّة، ودكاكينِها الأنيقةِ، وجوامِعها وكنائِسها التراثية، بالإضافة إلى مبني البلدية والسراي الكبير وشارعِ المصارف، والحدائقِ، التي يطلُّ من كلِّ حناياها الذوقُ المرهفُ، والتّناسُقُ البديعُ، والفنُّ الآسر..

هذه الولادةُ الجديدة لبيروتَ حَمَلَتْ في مظاهر تكوينها وإطلالتها وملامحها وجمالاتها، بَصَماتِك ونبضاتِ قلبِكَ، ودفءَ أنفاسِك وأحلى خيالاتك!!

أيها الفارسُ الحالمُ.. حَمَلَتْك بيروتُ الجديدةُ ـ كما ناسُها ـ في مهجة القلب ومجرى النَّفَس ولونِ العيون.. قَدَرُ بيروت أنها انتظرتْكَ أنتَ الذي عملتَ وأشرفْتَ على بعثِ الحياةِ في شرايينها، كما جَهِدْتَ على استئصالِ كلِّ تشوّهاتِ البغضِ والحقدِ التي طاولَتْها في الزمن الرديء!!

صدّقني أنك اختصرتَ أعماراً في عمرك، ورجالاً وربّما أجيالاً في شخصك، وأنك ـ رغم نجاحاتك ـ أَتْعَبْتَ جسدَك وأرهَقْتَ قلبَك ولم تَعْرِفِ الراحةَ أو تَجِدْ وقتاً للفراغ.. حتى أصبحَ المكانُ ضيقاً

عليك وعلى تطلعاتك، وبات محشوراً أمام طموحاتك!! وتضاءلتِ القاماتُ الكبيرةُ أمام قامتِكَ السامقة، وغدوْتَ للنّاس وللوطن الحلمَ الزّاهرَ والأملَ المشرق.. وقد اتّسعَ قلبُك، وَوَسِعَ كلَّ الناسِ وصارَ بحراً يموجُ بالمحبةِ والرفق، وامتدتْ يداك وكبِرتا لتضمَّا بحنانٍ كلَّ من عرفْتَهُمْ وعرفوك.

أيها المسافرُ على عجل..

أتُراك كنتَ تعلمُ أن بيروتَ لفرطِ حبِّها لك كانتْ تخافُ عليك، كانتْ تحاذرُ أن يصيبَكَ مكروه، تتمنّى لو قُدِّرَ لها أو استطاعتْ لفرطِ حنانها أن تحتَجِزَكَ، تمنَعَكَ من الخروج، تسوِّرَ حوْلَكَ، تستأثرَ بك، تتملّى منك وتبقيكَ تعويذةً في حضنها الدافىء وبين أهداب العيون.. ألستَ ابنَها البار، وفارسَ أحلامها، وحبيبَها وحاملَ رسالتها، والوجهَ الناصعَ الجميلَ الذي يتلألأُ في مرآتها.. هي معك استعادَتْ حضورَها، وأخذَتْ دورَها الرّياديَّ وعادتْ كما تمنَّيْتَها منارةَ الشّرق وجامعتَهُ ومطبعتَهُ ومكتبَتَهُ والمكانَ الأثيرَ لكلِّ القادمين.

أتُرى كانت بيروتُ بِحدْسِ الأمّ تستشعرُ أن القَدَر يتربَّصُ بك، وأن هناك في الظلام الدامس أوغاداً وحسّاداً استكثروا على هذه الأمّ - كما على الوطن - أن يجودَ الزمانُ بهذا الطّراز النادرِ من الرجالِ المنذورِ للنَّماءِ والعمرانِ والخيرِ والعلمِ والثقافة!!؟؟

كانت بيروت - وكلُّ الوطن - تغالطُ نفسَها وتهدىءُ وساوسَها، ويريحُها أن فارسَها رجلُ خيرٍ ونُبلٍ ومساعداتٍ، رجلُ سلامٍ ومحبةٍ،

وهذه الفضائلُ من شأنها أن تُبْعِدَ عنه الشرورَ وتحميَه.. ودائرةُ علاقاته وصداقاتِه تجاوَزَتْ كلَّ التصوّرات وطاوَلَتْ معظمَ الكبارِ في أنحاء العالم الواسع.. وكلُّ ذلك كفيلٌ بأن يَقِيَهُ المكارِهَ ويبعثَ الاطمئنانَ، لكنَّ حدْسَ المحبّينَ كان في موقعه.. إنه نوع من الوحي والاستشرافِ والنبوّةِ لا يخضَعُ لقواعدِ العلوم..

في ذلك الصباح الأخير كان الرئيس الحريري باديَ الانشراح بالوجهِ المضيء والإطلالةِ المميَّزةِ والبسمةِ الحُلوة، والمزاجِ المحبَّب، والحديثِ الأنيقِ، والضحكاتِ العاليةِ وقد شرب قهوَتَهُ وودَّعَ الرفاقَ والأصحاب..

ومرتْ دقائق وصَدَقَ حدسُ الناس، وخوفُهمْ أن يطاولَهُ مكروهٌ، ونُفّذتِ المؤامرةُ.. سقَطَ الفارس - الشهيدُ المظلومُ - بينَ لهيبِ نيرانِ الحقد وسوادِ الكراهية.. ضربَتْ موكبَهُ أعاصيرُ الحَسَدِ والبغضاء.. وانطفأتْ جذوةٌ قدسيةٌ وانطفأتْ معها حَيَواتٌ عزيزات.. وسَرَتْ إشاعاتٌ وأخبارٌ وأقاويلُ.. لكنَّ خواطرَ الناس كانتْ - حتى قبل إثبات ما حدث - دليلَهم على الفاجعة الزلزال.. خرجوا من بيوتهم مذهولين، مفجوعين، هائمين على وجوههم، مشدوهي النظرات، فزعين خائفين.. سكارى وما هم بسكارى - لا يستوعبون ولا يصدّقون ما وقع.. كانوا يتساءلون ويهذون ويكادون يتجاوزون حدودَ الإيمان: هل من المعقول أن يُغتال رجلُ الخير والقلب الطيّب، وداعيةُ السلام ويبقى من اعتدى وقَتَل وأَثِم وارتكبَ المعاصي؟!

عفوكَ يا الله.. فقدْ فَقَدَ الكثيرون توازنَهم وكادوا يكفُرون؟!..

ولو قدِّر لك أن تراقب الناسَ لما سَمِعْتَ إلا نحيباً وعويلاً وعيوناً مقرَّحةً، ودموعاً حارقة ونفوساً محطّمةً، وذهولاً وضياعاً وحسراتٍ وصراخَ احتجاج يتعالى إلى عنان السماء..

.. كان الفارس حُلماً وأملاً وبشارةَ مستقبل وصمَّام أمان..

الفارس الذي دَخَلَ كلَّ بيت ـ في بيروت وفي لبنان ـ افْتَقَدَهُ كلُّ بيت.. خرجَ من كلِّ بيتٍ وأخَذَ معه الحلمَ الجميلَ بغدٍ أفضلَ، والأملَ الواعدَ بمستقبلٍ زاهر.. أَخَذَ معه الأمنياتِ الغاليةَ وخلَّفَ في كلِّ فؤادٍ الحزنَ والوجعَ والشّجَنَ المقيم..

ذلك الفارسُ الحالم كان نعمةً وبركةً، إنساناً طيّباً وقلباً كبيراً..

لمثلِ الرئيس الشهيد تطأطأ الرؤوسُ وتنحني الهامات وتُقرعُ الأجراس وتقامُ الصلواتُ، وتُتلى الأدعية.

ذلك الفارس الحالم كان دفقةَ الخير ومثالَ الطِّيبة والنقاء والتسامح.. يكفيه أنه جاهدَ وعملَ واغتنى فأعطى وساعدَ وعمَّر.. وتركَ بصماتِه وإرثاً كبيراً.. يكفيهِ أنه حلمَ وأعادَ إعمارَ مدينتهِ الوفيةِ التي أحبَّها وأحبَّتْهُ وكبُر بها وكبرتْ به..

من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يتكرَّرَ مثالُ الرئيس الشهيد.. وعسى أن تكون دماؤه ودماءُ رفاقه بشارةَ الخلاص وتكريساً لوحدة الوطن وقيامته..

أيها الشهيد المظلوم.. سلام عليك حيث أنت في ضيافة رب كريم..

الرئيس تقي الدين الصلح الكبير الذي رحل غريباً*

ربما لا أكونُ مخطئاً وأنا أزعمُ أن حقباً معينةً من الدهر تجودُ بطراز نادرٍ من القادة قد لا نجدُ مثيلاً لهم في أزمنة أخرى، تماماً كما هو الأمر مع مواسم الطبيعة التي تختلف بين سنواتِ الجَدْب والقحط وسنواتِ الخير العميم والعطاء الواعد.

هذه القناعةُ رافقتْني عندما كان وعيي يتفتَّحُ ضمنَ أسرتي على محبة الزعيم رياض الصلح، ويترسّخُ متصاعداً مع جهاده في مقارعة الانتداب، ويتعمّقُ مع الأيام تقديراً لنضاله وكفاحه وصموده، وقد تكرّس قائداً في بلده ومحيطه وعالمه العربي، وحوله ـ وعلى شاكلته ـ مريدون ومقدِّرون من الرفاق المخلصين، والسياسيين المؤيدين، والأقارب المميزين، والذين شكلوا طليعةَ نضال وطني وكوكبةَ ريادةٍ عربية تجاوزَتْ محيطَها وتفاعلتْ مع حركات التحرّر على مساحة الوطن العربي الكبير... وراح اسمُ الزعيم رياض الصلح يستدعي بشكل عفوي صحابتَه ورفاقَ دربه وخاصةً أبناء عمومته سامي وكاظم

(*) نشرت في جريدة السفير بتاريخ 11/ 2/ 2008.

ومُنَح وتقي الدين ورشيد والسلسلة الذهبية من هذه الأسرة العريقة التي ما برح أبناؤها يحملون رايةَ الوطنية ومشعلَ العروبة ـ دون انقطاع ـ جيلاً بعد جيل، حتى ليخيَّلَ إليكَ وأنتَ تواكبُ سيرتَهم أنهم منذورون للعمل الوطني والقومي، مخلوقون للنّضال، مؤهّلون لتعاطي الشؤون السياسية رغم صعوبة مسالكها، والتواءات دروبها، واختلالِ موازينها، ونفعيّة ناسها، فتتأكد عندها وربما تتعجب أن هناك زعاماتٍ ارتضت قانعةً أن تتفرَّغَ برساليةٍ لخدمة الناس، غيرَ عابئة بالمتاعب والإرهاق وقلّةِ الوفاء والكثيرِ من العقوق، لكنها تبقى في الوقت نفسه متيقنةً أنها تجد في ذلك منتهى الراحة والسعادة والرضى.

لم يفسح الزمن لرياض الصلح ـ شأن العديد من السياسيين ـ أن يكتب سيرةَ حياته، ويؤرخَ أحداثَها، ويوضحَ مواقفَه منها وما اعترضَهُ وما عاناه، إذ اغتيل في 16 تموز 1951 أثناء زيارته للمملكة الأردنية وهو في أوج عطائه، وتوهّج شخصيته... رحل رياض بك مخلفاً بعده مدرسة (صلحية)، جسدت أفكاره، وحملت أحلامَه، وتابعت نهجَهُ المميز في إدراكه العميق لحساسية العلاقات بين مختلف عائلات المجتمع اللبناني.

هذه السياسة الحكيمة هي التي أبدعت الميثاق الوطني، وأوصلتْنا إلى الاستقلال، وحافظتْ على الصيغة اللبنانية والتي كانتْ وبقيت واستمرت امتحاناً صعباً بل هاجساً يومياً يؤثر على الاستقرار السياسي عندما يهتز نتيجة عدم مراعاة مشاعر الآخرين واحترام قناعاتهم!! وبات بالتالي من الصعوبة بمكان أن يفهمَ غيرُ اللبنانيين نَمَطَ شفافيّة

العلاقات التي تسودُ المجتمع اللبناني، ودقةَ تداخلِ توازناته وارتداداتها وامتداداتها داخل وخارج الوطن الصغير الذي يجب أن تحكمه روحُ العدالة والإنصاف وسيادةُ الحرية وسماحةُ العرف والتوافق.

وإذا كان رياض الصلح مبدعَ الميثاق الوطني والصيغة اللبنانية، فإن تقي الدين الصلح هو الذي مثّلَ هذه المدرسة، وساهَمَ في نشأتها، وتابع نهجَها، وكان المؤتمنَ على مبادئها، والضنينَ بالمحافظة عليها، والعاملَ بذكاء وحذق ودراية على تمتينها وتكريسها توصلاً لتوحيد اللبنانيين وجمعهم في وحدة وطنية منفتحة متسامحة تتجاوزُ الطوائفَ والمذاهبَ والعصبيات.

تقي الدين الصلح، تلميذُ مدرسة الشيخ عباس ومدرسة الليسيه الفرنسية، والنسيبُ المقرّب جداً من رياض بك كابن روحي، والذي كان للمحامي عمر زين الجهدُ المشكورُ في كتابة سيرته، ساعد البيتُ في تكوينه والمعلمُ والمدرسةُ في نشأته، والذكاءُ والطموحُ في انطلاقته، والعائلةُ في تكريس إيمانه القومي العربي، فتربّى على تراثٍ من المبادىء السامية وعَشِقَ السياسة وتعاطاها ومارسَها بمحبةٍ وتفانٍ ولباقةٍ لا تعرف التنفير ولا ترفض الحوار... التلميذُ الأنيقُ النجيبُ أصبح معلّماً ونقيباً للمعلمين، وصحافياً نقيباً للصحافة، وناشطاً مرموقاً في العمل الاجتماعي وتعاطي الشأن العام ثم مندوباً للبنان في جامعة الدول العربية بدرجة مستشار، وسياسياً بارزاً التقى النُّخَبَ الفكريةَ والسياسيةَ والزعماءَ والرؤساءَ وبينهم الزعيم الهندي الكبير غاندي.

تقي الدين الصلح، المحاورُ اللبقُ، آخرُ طرابيش السياسة اللبنانية، حَمَلَ أوجاعَه ومعاناته وأسرارَه وإحباطَه وسافَر، أو أُكْرِهَ على مغادرة الوطن الذي أحبّه حتى العبادة، وتحمَّلَ بإرهاقٍ آلامَ البعاد، وهَوْلَ التآمر على الأرض والناس والقضيّة، ورَحَلَ مُنهكاً من الصّدمات والأوجاع والشوق القاتل إلى البلد، الجَنَّةِ التي لم يحفظْها أهلُها كما تستحقّ.

... الأخ عمر زين لك كلُّ التقدير والمحبةُ على كتابك، (سيرة حياة وكفاح تقي الدين الصلح) الرجل الكبير الذي كان لك الحظُّ أن ترافِقَهُ وتواكبَهُ وتَنْعُمَ بحضوره. ولك الشكرُ أيضاً لأنك أَرّخْتَ مرحلةً حافلةً بالنّضال والتضحيّة، وأملُنا أن لا نخيِّب أمل الراحل الكبير، ونحفَظَ وطَنَنا من الأعاصير التي لمّا تَزَلْ تحيطُ به وتستهدفهُ.

الوزير علي بزي

علي بزي
رائد من رواد الاستقلال

أودُّ بدايةً أن أشكرَ مَنْ بادرَ ومن استضاف... أود أن أشكرَ من فكَّر وتذَكَّرَ ولمّا نَنْسَ ولن ننسى مناضلينا، ورجالنا الكبار، روّاد الاستقلال وعلي بزي واحد منهم...

كما أودُّ أن أشكرَ من استضاف في المكان الملائم، والمقرّ الموائم في حَرَم الكلمة الصادقة الحرة المشرقة... فالصّحافي كان وما زال وسيبقى بطلَ الساحة الناطق، رفيقَ الجهاد، وحاميَ المسيرة... فمِنْ هنا من ساحتكم الرحبةِ تشرقُ شمسُ الحرية... ونرتشفُ نحنُ مع قهوة الصباح غذاءنا الروحي بشغفٍ مريح، أينَ منه شوقُ الصّادي إلى عذب النمير!!

كما أود أن أشير بامتنان وتقدير إلى الأحداث والذكريات والمعلومات التي زوّدني بها مرجعنا الكبير المفكر والمحلل الأستاذ منح الصلح... له مني جزيل الشكر...، وبعد: هذا علي بزي في

(*) محاضرة ألقيت في نادي الصحافة اللبنانية بتاريخ 27/ 2/ 2000.

رحابكم، وطالما زاركم وأقام بينكم مع الأصدقاء والأحبّاء والسّمّار... ولطالما تطايَرَتْ نكاتُه، وتجاذبتْ ضحكاتُه، وسَرَتْ همساتُه في جلساتِهِ الحميمة مع رفيقه وصفيّه وحبيبه النقيب زهير عسيران... فتعالوا معي إلى الذكريات إلى صدى السنين الحاكي...

أن نجتمع سوياً في نقابة الصّحافة لنكرِّم الوزيرَ السابقَ والنائبَ والسفيرَ علي بزي، لفتةٌ كريمةٌ غيرُ مسبوقةٍ فيها التقدير ونبل الوفاء.

وأن نتلاقى هاهنا بالذات في محراب الكلمة الواعية، ونعودَ إلى الصفحات المشرقة في الأيام الصعبة في الثلاثينيّات والأربعينيّات فذلك حَدَثٌ غيرُ عادي، يوم كان الصوت العربي محرّماً عليه أن يبلغَ الأسماع أو يلامسَ أوتارَ القلوب... كان يومئذ مستهجناً ومحارباً... لا يطمئن له كثيرون ولا يرتاح له الحاكم.

أن نلتقي هاهنا ونحن في مطلع قرن جديد، يقتضي منا الوفاءُ أن نقرَّ ونعترفَ أن هذا المُناخَ المريحَ الذي ترتفع فيه رايةُ الوطن، إنما قام وتكرّس وتجذّر على تضحياتِ الشرفاء ومعاناةِ المناضلين ابتداءً من سجن الرمل وقلعةِ راشيا ومعتقل الميّه وميه وكلِّ زنزانةٍ احتضنَتْ عناءهم وكلِّ منفًى شرُفَ باحتجازهم أو كلِّ زاويةٍ تطهّرت بإيمانهم...

ألا تتحسّسون معي أيها السادة هاهنا، في هذه القاعة، أنفاسَ الزعماء الكبار وتسمعون أصواتهم وتُصغون إلى احتجاجاتهم وهم يقارعون الانتداب ويرفضون المهانات؟! ألا تَرَوْنَ معي أن أرواحَهم الطاهرةَ تحوّمُ في هذا المكان وعلى مدى اتساع الوطن بعد أن حمل المستعمرُ عصاه ورحل؟! ألا ترونَ معي أن اعتقالهم فتح بابَ الحرية،

وأن معاناتَهم حطّمت قيود الاستعباد وأن صمودَهم أوْرثَنا هذا المناخَ المريح؟! ألا ترون معي أيها السيدات والسادة أن في نسيجِ علمنا بعضاً من مهجهم؟ وقبساً من إيمانهم، وطهراً من دمهم، وألقا من طموحهم ونوراً من ضياء عيونهم؟

بهذا الإدراك الواعي، والعرفان الندي، والامتنان العميق أحسّ هنا في هذا الجوّ أريجَ أنفاس المناضلين، المتمرّدين على السجون، أحسّ أنفاسَ أبطال راشيا والميه وميه وسجن الرمل، وأدركُ أنه لولا عنادُهم وتصميمُهم لما كنّا هنا ننعم بدفء الحرية وحلاوة التحرر وأن هؤلاء هم المناراتُ التي تضيءُ سبلَنا والمشاعلُ التي تؤنُسنا، والأهازيجُ التي نترنّم بها... ومن هذا الباب أدخل وجلاً إلى محراب المناضل علي بزي.

أيها الاخوة،

أذكر وأنا طفل صغير عندما عاد الشابُ المناضلُ الأسمرُ من المعتقل، أنه كان محمولاً على الأكتاف، أكتافِ الشباب الهازجين، المثقلين بإيمانهم العارم، الصادحين بأغانيهم، الحالمين بغدهم... كانوا يحملون علي بزي، سجينَ بنت جبيل في انتفاضة سنة 1936 ضد الفرنسيين، علي بزي هذا كان حادي مواكبهم، ونزيلَ معتقل الميّه وميّه لثمانيةَ عشرَ شهراً، والصامدَ العنيدَ الذي رأى الزنزانةَ الضيّقة مع الكرامةِ أوسعَ من الأفق الرّحب مع المهانة، علي بزي الذي رأى القيد في المعتقل أشرفَ من الهوان مع الحرية... كانوا يهزجون له ولعروبتهم:

أعليٌّ حلّق في سمائك	أنت في خَلَدِ الشموسْ
العُرب بعد نواك نالوا	ما تتوق له النفوسْ
والوحدةُ الشماءُ شعّتْ	من بعيد كالعروسْ
فتأمل اللّيلَ المزيَّنَ	والغوانيَ والكؤوسْ

◆ ◆ ◆

حي العروبة في عليٍّ | فهو رمزٌ للجهادْ
غَشِيَتْهُ ألوانُ الخطوب | فظلَّ حصنا من سدادْ
حمل المبادي الساميات | ونوَّرَتْ منه البلادْ
تتهدم الآمال وهو | يشيدها ثَبِتَ الفؤادْ

◆ ◆ ◆

وأدِرْ على العُرْبِ النعيمَ | وطِرْبِهِمْ نحو السَّماءْ
وإثأر لأيامِ أذَبْناها | وذابَتْ في البلاءْ
فالشمسُ عادتْ للحياة | وعاد للروح الضياءْ
وتهلّل الأُفُق المحجَّبُ | وانتهى ليلُ الشقاءْ

◆ ◆ ◆

كنا صغاراً وكباراً نحدّق بإعجاب، نحاول أن نكحل عيوننا بهذا العائد العنيد، القادم من ظلام السجن ومعاناة العزلة وآلام الانفرد يومئذ ـ نحن الصغار ـ لم ندركْ بعمق وَنَعِ بفَهْمِ أن الحرية والتحرر متلازمان وأن العبودية والتبعية مترادفان.

وعندما كَبُرنا أدركْنا ووعَيْنا وفهمنا أن نور الحرية يطلع من سواد ظلمته وأن شباكه تلتوي وتمّحي أمام الإيمان. وأن نزيلَ الزنزانة هو

القائدُ والزعيمُ، حاملُ القضية ورجلُ الساحة الذي يصرخ بوجه السجان.

لا السجنُ يُثنينا ولا الإرهابُ ما شئتَ فاصنعْ ما عليك عتابُ
إسجنْ وشرِّدْ ما عليكَ غَضَاضةٌ أنَّى يكونُ الليثُ فهو الغابُ
ليس العِقَّاب سلاسلاً أو ظلمةٌ يا سجنُ، بل وخزُ الضمير عِقابُ

أيها السيدات والسادة،

... تقتضي الأمانة التاريخيّة منا عندما نتحدّث عن مرحلة معينة... أو عندما نتناول رجالاتها وزعماءها أن نضع أنفسنا في نفس الإطار الزمني، أن نعودَ ولو بالتصوّر والذاكرة إلى الفترة ذاتها بيئتها ووضعيْها الاجتماعي والمعيشي، بناسها وأحزابها، بطرقِ معاطاتها، وأنماطِ علاقاتها، فيما بينها أو مع السلطة الحاكمة.

وها أنا أحاول أن أعود بكم إلى العقد الثاني المنصرم إلى سنة 1912 سنة ولادة علي بزي، إلى بلدة وادعة في أقصى الجنوب، إلى أبعد نقطة في جبل عامل إلى بنت جبيل - البلدة التي لم تَعْتَدْ يوماً أن تكون في حضن الوطن ووسط دائرة السلطة، في تلك الفترة وقعتِ الحرب العالمية الأولى ورحل الأتراك وجاء الفرنسيون وتمردت البلدة على القادم الجديد وكانت فتنة عين إبل سنة 1920 وحملت بنت جبيل أوزارها، هَجَّر الفرنسيون أهلها، وأحرقوا بيوتها وأمعنوا فيها خراباً، في تلك الحقبة كانت المنطقة كلُّها وسكانها على هامش الوطن، كانت دون كهرباء أو طرقات أو مدارس، كانت الآبار والبرك خزاناتِ

مياههم، وكان الزيتُ والكاز وسيلة إنارة بيوتهم وكانت الدواب والخيول واسطة تنقلهم وتواصلهم... كما كانت كتاتيب المشايخ مدارسهم الأولى والأخيرة... كان رجال الدين وحدَهم يومئذ مناراتٍ تحمل مشاعل الهداية والتعليم والتنوير، كما سبق أن انفردوا بذلك طيلة قرون الانحطاط، وكثيراً ما دفعوا حياتهم ثمناً للقيام بهذه الرسالة بدءاً بالشهيدين الأول والثاني ومروراً بعطاءات الأسر الدينية كآل الحر والأمين وشرف الدين ونعمة وفضل الله وشمس الدين وانتهاء بالشيخ موسى شرارة جد علي بزي لأمه.

تعلم علي بزي شأن أترابه في مدرسة البلدة ومع أبناء خالته أولاد الشيخ علي شرارة محمد وحسين وجواد وعبد اللطيف ومرتضى؛ كان قريباً منهم فقد والدته وهو صغير، فاستشعر في حنان خالته ما فقده وكان منذ صغره طرازاً فريداً مميزاً، يتمتع بذكاء حاد، وفطنة غريبة، ونباهة لامعة، كان اللمْحُ يكفيه، والإشارةُ تغنيه، في عينيه وميضٌ آخاذ، وفي حديثه سردٌ جذاب، بالإضافة إلى ملكةٍ نادرةٍ، وموهبة عفوية في النكتة، وحلاوة الأداء وبراعة التخلص. ومن بنت جبيل انتقل إلى النبطية ليكمل فيها دراسته بلد العلامتين الشيخ أحمد رضا والشيخ سليمان ظاهر، ثم إلى دمشق التي لم يلبثْ فيها إلا قليلاً لأسباب صحية.

وكان أبوه الحاج حسن بزي وجيهاً، تقياً، ملاّكاً كبيراً بمقياس ذلك الزمان، وعلى هذا الغنى سوف يتكىء الابن لاحقاً، وكانت عائلته في تلك الفترة وحتى هذه الأيام أكبر العائلات في بنت جبيل،

وكان يتصدرها ويتزعمها الحاج محمد سعيد بزي، الرجل المقدَّر والمهاب.

في مطلع الثلاثينيات كانت بنت جبيل تحاول أن تدخل النسيج الاجتماعي والسياسي للجمهورية الناشئة، وكان لا بد أن تتفاعل مع الأحداث التي تجري على ساحة هذا الوطن كما كانت خلال هذه الفترة نادياً أدبياً تستقطب العديد من الشعراء والأدباء والمفكرين الذين تناولوا في نثرهم وشعرهم مختلف الأحداث التي تعصف بالوطن أمثال الشاعر محمد علي الحوماني والشيخ علي الزين وعبد الحسين عبد الله وموسى الزين شرارة وحسن فياض شرارة والحاج علي بيضون وسلام الراسي وعبد المطلب الأمين وسواهم من الشعراء والأدباء.

في هذه الفترة وعلي بزي في العشرينيّات من عمره كان كلُّ ما فيه يدلّ على ريادة وقيادة، شبابٌ طامح وإطلالةٌ آخاذة وأفقٌ واسع، وشخصيةٌ قوية وذكاءٌ لمّاح، وإلى جانبه كوكبةٌ من مختلف العائلات تشاركه تطلعاته، وتتقاسم معه الطموحات والآمال، ووراءه عائلة كبيرة لا يمكن أن تتخلى عنه إذا ما احتاج إلى الدعم والتأييد رغم أنه لم ينطلقْ أو يحاول أن ينطلقَ من هذه الزاوية الضيقة رغم رحابتها.

وكانت انتفاضةُ بنت جبيل على الفرنسيين وعلى شركة الريجي سنة 1936، واعتقل علي بزي مع بعض الرفاق في سجن بنت جبيل، وهبّت البلدة والقرى المجاورة لإخراجهم وسقط ثلاثة شهداء من عيناثا وبنت جبيل، وتجاوزتْ هذه الأحداث مكان وقوعها إلى صيدا وبيروت وطرابلس ودمشق وتكرس علي بزي بعد هذه الأحداث قطباً

مناضلاً وزعيماً صاعداً، أهّلَتْهُ إمكاناتُه ومواهبُه أن يلعبَ دوراً كبيراً تجاوَزَ بلدتَه ومحيطَه، ليرفدَ الحركاتِ المناهضةَ للانتداب، يتفاعلُ معها، وتتفاعلُ معه، يعطيها وتُعطيه واتّصل بثوار فلسطين واتصلوا به وكانتْ بنتُ جبيل بحكم موقعها ووطنيتها مؤهلةً لتلعب كذلك دوراً مساعداً، فكيف إذا كان علي بزي طليعة شبابها وحامل رسالتها...

في مطلع الأربعينيّات والحرب العالمية الثانية في أوجها كان الوطن الكبير على امتداد مساحاته من العراق إلى سوريا ولبنان وفلسطين بركاناً يمور بالحركات والثورات، رافضاً التبعية والتجزئة والمؤامرات السوداء... وكان لا بد من زج الزعامات الوطنية في السجون وكان علي بزي واحداً منهم... وعرفتْه الميه وميه نزيلاً عزيزاً في ظلام أقبيتها خلال ثمانية عشر شهراً.

ومع بزوغ عهد الاستقلال كانتْ بنت جبيل نقطةً مركزية تُشد إليها الرحال والرجال والآمال، تتجاوب مع غضب صيدا ورفض بيروت وغليان طرابلس وثورة بعلبك وصمود راشيا وتمرّد حماه وبطولاتِ الغوطة وحرائق دمشق ولهيبِ حلب وأسطورةِ جبل العرب وكلُّ تحديات القهر على مدى مساحة الوطن. وكان لا بد أن يتصدر المناضلون مسيرةَ التحرير وأن ينطويَ سوادُ الليل، وتطلَّ مواكبُ الأحرارِ الصامدين ومن ظلام سجن راشيا في مشرق لبنان، طلعَتْ شمسُ الاستقلال ورفرفَ علمٌ جديد وتحققتْ آمالٌ وأحلام. وحمل الانتداب عصاه ليرحل. وعلى مساحة الوطن كان زلزالٌ كبير، وتوازناتٌ جديدة، وانقلابٌ في كل مناحي الحياة. وماجتِ العاصمة

النوارة، وشدت إليها كلَّ القيادات الصاعدة، وأصبحتْ النقطةَ المركزية للوطن، ينتقل إليها ويستقر فيها أساطين السياسة وطلبة العلم والتجار والعمال والمثقفون بالإضافة إلى السفارات والجامعات، وانتقل علي بزي فارسُ بنت جبيل وسفيرُها إلى بيروت ليدخلَ في نسيج حركاتها السياسية والاجتماعية والثقافية، ويتواصلَ مع روّاد الاستقلال أمثال الزعماء رياض الصلح، حميد فرنجية وعادل عسيران وصائب سلام وهنري فرعون وسواهم لبنانيين وعرباً وليصبحَ بالتالي واحداً من كوكبة الزعيم الخالد رياض الصلح، وليمارس السياسة من بابها الواسع.

وفي انتخابات أيار سنة 1947 ترشّح على لائحة الرئيس عادل عسيران عن محافظة الجنوب ليدخل الندوة النيابية وفي هذه الانتخابات الشهيرة لم يحالف الحظ أحداً منهم سوى الرئيس عسيران وفازت لائحة الرئيس أحمد الأسعد. واستعرتْ أحداثُ فلسطين ودخلتْها الجيوش العربية وجيش الإنقاذ والمتطوعون وقاتلوا بشرف وإيمان بالقضية العربية المركزية وسالت دماء غزيرة وسقط خيرةُ شباب الأمة شهداءَ على التراب الطاهر، وكانت الهدناتُ المشبوهة والأسلحة الفاسدة والانسحاباتُ المجانية والمذابحُ الرهيبةُ في دير ياسين ومعظم المدن والقرى والدساكر؟! وكانتْ بنت جبيل ممراً ومقراً لكل هؤلاء كما كان بيت المناضل علي بزي خليةً هائجةً لا تعرفُ الراحة والاستقرار... وحمل علي بزي السلاح وساهم في شرف القتال، في المالكية وجوارها، مع العديد من أبناء بلدته ومنطقته وبعض رفاقه

القدامى وفي طليعتهم المناضل الشهيد معروف سعد.

وفي انتخاب سنة 1951 ترشح المناضل علي بزي على لائحة الرئيس أحمد الأسعد وفاز بالمقعد النيابي أو فاز به المقعد النيابي. كانت المرة الأولى التي تتمثل فيها بنت جبيل... وكان علي بزي أول نائب عنها - وأنا لا أزال أذكر جنون الفرح بهذا النجاح... لا أزال أذكر وأنا في مقتبل العمر نَشْوةَ الناس وقد أذهلهم وأسكرهم وصولُ زعيمهم إلى الندوة النيابية... يومئذ أيها السادة كان للزعامة وهجُها، وكانت للنضال قدسيتُه، وكانت للمراكز قيمتُها - هي غيرها هذه الأيام.

اسألوا معي ساحاتِ الدبكة، والجموعَ الهازجة وزغاريدَ النساء، وهتافاتِ الشباب، والمواكبَ السكرى فرحاً احتفاءً بالحدث الميمون. اسألوا أفواج القرى تأتي حاملة أعلامها صادحة بشيبها وشبابها مهنئة أول نائب من بنت جبيل في بنت جبيل، وهو يقف بين الجموع يحضُنُها بعينيه خطيباً يرتجل أرَقَّ كلمات الشكر والعرفان.

دخل علي بزي الندوة النيابية حاملاً آماله العريضة وأحلامه الكثيرة، وإرثاً ثقيلاً من الرفض والمعاناة، وتاريخاً حافلاً من النضال وكلّها أو بعضها تفرض عليه مساراً يختلف عن خط الآخرين. فكيف إذا كان أساساً صادقاً مع نفسه ومعهم، لا يجيد أحابيل السياسة ولا ميكيافيلية الأداء، ويحتقرُ تجارة المبادىء وكاذب الوعود وبزارات الكواليس.

وكانت التجربة الأولى في تموز سنة 1951 ففي السادس عشر منه اغتيل الزعيم الوطني الكبير، بطل الاستقلال، رياض الصلح في عمان، سقط الفارس ورحل قائد الساحة في الزمن العصيب.

هتف الهاتفون أين رياض فانتخى في الثرى حسام صقيلُ
وبكت أمةٌ وأجهش تاريخٌ وناح القرآن والإنجيل

وكانت خسارة الزعيم رياض بداية زلزال كبير... فميدانه الرحب لا يتجرأ أي فارس على خوض غماره... هي مأساة الفراغ الذي يخلفه العظيم عندما يرحل...

وكان لا بد من مَلْء المركز الذي شغر... ورشح الرئيس أحمد الأسعد السيد صلاح البزري، ووقف علي بزّي مؤيداً السيد كاظم الصلح رفيق وحبيب وقريب الزعيم الراحل، ورئيس حزب النداء الذي ينتسب إليه علي بزي والذي كان أحد مؤسسيه. خرج علي بزي على رفاق دربه في انتخابات الأمس وعاد إلى بلده وقناعاته وموقعه من جديد، وكانت الأشهر التي انصرمت رفقة درب لم تَطُلْ لأن معطياتها ربما كانت غير منسجمة. ولم يحالف الحظُّ كاظم الصلح وعادت الساحة للخصام والعراك والمضايقات ودفعت بنت جبيل غالياً ثمن ذلك...

تفاقمت الأوضاع في البلاد وطالبتِ المعارضة التي كانت تجمع حزب النداء القومي بنوابه الثلاثة الأساتذة علي بزي، قبولي الذوق، تقي الدين الصلح، والجبهة الاشتراكية برئاسة الزعيم كمال جنبلاط بالإضافة إلى الزعماء حميد فرنجية وسامي الصلح ورشيد كرامي وعبد

الله اليافي وسعدي المنلا وكميل شمعون وبيار إدة وعادل عسيران وغسان تويني وغيرهم... وعندما قدم الرئيس سلام استقالته استدعى الرئيس الخوري الحاج حسين العويني الذي حاول أن يأتي بقائد الجيش اللواء شهاب وزيراً للدفاع... لكن اللواء رفض بإصرار... وبتاريخ 18/ 9/ 1952 قدم الرئيس بشارة الخوري استقالته وسلم البلاد إلى اللواء شهاب ثم انتخب الرئيس كميل شمعون الذي ما لبث أن حل المجلس النيابي وقسم المحافظات قائمقاميات كان الترشيح على أساسها... ولم يحالف الحظ علي بزي وبقي خارج الندوة حتى سنة 1957 حيث عاد من جديد نائباً عن قضاء بنت جبيل.

في هذه الفترة الملتهبة كانت المنطقة تغلي بالأحداث. الرئيس عبد الناصر في مصر يُطلُّ بقامته وأفكاره وآماله على بلاد العرب، والحركة القومية في صعود على امتداد الوطن من الخليج إلى المحيط، والحكام في وجل وقلق، فالمد الثوري القومي يأخذ مداه. وفي لبنان ثورة وثورة مضادة ومتاريسُ ومعسكرات. وشبابٌ يجيش حماساً واندفاعاً. وسلاح يتدفق من مختلف الجهات براً وبحراً وجواً وعلي بزي بصلابته المعهودة يعارض سياسياً، ويرفض اللجوء إلى السلاح، يدين تدفقه على الوطن وتوزيعه على الناس للاقتتال الداخلي. وانتخب اللواء فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية وتكرس الهدوء الأمني داخل البلد. وفي مرحلة لاحقة، وكان في فرنسا أبلغ علي بزي بتعيينه وزيراً للداخلية والأنباء في تشرين الأول سنة 1959... ووصل إلى جنة السلطة، إلى حَرَمِها، وأصبح جزءاً منها فاعلاً

ضمنها. يخطّطُ ويدير ويشرف ويحاسب ويحاسَب. أصبح معالي الوزير، توج نضالاته وعمَلَه السياسيّ واستحق بجدارةٍ هذا الوصول علماً أنه لم يكن بالنسبة له غاية وإنما كان وسيلة لتحقيق الأهداف.

وقمة الهرم أيها السادة هي امتحان الكفاءة، فليس المهم أن نصل إليها إنما المهم أن نبقى عليها، فإذا لم نعملْ على الثبات في المكان الأرفع، فإن النزول ينتظرنا لنخسر عندها المكانة والموقع والنفس.

وفي انتخابات سنة 1960 نقل ترشيحه من بنت جبيل إلى مرجعيون ورغم فوز لائحته بالكامل ورغم احترام قراره وتقدير ظروفه وموقعه لم يسلم في حينه من انتقاد إيجابي من بعض محبّبيه ومؤيديه لأسبابٍ عديدة معبثُها الحفاظ على القيم التي يختص بها علي بزي والتقدير العالي لشخصه الذي لم يكن يوماً في خط موالاة السلطة... وعين علي بزي فيما بعد وزيراً للصحة في تشرين الأول سنة 1961 حتى شباط سنة 1964.

لكنه وفي انتخابات سنة 1964 خسر مع حليفه الأستاذ سعيد فواز في قضاء بنت جبيل ثم عين سفيراً من خارج الملاك في الكويت في عهد الرئيس شارل الحلو خلال عامي 1964 و1965 ونقل خلال عام 1966 إلى عمّان في المملكة الأردنية ـ الهاشمية حيث مثّل وطنه بكفاءة وأخلاقية.

في عام 1968 ترشح للمقعد النيابي عن قضاء بنت جبيل الدكتور

إبراهيم شعيتو والأستاذ سعيد فواز مدعومين من قبل معاليه وترشح بالمقابل السيدان عبد اللطيف بيضون وعباس خليل كما ترشح الأستاذ غسان موسى الزين شرارة البعثي والأستاذ حسين مروة الشيوعي وكانت المرة الأولى التي تباعد فيها المعركة الانتخابية بينه وبين رفيق نضاله وصديقه الشاعرموسى الزين شرارة وكذلك بينه وبين العديد من الذين التقوا معه ووحدتهم المعارك والأهداف والمثل والقناعات وفاز الدكتور شعيتو والأستاذ سعيد فواز.

واستمر سفيرنا في هذا المنصب حتى عام 1970 ليستقيل عام بداية عهد الرئيس فرنجية، ويتفرغ للعمل السياسي الهادىء دون صخب ضمن الخط الذي التزمه، قريباً من رفاق النهج، وإن خالفهم أحياناً الرأي، وبالتنسيق أحياناً مع خط الإمام الصدر عبر جبهة المحافظة على الجنوب، وبلقاءات ومهمات داخل الوطن وخارجه، كانت تفرضها عليه قناعاته وتوقعاته ومنصرفاً إلى عائلته الصغرى ومطالعاته... وعندما استقال علي بزي من عمله في وزارة الخارجية يومئذ... كان كلُّ شيء قد تغير... فقد هزم العرب سنة 1967 وتمددت إسرائيل في قلب الوطن، وغابَ مارد النيل، ووئدت آمال وتبخرت أحلام، واستوطنت أوجاع، وخيم يأس، يأس قاتل، وفي الداخل كانت إرهاصات تنذر بجو قاتم، وأفق مسدود، كانت الدولة تختنق مؤسساتها والسلطة تتراجع، والقبليّة تقوى، والعصبيّة تنمو، والسيادة تترنّح، والإخوانُ يتمددون... وكان علي بزي يراقب كلَّ هذا الانحدار، يتألم ويشعر بلفحات العاصفة القادمة، والشر

المستطير، وطالما تنبّأ وحذّر، ورفاقه القريبون منه يذكرون الكثيرَ الكثيرَ مما توقّع واستشرف وتنبأ...

كان علي بزي في معاطاته مع الناس وأدائه السياسي والوظيفي غنياً بأخلاقه، رفيعاً بتهذيبه، نظيف الكف، طاهر الطوية... كان عفيف النفس ـ نقطة الدائرة المضيئة... إن تحدث جذب إليه الأبصار وشدَّ العقول... إن ناقش أقْنَعَ، وإن لاطفَ أخجل، هو طرازٌ فريد من الرجال...

أذهلني فكره الواسع وأفقه الرحب وريادتُه في استشراف الغد وأنا أقرأ معجباً وأستعيد أفكاره في محاضرة ألقاها منذ أربعين سنة وبالتحديد في 11 كانون الثاني سنة 1960 في الندوة اللبنانية والتي حضرها أقطابُ الفكر وروّاد الثقافة وأعلام السياسة وكان من بين الحضور الرؤساء وأصحاب المعالي والأساتذة صائب سلام، تقي الدين الصلح هنري فرعون فيليب تقلا (وزير العدل) فؤاد نجار (وزير الزراعة) فؤاد بطرس (وزير التربية) بيار الجميل (وزير الأشغال العامة) عادل الصلح (رئيس المجلس البلدي) الدكتور زهير الداعوق، غسان تويني (رئيس تحرير جريدة النهار) جورج نقاش (الأوريان) محمد صفي الدين (مدير عام الشؤون الاجتماعية)، النقيب زهير عسيران والأستاذ واصف بارودي وغيرُهم وغيرُهم...

هكذا قدمه الأستاذ ميشال أسمر:

أيها الحفل الكريم،

تنطلق الندوة هذا المساء باسم الحاضر اللبناني، راسمةً، من خلاله وعلى ضوء الماضي والتراث الأصيل، خطوطَ الحياة اللبنانية المقبلة. أمّا محاضروها في هذه السلسلة فهم نخبة من قادة الرأي في هذا البلد، يتّسمون بعمق التفكير وخلوصِ النية وصراحةِ القول والوطنيةِ الصادقة، رغبْنا في تعاونهم وندوتِنا كي نسهم جميعاً في بناء البيت اللبناني المرتجى فنشيده على أسس متينة ثابتة.

ومحاضرنا الليلة معالي الأستاذ علي بزي واحدٌ ممّن صداقاتُهم صداقاتنا. فهو دائماً يتشوق إلى الطريق الأمثل للنهوض بلبنان، ويتبين معالمها من خلال المعالجة الموضوعية لواقع هذا البلد وعبر التوجيه الفكري. وأن ننس فلا ننسى يوماً من أيام شباط عام 1952 كانت الندوة تجتاز معه فترة وهنٍ مضنكة، جاءنا فيه متطوعاً، وعلى غير سابقِ معرفةٍ شخصيةٍ بيننا، يعرضُ طاقاته كنائب لإثارة قضية مساندة الندوة في مجلس الأمة كي تؤمّنَ لها المساندةُ الفعالةُ للاستمرار والنمو. ذاك أنه كان يرى في الندوة حركةً تعمل للتوجيه والإنشاء، فشاء لها البقاء عزيزةً كريمة.

وصديقنا الأستاذ بزي، ككل رجل فكر أصيل، فيه التواضع وفيه المحبة. ولذا فهو لا يطمح في أن يدلنا على طريق واحدة للتوجيه والإنشاء. بل هو يحاول محاولة عقلية مجرّدة مخلصة أن يبحث في هذه الطريق وأن يلفتنا إلى ضرورة السعي للاتفاق عليها. ولم يشأ أن يلجَ منعرجاتها بالتفصيل، بل تطلع إليها بنظرة الشّمول فرسم ما يرتئيه

الخطوط الكبرى كما رآها كي تستقيم هذه الطريق.

وأننا، إذ نشكره على مساهمته الخيرة في نشاط حركتنا، نترك له الكلام يتحدث إليكم في طريق التوجيه والإنشاء.

... معالي الوزير الأستاذ علي بزي حاضر تلك الأمسية متناولاً التوجيه الوطني والإنشاء، هذا التوجيه التي يتوجب على كل مُتَصَدٍّ للعمل العام أن يكونَ واضحاً في ذهنه لأن من المحال أن يفترض المرء أيّ مجتمع أو نظام لا يكون وراءه توجيه ما، لا بل إن عدم التوجيه هو في أغلب الحالات ضرب من التوجيه.

تساءل المحاضر عن الأفكار الموجهة في المجتمع اللبناني القائم، ورأى أن أهمها ثلاث: الفكرة الأولى:

1 - التعايش الإسلامي المسيحي.

2 - والثانية عدم تدخل الدولة.

3 - والثالثة الربط بين الاستقرار اللبناني والتيارات والمصالح الخارجية.

بالنسبة للفكرة الأولى أي التعايش الإسلامي المسيحي عرض أن هذه الفكرة (وليس رأيه) تقوم في أذهان المؤمنين بها على أساس اعتبار اللبنانيين فريقين متمايزين مسيحياً وإسلامياً بينهما من الفروق في مختلف نواحي الحياة والتباين في الاتجاهات والنزاعات، والتباعد في الأماني والمثل العليا ما يجعل من صهرهما في كل وطني واحد مطلباً غير واقعي على أقل تقدير.

ولما كان الانصهار في زعم هؤلاء غير ممكن، وكانت الفروق

قائمةً بشكل يهدد الوطن والمواطنين في بعض الحالات بالأخطار الجسام فلا بدَّ إذاً من التفكير على أساس منطقٍ خاص هو منطق التعايش بين الطوائف.

على ضوء هذا المعنى يصبح التعايش الذي يقولون به (مجرد التعايش) غاية تستحق أن تستهدف، وعلى ضوء هذا المنطق يقتصر واجب الدولة على إدامة هذا التعايش وتمكينه وحمايته وتنظيمه وإن كل محاولة من قبل المؤسسات الحكومية والشعبية لتجاوز ذلك هي بمنطق التعايش هذا ترف لا قدرة للبنان عليه.

وحسب هذا المنطق ليس للبنان أن يطمح لاتخاذ مواقف في شؤونه العامة تكون منبثقة عن محاكمة وطنية عقلية ووجدانية تضمن له تجنب الخطأ واعتماد الصواب... بل عليه أن يقبل بالمواقف التي يحتمها عليه التعايش الإسلامي المسيحي مفهوماً بأضيق معانيه.

يستتبع ذلك أن علاقات الدولة بالأفراد وعلاقات الأفراد بعضهم ببعض يجب أن يسودها نوع معين من العدل أحب أن أسميه العدل الطائفي. هذا العدل الطائفي يختلف عن العدل الصحيح لأنه لا يجعل الحاجة والكفاءة والتفوق في المقدرة والفضيلة مقاييس أخيرة بل يجعل انتماء المواطن لطائفة من الطوائف عاملاً من العوامل المقررة للحظوظ.

هذا العدل الطائفي ليس في الحقيقة إلا توازناً لا يأخذ بعين الاعتبار الكثير من الحقائق والقيم فكم من ذي كفاءة ظلم باسم هذا

العدل. هذا العدل الذي يحرم الوطن من كفاءات الكثيرين ويحرم كثيراً من أصحاب الكفاءات من حقهم في التقدم لا لسبب إلا لضرورة احترام التوازن بين الطوائف.

ألا ترون معي أيها السادة وبعد أربعين عاماً، أن هذا الواقع أصبح أكثر تكريساً في حياتنا اليومية وأننا ربما نترحم على أيام الطائفية في تلك المرحلة بعد أن غرقنا في وحول المذهبية والقبلية...

ألا ترون معي أيها السادة ريادة المحاضر وسبقه في النظرة الثاقبة والفكر الواضح والاستشراف النظيف.

... يتابع محاضرنا مناقشاً الفكرة الثانية عدم تدخل الدولة وأن هناك اعتقاداً سائداً بين صفوف كثير من اللبنانيين بأن الخير للحياة اللبنانية أن تتعرض أقل قدر ممكن لأثر الدولة لأن تدخل الدولة يعني بالضرورة الإساءة إلى الازدهار اللبناني والرقي اللبناني والتقدم اللبناني.

وتشمل هذه الفكرة الاقتصاد والاجتماع والثقافة والسياسة حتى وصل اعتقاد البعض أن عدم تدخل الدولة هو مصدر رئيسي من مصادر الرفاه اللبناني وأن في الفوضى نفسها الكثير من النعم التي تتدفق على لبنان ولعل طرب اللبناني للقصة التي اشتهرت عن زيارة الخبير العالمي (فان زيلاند) والتي أوصى فيها بعدم التدخل إطلاقاً في الشؤون الاقتصادية لعل هذا الطرب دليل على انتشار هذه الفكرة وترسّخِها وتمكّنها.

... يتابع محاضرنا مناقشة الفكرة الثالثة وهي الربط بين الهناء اللبناني والتيارات والمصالح الخارجية... هذه الفكرة التي تقوم على الاعتقاد بأن لبنان بصفته ملتقى لهذه التيارات والمصالح الخارجية... من الشرق والغرب ـ **غيرُ قادر أن يقرر بنفسه القرار الذي يراه وغير قادر** بصورة خاصة أن يفرضَ على الآخرين هذا القرار وبالتالي فليس أمام لبنان إلا أحد أمرين إما أن يربط نفسه بقوة من القوى الخارجية ويفرض بالتعاون معها رأيه على نفسه أولاً ثم على القوى المخاصمة له وإما أن يسلك سبيل مسايرة تلك القوى والمصالح جميعاً فيعطي كل جهة حظاً ونصيباً وبتعبير أوضح أن كل محاولة **لاتخاذ قرار خاص هي محاولة غير واقعية وغير ممكنة وبالتالي فقوة لبنان تكمن في ضعفه.**

... بعد هذا العرض يناقش المحاضر هذه الأفكار ويسخر من المواطن الواعي بهذا المفهوم. المواطن الذي يؤمن بالتعايش الإسلامي المسيحي ويرى عدم تدخل الدولة في الشؤون العامة ويدرك اعتماد لبنان على القوى الخارجية.

ويرى أن من الأهمية أن نزن هذه الأفكار ونقيس نصيبها من الصدق والصلاحية.

إن أول الطريق نحو توجيه وطني سليم هو **تصحيحٌ أمينٌ ونظرةٌ موضوعيةٌ** تعيد لهذه الأفكار الثلاث الشائعة في الجو اللبناني معانيها الحقيقية وتعين حدود صحتها وتنبه إلى خطر الانسياق الأعمى وراءها.

هذه الفكرة الصحيحة تبقى وحدها أقلَّ من قاعدةٍ لتوجيه وطني سليم فلا رفض لفكرة التعايش لصالح فكرة المواطن ولا رفض لفكرة الحرية المطلقة لصالح فكرة الحرية المسؤولة ولا رفض لفكرة التبعية اللبنانية للقوى الخارجية لصالح فكرة المناعة الوطنية.

لا فكرة من هذه الأفكار ولا هذه الأفكار مجتمعة تستطيع أن تشكل توجهاً وطنياً سليماً وكافياً للحياة السياسية.

إن أول ما يحتاج إليه لبنان هو أن يكون حاضراً في أذهاننا أي طراز من الإنسان وأي نموذج من المواطن نحن خالقون...؟ أو بسبيل أن نخلق في وطننا لبنان...؟ في برامج التعليم التي تعدها الدولة وغير الدولة؟ في الخدمات الاجتماعية في النظرة إلى القانون وطريقة تطبيقه في آداب قادة الرأي من الحكام وغير الحكام وأساليبهم في ذلك كله منفرداً ومجتمعاً يجب أن تنعكس الأظلال والخطوط لصورة في الأذهان. عن المواطن والإنسان الذي نعمل على إيجاده في لبنان.

إن طبيعة التركيب الاجتماعي اللبناني وطبيعة التراث التاريخي تتطلبان وجود عقلانية نامية وثورية عند الفرد اللبناني فإذا أضفنا هذه الحاجة اللبنانية إلى العقلانية الواعية القادرة على حماية الحياة الوطنية في لبنان أدركنا كم هو ضروري أن نستهدف دائماً وباستمرار نوعاً معيناً من الإنسان أي الإنسان الواعي الفريد خاصة وأن هذا الإنسان هو الرأسمال الأثمن.

وهذا هو المعلم الأول في التوجيه.

أما المعلم الثاني فهو الحقيقة التي تقول أن لبنان يجب أن ينظر إلى نفسه على أنه بلد نوعيّة لا بلد كميّة لأن صِغَرَ لبنان في مقاييس المساحة والعدد وضآلةَ قواه وإمكاناته الطبيعية وعواملَ أخرى تتعلق بطبيعة جواره تفرض عليه أن يتجه في عالمي المادة والمعنى اتجاهاً يؤكد على النوع لا على الكم. إن لبنان بجامعاته ومؤسساته ومراكز بحثه الموجود منها والذي يجب أن يوجد يستطيع أن يجعل من نفسه مكان الدراسة والتخطيط العلميين لكل الشرق العربي.

أمّا المعلم الثالث فهو وعيه لدوره في المشرق، في المحيط العربي لأن لبنان بلد عربي مجاله الطبيعي الأصلي ومداه الحيوي البلاد العربية.

ولست أعرف من تراث هذا البلد ما هو أعلى في مراتب القيم وألصق بمعنى الرسالة من النصيب الكبير الذي قام به لبنان في مطلع النهضة العربية إذ كان له الفضل التاريخي في توعية العرب على واقعهم القومي وإيقاظهم على ذاتهم المستقل.

أما المعلم الرابع فهو فكرة الغد وعدم معالجة الحاضر بالارتجال.

الجزء الأعظم من جهود رجل الدولة عندنا منصرف إلى الخروج من المآزق لا إلى عدم الدخول فيها وإلى حل الأزمات لا إلى الاحتياط لها، وإلى سد الحاجات العارضة لا تلبية الحاجات الدائمة...

وقلما يكون الغد هماً حقيقياً عند رجال الدولة. . .

نحن لا نقول أننا من هذه الناحية، نعيش في بداوة مطلقة. فليس كل ما يجري في الدولة وقفاً على مواجهة الحاضر. فهناك، ولا سيما على الصعيد العمراني، منجزات ومشاريع من النوع الذي يتصل بمستقبل لبنان أكثر من اتصاله بيومه القائم.

ولكن مع ذلك، فما هو موجود من هذه المنجزات وهذه المشاريع العمرانية لا يكفي لأن يعكس عناية كافية بالمستقبل.

فضلاً عن أن فكرة الغد لا يقتصر على العمران وحده. فهي فكرة لا بد لها من أن تظهر في السياسة وفي الاجتماع وفي الثقافة جميعاً ولا بد لها من أن تأخذ مكانها في القوانين والأنظمة والوسائل والأساليب.

بل لعلنا لا نغالي إذا قلنا أن هذه الفكرة هي ضرورية في السياسة والاجتماع والثقافة أكثر منها في أي ميدان آخر، لا سيما في بلد كلبنان يحتاج أول ما يحتاج إلى مناعة داخلية قوامها السياسة والاجتماع والثقافة.

ولعل رجل الدولة اللبناني الكبير الذي قال في يوم من الأيام «لقد بنينا الدولة وعلينا أن نبدأ ببناء الوطن» لعل رجل الدولة الكبير يوم قال هذه العبارة لم يكن يعني إلا هذا الذي نقوله الآن عن حاجة لبنان إلى بناء غده في مختلف نواحي حياته على أساس من بعد النظر والتخطيط السليم، بناء يستهدف عقلية المواطن وحياته العامة قبل أن يستهدف رفاهه ورخاءه.

قد يكون هذا التصميم البعيد المدى هو أصعب، في لبنان وأدق، منه في أي بلد آخر. فلبنان حريص على عدم الإفراط في الاعتماد على الدولة، والتصميم كثيراً ما يقتضي هذا الاعتماد.

ولكن ذلك يجب أن لا يعني تخلينا عن فكرة التخطيط البعيد المدى. فصعوبتُه ودقّتُه، وحتى التضحياتُ المغالية الملازمة له، لا تنفي ضرورته الماسة للبنان، هذه الضرورة التي ما تزال مع الأسف الشديد غير ملتزمة من اللبنانيين الالتزام الكافي.

إخواني،

لكم هم بعيدون عن الواقعية أولئك الواقعيون الذين يجحدون باسم الواقعية قوة المثل.

ولكم هم غير عمليين أولئك العمليون الذين ينكرون باسم العملية أشواق وطنهم التي لا تحد.

في رأيي أن أثمن ما يمكن أن يتزود به رجل لبناني عام، من أجل حسن القيام بتوجيه وطنه، إيمان حقيقي بقوة المثل وتحسس عميق بأشواق الوطن.

فإذا توفر له ذلك الإيمان وهذا التحسس لم يبق له كي يؤدي الأمانة على خير وجه إلا أن يذكر باستمرار قصة الإله اليوناني القديم الذي جعلت له الأسطورة عيناً في مقدمة الرأس، وعيناً في مؤخرته، لكي يبقى ينظر في آن معاً في أكثر من اتجاه واحد، فلا يفوته المستقبل وهو يتطلع إلى الماضي، ولا يغيب عنه اليمين وهو ينظر إلى اليسار، ولا ينسى الشرق وهو يلتفت إلى الغرب.

ذلك الإله، إله مدينة طيبة، ما أجدره بأن في فطنته وإحاطته رمز الموجه الواعي الحكيم في لبنان.

أمام هذه الريادة في استشراف المستقبل... أمام هذا الأفق الصافي من الفكر العميق... أمام هذا الوعي الراقي ننحني بإجلال تقديراً وتقييماً واحتراماً علنا ندرك أي رجل دولة كان علي بزي، وأي رحابة تفكير كان يختزنها عقله الكبير؟!

هذا هو علي بزي رجل الدولة الواعي، الواسع الأفق، العربي في لبنانيته، واللبناني في عروبته، المناضل بعناد، حامل القيم الرفيعة والمثل النبيلة، والمنتشرة صداقاته على مدى الوطن العربي الكبير بدءاً بالرئيسين عبد الناصر والقوتلي، والملك حسين وأمراء الكويت بالإضافة إلى الحاج أمين الحسيني وأكرم زعيتر وعلاّل الفاسي ومؤسسي حزب البعث عفلق والبيطار والحوراني ورؤساء حزب الشعب والكتلة الوطنية وأديب الشيشكلي وصدّيق شنشل والجادرجي والجواهري والعديد من الزعماء والأمراء والقادة في مصر والسعودية والخليج.

وقد وظف علي بزي بعض صداقاته لحماية المواقف الوطنية الكبيرة، خاصة بعد تأميم قناة السويس سنة 1956، يومها دعت لجنة الاتصال الشعبي وعلي بزي أحد أقطابها ومحركيها والتي كان يرأسها الزعيم حميد فرنجية وتضم قادة وزعامات من جميع البلاد العربية دعت إلى إضراب عام تجلى واضحاً بنجاح كبير وإقفال تام وكتبت يومها جريدة (الموند) إذا أردتم أن تعرفوا خارطة الوطن العربي الذي

تتحدثون عنه فارسموا خارطة عواصم البلدان التي تجاوبت مع هذا النداء الموجه من قبل اللبناني المسيحي حميد فرنجية وعندها تعرفون خارطة العالم العربي كما هي.

بقي أن نتطرق إلى علاقة علي بزي باللواء فؤاد شهاب... تعود معرفة علي بزي باللواء شهاب إلى سنة 1948 وكانت مقتصرة يومئذ على تقدير متبادل لم يتعد حدود المعرفة الباردة العادية إلا أنها بدأت تتعمق وتتنامى مع مرور الأيّام خاصة عندما بدأ الرئيس شهاب يتعاطى السياسة، فاستشعر اللواء في صديقه النصح والوفاء وبعد النظر واتساع دائرة العلاقات وحفظ السر ورأى فيه رجل المهمات الصعبة فقربه منه واحترمه وسمع له وعمل أحياناً بمشورته، وكان إلى جانب علي بزي سياسي آخر يحترمه اللواء ويحبه هو الرئيس تقي الدين الصلح، وقد تسنى لهذين الرجلين أن يساهما في رسم علاقات الرئيس شهاب العربية وأن يفتحا عقله داخلياً على حقائق المناطق المحرومة والناس الفقراء المعدمين، وأنه بات على الدولة حتى تجعلهم مواطنين أن تعالج أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والعلمية والثقافية...

ومن هنا، من هذا التوجيه نشأت الشهابية وتكرّست نهجاً وبدأت مؤسساتها تظهر إلى الوجود.

كان علي بزي في سلوكه مدرسةً من العقلانية الهادئة الواعية البعيدة عن الاستفزاز والتحدي وإثارة المشاعر... في داخل الوطن كان علي بزي المناضل العربي، قريباً من الكتلويين والكتائب والدستوريين، كان المحاور اللبق العنيد، يخاصم ولا يعادي وكان

يجهد أن يصل إلى العقل بوداعة تريح القلب... كانت عينه في الساحة دائماً على الفريق الآخر تحاول أن تحاوره، تكسب ثقته، تريحه، تجعله يحس بموقعه الكبير، وأنه أساس في التوازن. وأن الوطن بجناحيه، وأن قدرنا أن نتعاضد، ونتآزر ونتساعد ونتكامل ونبقى على هذا العقد المقدس.

وكان علي بزي في تعاطيه السياسة لا يمثل مذهباً أو طائفة أو منطقة، وإنما كان نائب الأمة فهو من القلائل الذين أدركوا بعمق التواصل ووثوق الروابط بين العائلات اللبنانية... فلا تمايز، ولا قهر، لا استئثار، ولا احتكار ولا تفرقة بين المناطق، ولا تمييز بين المواطنين... الوطن لنا جميعاً نتكامل فيه، نعمل لخيره، نعيش فيه ولأجله، نموت فيه وفي سبيله.

وكان علي بزي لا تهمه كثيراً سياسة الأجير والمختار والناطور، لا يدخل في الحسابات الضيّقة وإنما يعطي الاهتمام الكافي للسياسة العامة، ويرى مثلاً أن وجود الضمان الاجتماعي يحل مشكلة العامل، والسياسة الصحية تحل مشكلة الاستشفاء، وانفتاح لبنان على العرب وعدم مخاصمتهم تنعكس أمناً اجتماعياً واقتصادياً... كان علي بزي فوق الحرتقات الصغيرة والحزازات الضيقة والخصومات المجانية.

علي بزي كان في إطلالته في الثلاثينيّات ـ النمط الجديد في جبل عامل، الرجل العصامي، الصاعد بخطى ثابتة إلى القمة، القريب من أهل القلم والفكر والباحث باستمرار عن الثقافة والمعرفة والحاذق باختبار الرفاق والأصدقاء.

وكان علي بزي في أدائه مثالاً فريداً للخُلُقِ الرفيع والاستقامة... أتصدقون أنه عندما فارقنا كان (مديوناً) وقد تكفّل ولداه بالتسديد... أتعلمون أن مسكنه كان بالإيجار... وأنه لم يمدَّ يده لمالٍ حرام وأنه في إحدى المناسبات لم يستطع تسديد فاتورة عشاء دعا أصحابه إليه وكان يومها وزيراً للداخلية والمخصصات السرية بوسعه أن يصرفها دون حسيب أو رقيب.

علي بزي الصلب العنيد المناضل عصيّ الدمع كان في أسرته، مع أولاده صديقاً، رقيقاً، دمثاً، شفافاً، أباً مرهفاً... أوجعه وأتعبه وأضناه فقدُه ابنَه البكرَ في حادث سير مؤلم تحمّل بجلدٍ وصبرٍ وإيمانٍ تداعياتِهِ حتى يومِهِ الأخير.

أيها السادة،

هذا هو الوزير والنائب والسفير الذي نحتفل اليوم بذكراه. هذا هو الرجل العصامي الذي لم يرث الزعامة ولا النفوذ... هذا الكبير الذي نذر نفسه لخدمة بلده، واقتحم باكراً عالم السياسة، مناضلاً عنيداً، لم ترهبْهُ السجون، ولا غيَّرتْ قناعاتِهِ الملاحقاتُ، وإنما زادتْه إيماناً بالمبادىء التي حَمَلَها وبقضية العرب المركزية في فلسطين التي كانتْ وما زالت تستهدف الأمة ومستقبل وجودها.

علي بزي، السياسي اللبناني، والمناضل العربي، والزعيم اللَّبِق في نسج مروحةٍ واسعةٍ من العلاقات مع مختلف شرائح المجتمع، لم يُنفِّرْ خصماً، ولم يطعَنْ صديقاً، ولم يستغلَّ موقعاً ولم يَسْفَحْ يوماً

كرامتَه. . . بدأ رحلتَه بعنادِ الشرفاء، وأكمَلَ درْبَهُ بنظافةِ الزاهدين وانْسحبَ مختاراً ـ وعن قناعةٍ ـ عندما راحتْ جيوشُ الظلام تعيثُ فساداً على مساحةِ الوطن وبلادِ العرب، تنفيذاً لمؤامرةٍ ما زالتْ تأخُذُ بخناقِنا مُنْذُ مطلعِ القرنِ العشرين.

27 شباط 2000

الخاتمة

حافظوا على هذا البلد

أيها السياسيّون، ارأفوا بهذا الوطن، ارحموا ناسَهُ، وتلافوا إفلاسَه، لقد بتْنا لا نصدّقُ ما يحدث، ولا نسْتَوعبُ ما يجري على أرضنا!! نحن نخجلُ ممّا أوْصَلْتمونا إليه، فجعلْتمونا قبائلَ متناحرةً، وأحزاباً متخاصمةً، ومجموعاتٍ من الهتّافين تُعلي صُراخها، وتمزّق حناجرها، وترفع سواعدَها، وتتوعّدُ بعضُها بعضاً بانتظار التقاتل والتذابح والانتحار في سبيل تحقيق غاياتكم والمحافظة على كراسيكم المخلّعة، ومواقعكم المتهاوية!!

لقد أيْقَظْتُمُ العصبيّات، وأثَرْتُمُ الأحقاد، ونَفَثْتُم سُمومكم بين الأهل والإخوة، وحَوَّلْتُمُ البلدَ الآمنَ المطمئنَّ إلى (عصفوريّة) يسودُها الجنونُ ويُخيِّمُ عليها العمى والجهلُ والفُرقَةُ والتنابذ!

بالله عليكم أفيدونا إلى أيِّ هاويةٍ تأخذون هذا البلد الذي مزّقْتموه وقَسَّمْتُموه؟! لقد ضَلَّلْتُم ناسَهُ، شَوَّهْتُم أفكارهم، سرقْتُم أمْنَهم، وصادَرْتُمْ غَدَهم واغْتَلْتُمْ أحلامَهم، وخَدَعْتموهُمْ بأحلافكم، وأسَرْتموهُمْ بعلاقاتٍ غير بريئةٍ ولا نظيفة!!

بالله عليكم إرْحمونا، إبْلعوا ألْسنَتَكُمْ، واقْفلوا إذاعاتِكم،

وحطّموا شاشاتِ تلفزيوناتكم، فقد تعبتْ عيونُنا من بشاعةِ عروضاتكمْ، وصُمّتْ آذانُنا من قبيح صُراخكمْ، وكذِبِ ادّعاءاتكم!!

لقد شوَّهْتُم حياتَنا، فاشْتَقْنا إلى أيامنا الحلوة، إلى أعمالنا المنتظمة، إلى الهدوءِ والأمانِ والسلامِ والتواصلِ الصّادق والمحبّة الطاهرة... اشْتَقْنا إلى السهراتِ الوادعة، والزياراتِ الأنيسة، اشْتَقْنَا إلى الطبيعةِ المتفتّحةِ ومشاويرِ الآحاد والنزهاتِ والرّحلاتِ والتّجوالِ بين الأرياف.

اشْتَقْنَا إلى كلِّ زاويةٍ هادئةٍ مطمئنَّةٍ، إلى كلِّ شارعٍ أنيق، ومنظرٍ جميلٍ، إلى الورودِ والأزهارِ والأشجارِ والطيورِ وتَنَفُّس الفجرِ الواعدِ بالخير العميم!!

إرْأَفُوا بنا... حافظوا على هذا البلدِ الفريد بأهدابِ عيونكم وَمُهَجِ قلوبكم، فَضِّلوهُ على كلِّ ما عداه، سَيِّجوهُ بالمحبة، بالمحبّة وَحْدَها التي تحميه، وتأكّدوا أن الله حَبَانا جنّةً لمّا نعرفْ قيمتَها، وفُرادةَ نِعْمتها!! عودوا إلى ضمائركمْ، تَخَلَّوا عنْ أنانيّاتكمْ، حَسِّنوا نواياكُمْ، فَتِّشوا عمّا يَجْمَعُكُم ويوحِّدُ صفوفكمْ، فالوطنُ ليس سلعةً مرهونةً لمصالح الغرباء، ولن تصونَهُ إلا وحدةُ أبنائه المخلصين!

بوسطن ـ 23 كانون الأول 2006

الملاحق

R É P U B L I Q U E   F R A N Ç A I S E

Ministère de la Jeunesse, de l'éducation nationale et de la recherche

INSTITUT NATIONAL DES LANGUES ET CIVILISATIONS ORIENTALES

MAÎTRISE

Vu le décret n° 84-573 du 5 juillet 1984 modifié relatif aux diplômes nationaux de l'enseignement supérieur

Vu l'arrêté ministériel du 8 octobre 1996 relatif aux habilitations de l'Institut National des Langues et Civilisations Orientales à délivrer des diplômes nationaux de second cycle

Vu les pièces justificatives produites par M. IHSAN CHARARA, né le 5 juin 1936 à BENT JBEIL (LIBAN), en vue de son inscription à la Maîtrise de Langues, Littératures et Civilisations Etrangères, spécialisation ARABE LITTERAL

Vu les procès-verbaux du jury attestant que l'intéressé a satisfait au contrôle des connaissances et des aptitudes prévu par les textes réglementaires

la MAÎTRISE DE LANGUES, LITTÉRATURES ET CIVILISATIONS ETRANGÈRES, spécialisation ARABE LITTERAL, *mention très bien*

est décernée à **M. IHSAN CHARARA**

au titre de l'année universitaire 2001-2002.

Fait à Paris, le 16 avril 2003

Le titulaire

Le Président

Gilles DELOUCHE

Le Recteur d'Académie, Chancelier des universités

N° INALACI 3563725

2003200100372

USEK

جامعة الروح القدس - الكسليك - لبنان

كلية الآداب

قسم اللغة العربية وآدابها

إفادة دبلوم دراسات معمّقة في اللغة العربية وآدابها

الرقم ...٩٢... في ...٢٠٠٥/٠٧/٢٩...

إنّ عميد كلية الآداب في جامعة الروح القدس - الكسليك، الموقّع أدناه،

يفيد بأنّ السيد ... [illegible] عبد الأمير شرارة ... من الجنسيّة ... اللبنانية ...،

المولود بتاريخ ... [illegible]/١٩٣٦ ... في ... بنت جبيل ...،

والمنتسب إلى الكليّة المذكورة ابتداءً من ٢٠٠٤/٠٢/٠٩ قد حاز(ت) بتاريخ ... [illegible]/٠٧/٢٨ ٢٠٠٥

شهادة دبلوم دراسات معمّقة في اللغة العربية وآدابها

بعد نجاحه في مقرّرات الأرصدة (وعددها ... خمسة عشر رصيداً* ...) المفروضة

في المناهج (بمعدل الأرصدة: ...٨٥/١٠٠...)،

وبعد أن أعدّ(ت) رسالة (٦ أرصدة) بعنوان: ... محسن الأمين رجالة وأديباً ومؤرّخاً ...

....

وناقشها بتاريخ ...٢٠٠٥/٠٧/٢٨...، الدرجة ... جيد ...،

المعدّل العام ...٨٧/١٠٠...

ملاحظة:

حتى تبقى هذه الإفادة صالحة، يجب أن لا يضاف إليها أو يحذف منها أيّ شيء، مع لفت النظر إلى أنّ الكليّة لا تمنحها إلا مرّة واحدة.

أمين سرّ الكليّة

د. جورج الحاج

عميد الكليّة

د. طانيوس نجيم

* السيد شرارة حصل على معادلة لـ ٦ أرصدة قد نالها في برنامج الماجستير في اللغة العربية وآدابها، من معهد الآداب الشرقية في جامعة القديس يوسف، سنة ٢٠٠٣.

من آثار بنت جبيل

بيت السيد محسن رضا (أول ساحة بنت جبيل)

بيت الحاج علي يوسف بزي

واجهة بيت تراثي في بنت جبيل

جامع بنت جبيل

مدرسة بنت جبيل القديمة قبل هدمها

بيت تراثي في بنت جبيل

مدخل منزل الحاج فياض شرارة (جد المؤلف) وواجهة بيت الحاج نجيب شرارة

المدخل الجنوبي لساحة بنت جبيل

المحتويات

تقديم 5

مقدمة 11

الوطنيات

يا إماماً غرد العرب به 15

للثأر نحيا 24

قم إلى التاريخ! 27

أنا في خيام النازحين 30

في عيد الوحدة 33

معاناة الغربة: حلم غير منتظر

وطني 39

الجندول 41

أغاني الهوى

في عيد ميلادها 47

أنتِ تغريد الوجود 49

عيدك الميمون 51

غَدِيَ الضّاحكَ 53

لي أنت 56

أشرقْتِ لا أحلى! 59

ماذا سألبس؟. 61
تِه يا زورقي!! 63
ماذا سيبقى؟ 66
. . . أتُرى سكتٌّ؟! 69
أنا لستُ في حلم 71
مشوارنا زاد البلابل 74
لكِ أحيا 77
يا شقيق الروح 80
في عيد المعلم 82
وأرى الدنيا جنوبا 85

رسائل الحنين

أنتم المغتربون مظلومون! 91
أنا وأنت نفتش عن أبوينا! 94
بيروت: الأميرة المتّشحة بالسواد 98
رسالة إلى أمي 102
رسالة 105
أمي لا تزال في الشريط 106
معك يطيب لنا هذا العيد 109
أمّي تقيم في الشريط 111
من كل ابن إلى كل أم 113
رسالة إلى أمي 116

إلى زوجتي وأولادي وأخي محمد

حبيبتي التي لا أغلى. 121

عزيزي فادي 124
عزيزي علاء 128
عزيزتي لمى. 132
ابنتي الحبيبة لمى 135
حبيبتي لينا 140
أخي الحبيب أبا علي 143

رسائل إلى بنت جبيل

القرية. . ومرآة الطفولة 149
تداعيات على أمل اللقاء 153
بنت جبيل. . . كم اشتقنا 157
سُقياً لها تلك الأيام 159
بنت جبيل بحاجةٍ إلى قامتك فاحضنْها يا دولة الرئيس 166
الأطلال أرحم من محو المعالم 171

إلى الجمعية الإسلامية

جمعيتُنا كأماكن العبادة مفتوحةٌ أمام كلِّ الناس 177
يوم ولدت الجمعية 183

إلى الأدباء

. . . ويا أبا وضاح (عبد اللطيف شرارة) 189
مع الأخ الأديب جواد صيداوي 195
حسن شرارة الأديب الذي رحل 200
أديب القنطار، سفير لبنان وسفير الكلمة الأنيقة 206

رسائل إلى الأحبة والرفاق

كالزهر فَوْحُكَ (في ذكرى اسبوع الوالد) 213

إلى السيد جعفر شرف الدين. . . يا أبا محمد. . سلام عليك 221
إلى معلمي جميل جابر بزّي: رسالة وفاء 224
بشر جابر سلام عليك 231
للدكتور محمد مهنّا تحية وفاء 235
رفيقنا في الوحشة وليالي الرعب حين كانت (رياض شرارة) 237
في رثاءِ الصديق خليل صادر 240
إلى شيخ الصامدين (محمد علي شرارة) 246
في وداع حبيب كركي 249
مرتضى شرارة: أتُراك اشتقتَ لتراب بلدك؟! 251
حكمت بزي آخر سنديانات بنت جبيل 255
سهيل بزي، شهيد الوجعين 257
يا أبا باسم. . . أنا لا أقول لك وداعاً (جواد شرارة) 261
يا أبا علي لقد توغّل الحزن في حياتنا حتى العظم (الحاج أحمد اسماعيل) 268
رفعت شرارة رجل بلا مكان إقامة 272
عدنان شرارة الفنان المسكون بحلم الوحدة 274
السيدة عليّة الخليل السعيدي. . . اسمٌ على مسمّى 278
شهداء طائرة كوتونو (أهكذا يقهرنا الموت)!! 288
بنت جبيل والثنائي الذهبي 292

رسائل تقدير

أخي عبد العزيز سويدان لكَ النُعمى 297
حسن عواضة. . . يكفيك هذا الوسام 304
الآخ طلال سلمان. . . أدْمَنّاكَ وأحْبَبْناك 309
السفير في عيدها العشرين 312
مع الصديق جميل حبيب بزي في «موكب الطيب» 314

إلى الأخ كاظم الخليل بمناسبة تقاعده 318
إنه المتن الشمالي القضاء المميَّز 322
صدِّقْ عينيك. . . فأنتَ بين أهلك في ديترويت 325

مع السياسيين الكبار

الرئيس الشهيد. . رفيق الحريري سلام عليك 333
الرئيس تقي الدين الصلح: الكبير الذي رحل غريباً 340
الوزير علي بزي: رائد من رواد الاستقلال 345

الخاتمة

حافظوا على هذا البلد 377

الملاحق

صدر للمؤلف

* موسى الزين شرارة

الشاعر الثائر في محيطه العاملي، 2002

* حسن الأمين

رحالة وأديباً ومؤرخاً، 2006

عن دار المنهل اللبناني

* **أغاني الهوى ورسائل الحنين، 2010**

عن دار المنهل اللبناني

* قيد الإعداد أطروحة دكتوراه

موضوعها: **الشيخ أحمد رضا علامة ولغوياً ومؤرخاً.**

إحسان شرارة

- ولد في بنت جبيل 1936.

1948 أنهى الدراسة الابتدائية في مدرسة بنت جبيل الرسمية.

1949 في كلية المقاصد الإسلامية في صيدا.

1950 - 1951 في الكلية الجعفرية في صور حيث حصل على شهادة البريفيه.

1952 الدخول إلى دار المعلمين في بيروت.

1953 شهادة البكالوريا القسم الأول.

1954 تخرج من دار المعلمين وعيِّن مدرساً في بنت جبيل.

1956 نقل إلى ديوان المحاسبة ثم أعيد إلى وزارة التربية.

1957 تابع دورة تدريبية في علم النفس التربوي لمدة سنة في دار المعلمين في Grenoble (فرنسا)

1958 شهادة الفلسفة اللبنانية.

1959 عيِّن مساعداً قضائياً في بيروت.

1960 درّس مادة اللغة العربية في الصفوف التكميلية والثانوية في ثانوية ابن سينا حتى سنة 1972.

1961 إجازة في العلوم المالية والإدارية (من المعهد المالي - وزارة المالية).

1962 عُيِّن أميناً معاوناً للسجل العقاري في زحلة بعد مباراة أجراها مجلس الخدمة المدنية.

1963 إجازة في الحقوق من الجامعة اللبنانية.

1964 نُقل إلى بيروت لنفس الوظيفة.

1965 عُيِّن رئيساً بالوكالة لدائرة أملاك الدولة، بالإضافة إلى وظيفته.

1971 إجازة تعليمية في الأدب العربي من الجامعة اللبنانية.

1974 عُيِّن أميناً مركزياً للسجل العقاري في قضاء المتن الشمالي، وبقي حتى إحالته إلى التقاعد سنة 2000.

- عضو في اللجنة المكلفة باقتراح تعديل القوانين العقارية (مديرية الشؤون العقارية).

2002 رسالة دبلوم في الأدب العربي من جامعة INALCO (باريس).

2005 شهادة دبلوم دراسات معمقة في اللغة العربية وآدابها - جامعة الروح القدس - الكسليك.

هذا الكتاب

فكّرتُ طويلاً، وأخذتُ كثيراً من الوقت، حتى استَقرَّ رأيي على هذا العنوان، عَلَّهُ يكونُ اسماً على مسمّى، وتنطبقُ عليه مقولة «الكتاب يُقرأ من عنوانه» ففيه أرى نفْسي، ورحلةَ عمري، ومسلسلَ أيامي، ومختلفَ مشاعري، وأرى فيه كذلك فَرَحَ الصِّبا، ووجعَ البعاد، ومعاناة الغربة... وأنا - في الوقت نفسه - من جيلٍ عصاميٍّ، طامحٍ، حَمَلَ مبادىءَ المُثُل العليا، وحَلِمَ بغدٍ عربي مشرق، ومستقبلٍ زاهر، وباستقرارٍ واعد..

لكن الأحداثَ التي طاولتِ الوطنَ الصغير ودنيا العرب، اغتالتْ آمالنا، وخَنَقَتْ أحلامنا، وأحالتْ أيامنا قلقاً واحتراباً ورعباً، فدمَّرْنا وطننا، وتقاتلنا - ولمّا نزلْ - وفقدْنا نعمةَ الأمان، ولذَّةَ الاستقرار، وأضعْنا عمرَنا بين التهجير والخوف، ورميْنا أنفسنا في دوّامة صراعٍ عَبَثيٍ مجنون.

نحن، المعذّبين في الأرض، لا نعرف ما يحمل إلينا غَدُنا، وما تخبئه لنا الأيّام... نرجو، ونحلم، ألاّ نُهَجَّرَ في وطننا، أوْ مِنْ وطننا، فهذه مأساة فلسطين، مأساةُ كلِّ العرب تُذكِّرُنا بكلِّ أندلسٍ ضائعة، وبكلّ مؤامرةٍ خبيثةٍ طاولت أو سوف تطاول أيَّ بقعةٍ من وطننا الكبير.

ISBN 978-9953-557-12-0
9789953557120